

مركز دراسات الوحدة العربية

حفريات في الذاكرة

من بعيد



الدكتور محمد عابد الجابري

حفريات في الذاكرة

من بعيد



مركز دراسات الوحدة العربية

حفريات في الذاكرة

من بعيد

الدكتور محمد عابد الجابري

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الجابري، محمد عابد

حفريات في الذاكرة من بعيد/ محمد عابد الجابري.

٢٣٨ ص.

١. الجابري، محمد عابد ـ المذكرات. أ. العنوان.

928.927

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الطبعة الأولى

بيـــروت، آب/أغسطس ١٩٩٧

المحتويات

تقديم

حفريات في الذاكرة. . . ؟

هل يتعلق الأمر بجنس في الكتابة جديد، أم بمجرد اسم آخر يضاف إلى قائمة الأسماء التي تطلق على جنس أدبي معروف منذ القديم، يسمى تارة بـ «السيرة الذاتية» وأخرى بـ «اعترافات»، وثالثة بـ «مذكرات»، مع ما يقيمه المختصون في هذا المجال من فروق بين هذه الأصناف؟

ليس من اختصاص كاتب هذه السطور، ولا من اهتمامه، الخوض في مثل هذه الموضوعات التي هي من اختصاص واهتمام نقاد القول الأدبي. . . كل ما يطمح إليه في هذا التقديم الوجيز، لهذا «المكتوب»، هو توضيح الطريقة التي حاول بها قراءة مرحلة من مراحل حياته الشخصية، هي تلك التي تمتد من الطفولة الأولى إلى الانخراط في «سلك الرجال». إن الأمر لا يتعلق بسرد «تأريخي»، لوقائع حياة شخص، يتوخى الاستقصاء ويتقيد بالتسلسل الزمني. كلا، إن الغرض من هذا القول هو، أساساً، القيام بعرضٍ وتحليلٍ، مع نوع من التأويل، لما يبدو لـ «الكاتب» ـ بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ـ أنه يستحق، على وجه ما، أن يحكى وينقل إلى القارىء. وبما أن وقائع الحياة الشخصية، وكذا الاجتماعية العامة، تتحول بمجرد وقوعها إلى ذكريات في «نفس» الإنسان، تتراكم مع مرور الزمن وتتدافع، ويغطي بعضها بعضاً أو يخنقه أو يمحوه ويلغيه، فإن ما يبقى منها صامداً هو، حسب ما انتهى إليه كاتب هذه السطور بعد استبطان وتأمل، أشبه ما يكون **بالقطع الأثرية** التي تمكنت، بهذه الدرجة أو تلك، من مقاومة عوامل التحلل والاندثار، وسط ما تراكم عليها وحولها من مواد لاأثرية، لاتاريخية، فغدت تفرض نفسها على الباحث الأركيولوجي، الباحث المنقب عن الآثار، كمعالم وشهادات ذات معنى، لا أقول في

ذاتها، ولكن أقول، بالنسبة للمحلل الذي يعطي للأشياء معاني ودلالات معينة، مستنداً في ذلك، لا إلى ذاته وحدها، فهمه وميوله واصطلاحه ومراده، بل أيضاً وبالدرجة الأولى إلى كل ما يتشكل منه حاضره: بما فيه من رواسب الماضي ونزوعات المستقبل.

وإذا نحن شئنا الاقتصاد في الكلام، بتوظيف صورة أدبية والكف عن لغة التحليل النظري المجرد لموضوع نريد له أن يبقى القول فيه على السليقة ما أمكن، قلنا إن كاتب هذه السطور يشعر، حينما يلتفت وراءه ويجول ببصره وبصيرته، بعيداً عن حاضره، يشعر وكأن هذه السنين الستين التي مرت من حياته أشبه ما تكون فعلاً ـ وهذا تشبيه مبتذل ولكنه مناسب وجميل ـ بنهر... نهر يمتد منبعه بعيداً إلى منتصف الثلاثينات من هذا القرن حيث يتصل بروافد آتية من مسافات أبعد، تنقل إليه ابتسامات وانطباعات وتوضيحات اندمجت بصورة أو بأخرى في مجراه الخاص الذي يتسع حيناً ويضيق حيناً، يفيض ماء تارة ويجف أخرى، وهو يشق طريقه عبر معارج والتواءات ولف ودوران، حتى إذا مضى عليه ربع قرن أخذ في الانقسام إلى تيارين متوازيين، متداخلين ومنفصلين في الوقت نفسه: تغمر أحدهما تجربة سياسية، وتغمر الآخر اهتمامات وهموم ثقافية. ولا زال التياران يغتنيان... ويتنافسان في تكامل، أو قل يتكاملان في تنافس.

مشروع هذه «الحفريات» يطمح إلى التحقق كاملاً في ثلاثة أجزاء. أولها هذا الذي بين يدي القارىء، وهو يغطي ـ بل «يعري»، فالحفر الأركيولوجي تعرية ـ مرحلة ما قبل انقسام المسار إلى التيارين المذكورين: مرحلة الصبا والمراهقة وأوائل الشباب. إن المواد التي نتعامل معها هنا جميعها وقائع وقعت فعلاً. ليس هاهنا قصة ولا تخيل، ولا «خلق» ولا «ابتكار»... ولكنها كجميع «المواد» لا تنطق بنفسها إلا عن وجودها الزمني، إذ لا تملك إلا هويتها الوجودية... أما ما عدا ذلك فهو قراءة تحاول استنطاق معنى ما كان له معنى، وإعطاء نوع من المعنى لما كان يقدم نفسه بلا معنى.. تماماً كما يفعل عالم الآثار. ومن هنا اصطلاح «الحفريات» و «الحفر الأركيولوجي» وما في معنى هذه العبارات.

وعملية إعطاء المعنى لمعطيات الذاكرة ـ كما للقطع الأثرية ـ عملية تتعاون عليها عدة عناصر: هناك **أولاً** السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور. وهناك ثانياً الدلالة النفسية والاجتماعية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة من جهة،

ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية. وبذلك تكتسب الذكرى المسترجعة بعداً إنسانياً يحيل إلى الإنسان كإنسان، وبعداً اجتماعياً يحيل إلى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي... وقد يندمج البعدان معاً في سياق واحد. وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل. إن الأمر يتعلق بنص غير مقالي، غير فلسفي ولا علمي، وبالتالي لا مكان فيه للاستدلال «البرهاني»... إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية، ويتغذى من مخزون ثقافي معين، ويوظف الصورة والإشارة والتلميح والرمز، إلى جانب ما قد يكون هناك من تدفق العفوية وإبداع السليقة.

هذه التحديدات تخص الجزء الأول من هذا المشروع. أما الجزءان الآخران فلا يمكن الحديث عنهما قبل إنجازهما.. ولكل مقام مقال.

الدار البيضاء في شباط/ فبراير ١٩٩٧

محمد عابد الجابري

ملاحظتان

١ ـ باستثناء بعض الشخصيات التي ذكرت في سياق وطني، لاشخصي، اقتصرنا على ذكر أسماء الذين فارقوا الحياة من الأهل والأصدقاء ولم نذكر أسماء الأحياء تجنباً للإحراج.

٢ ـ نشرت هذه «الحفريات» في صورتها الأولى في جريدتي **الشرق الأوسط والخليج** خارج المغرب، وفي جريدة **الاتحاد الاشتراكي** المغربية، نشراً متزامناً على حلقات، في الأسبوعين الثاني والثالث من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦. وقد تمت مراجعتها مع إضافات عند إعدادها للنشر في هذا الكتاب. أما النصوص فتنشر هنا لأول مرة. وقد رأينا من المفيد إدراج نص الحوار المشترك الذي أجرته معي كل من **الاتحاد الاشتراكي** ومجلة **المجلة** حول هذه «الحفريات» وكان قد نشر في شباط/ فبراير ١٩٩٧.

الفصل الأول

ـ ١ ـ

يحتفظ الناس عادة، في أذهانهم ووجدانهم، بذكريات عن طفولتهم الأولى، ولكنهم في الغالب لا يستطيعون ترتيبها ترتيباً زمنياً، فذكريات الطفولة تمثل في الذهن والوجدان، عند استدعائها، متزامنة متزاحمة، وكأنها «حاضر» سابق لكل زمان. ومع ذلك فإن صاحبنا يستطيع أن يجزم مع نفسه بأن ذكريات طفولته الأولى تؤسسها جملة وقائع سابقة على غيرها، على صعيد الذكرى، وهو يعتقد أنه لن يرتكب خطأ إذا هو رتبها زمنياً كما يلي:

أما الواقعة **الأولى** فقد جرت عندما كان ما يزال رضيعاً يحبو: كانت أمه جالسة تغزل على شمس ضحى يوم من الأيام التي لم يكن يعرف بعدُ كيف يصنفها أو يسميها. كانت لابسة، كعادة نساء مدينة فجيج يومئذ، إزاراً رقيقاً من الصوف يسمى «الحايك»، يشد إلى صدر المرأة بعقدتين فوق ثدييها. ولم تكن النساء ـ نساء بلدته على الأقل ـ يلبسن آنذاك سروالاً ولا ما يقوم بوظيفة السروال. كانت المرأة تضطر دوماً إلى جمع رجليها في اتجاهين متقابلين عندما تجلس، ومعها غيرها، ستراً للمناطق الداخلية من جسمها. ولكن جمع الرجلين بهذا الشكل لا يتأتى عندما تكون المرأة بصدد غزل الصوف: فالغزل، كما كانت تمارسه آنذاك نساء بلدته، عملية تتطلب وضعاً جسمانياً خاصاً: تجلس المرأة ورجلها اليسرى مثنية على الأرض في اتجاه اليمنى أفقياً، أما اليمنى فتنتصب إلى أعلى حتى الركبة لتنزل على الأرض مشكلة زاوية منفرجة قليلاً. ولا بد أن تبقى الساق، من الركبة إلى القدم عارية، إذ عليه تدحرج المرأة صعوداً وهبوطاً، بباطن كفها الأيمن وبسرعة منتظمة، القسم الأعلى

من المغزل، فتدور بدورانه قطع الصوف المنفوش الذي سبق خرطه على شكل رقائق. وبفعل حركة المغزل الدائرية تتحول تلك الرقائق إلى خيوط مبرومة تلف حول المغزل في وسطه إلى حدود الحلقة الخشبية التي تركب قريباً من نهايته السفلى كحاجز يجبر الخيط على الصعود ثانية عندما تقوم المرأة الغازلة بحركة خاصة لهذا الغرض: حركة تتعاون على إنجازها الرجل اليمنى التي يتدحرج عليها المغزل واليد اليسرى التي تمسك بقطعة الصوف إلى أعلى، قريباً من عيني المرأة وعلى بعد نحو شبر منهما، بينما تتولى اليد اليمنى، بعد دحرجة المغزل، تسهيل ومراقبة عملية البرم بواسطة السبابة والإبهام.

هذا الوضع الجسماني الخاص والحركة التي تقتضيها عملية الغزل يجعلان رجلي المرأة عرضة للعري فتحدث فجوة ما بين اليسرى الممتدة على الأرض واليمنى المنتصبة على شكل زاوية كما قلنا. فإذا كانت المرأة الغازلة لوحدها أو مع أبنائها الصغار تعاملت مع هذه الفجوة بنوع من عدم الاكتراث. أما عندما يكون معها غيرها من أفراد أسرتها أو من نساء الحي فإنها تحشو الفراغ المذكور بما يفضل من حاشية إزارها التي تغطي رجلها اليسرى، بينما تلف الحاشية الأخرى على الرجل اليمنى حتى الركبة، أو قريباً منها، بحيث لا يبقى منها عارياً سوى الساق التي يتحرك عليها المغزل.

يتذكر صاحبنا بكل وضوح هذا الوضع الجسماني الذي كانت عليه أمه وهي تغزل حينما اتجه برأسه، وهو يحبو، نحو تلك المنطقة الوحيدة من جسم أمه التي لم تكن في متناوله، والتي كانت تشكل بالنسبة له المجهول الأكبر. والأطفال مولعون دوماً بالكشف عن الأسرار وارتياد المناطق الممنوعة. لم يشعر إلا ويد أمه تدفعه بعيداً عنها دفعة قوية عنيفة قضت على فضوله، وجعلته يحس بما يمكن أن يفسره اليوم بنوع من الندم، شبيه بذلك الذي يحس به من ارتكب خطأ واعترف به أمام نفسه. عاد يحبو جانباً دون أن يبكي أو يحتج، أو على الأقل لا يتذكر أنه صدر عنه شيء من ذلك. ولكنه بالمقابل يتذكر بكل وضوح أنه انتابه شعور غريب تماماً، شعور يمكن أن يفسره اليوم بكونه علامة على أنه كان قد أدرك لأول مرة، من خلال دفع أمه إياه تلك الدفعة العنيفة، أن أمه شيء وأنه هو شيء آخر. ولو كان يفكر آنذاك بعقله الذي يفكر به اليوم لقال في ذات نفسه: إن الولادة عملية غير قابلة للانعكاس، والعودة إلى الرحم هي أولى المستحيلات...

إن صاحبنا لواثق من صدق هذه الذكرى التي ترجع فعلاً إلى سن مبكرة.

مستنده في ذلك أنه كان يسترجعها، أو على الأصح، كانت تعود تلقائياً لتفرض نفسها من جديد في ذاكرته الحية، كلما شاهد أمه في مثل ذلك الوضع الجسماني وهي بصدد الغزل، فيحني رأسه وينصرف أو يتشاغل بشيء آخر، وكأنه يحاول نسيان ذلك المشهد. وذكريات الطفولة تخلد في الذاكرة بالتكرار، وبالتكرار يتم «الحفظ». وقديماً قالوا: «الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر».

إن أهمية هذه الحادثة، التي يتذكرها صاحبنا وكأنها وقعت قريباً جداً من «الحاضر»، ترجع إلى أنها كانت ـ في تقديره اليوم ـ تشكل بالنسبة له الفطام الأول، لا بل الفطام الحقيقي الذي أدى وظيفة «الفطام الرسمي» الذي لم يكن يشكل في حياة صاحبنا قطيعة ما.

كانت الواقعة الثانية، في زمن ذاكرته، هي هذا «الفطام الرسمي» نفسه، الذي تم بعد الواقعة الأولى بمدة، قد تكون شهوراً وقد تكون سنة. إنه يتذكر تماماً كيف أنه عاد من الشارع عصر ذات يوم، ليهرع كعادته، يجري على قدميه، نحو أمه ليرضع. لقد ارتمى عليها وهي جالسة تغزل قريباً من نفس المكان، متجهة هذه المرة غرباً نحو الشمس. ولكن ما إن أخذ ثديها الأيمن بيديه الصغيرتين حتى اكتشف أن حَلَمَته مكسوة بطبقة كثيفة من شيء أشبه بالطين، ولكنه لزج وأخضر. وقد عرف فيما بعد أنه الحناء. وقد كانت المرأة المرضعة تكسو بها حلَمتي ثدييها وقت فطام الطفل لجعله ينفر من الرضاعة. ويستطيع صاحبنا اليوم أن يراهن على أن نفوره من الحناء طول حياته يرجع إلى هذه الواقعة.

ومهما يكن فقد ترك أمه واتجه إلى ثقب مدور على السارية أشبه ما يكون بالكوة كان يخزن فيه متاعه الخاص (خبز، تمر، لعبة...). مدّ يده إلى داخل الثقب وأخرج قطعة من الخبز وانصرف إلى الشارع من جديد وهو يقضم منها.

إنه يتذكر هذه الحادثة جيداً. يتذكر أنه كان بالفعل يعود من الشارع، حيث يلعب مع أقرانه الصغار، ليرضع من ثدي أمه واقفاً أو منحنياً، ثم يرجع إلى أقرانه ليواصل اللعب. وحينما حدّث جدته عن ذلك فيما بعد قالت له: «بالفعل كان الأمر كذلك، فلقد رضعت أزيد من عامين ونصف...». والحق أنه يتذكر جيداً أنه كان يخلط بين الرضاعة والأكل. كان يأكل القطعة من الخبز أو اللقمة من الكسكس ليعود إلى ثدي أمه ينهل منه ما شاء له أن ينهل. لقد كان فطامه متقطعاً قابلاً للانعكاس لمدة طويلة. لقد كانت أمه له وحده، إذ كان أبوه قد طلقها وهو ما يزال

جنيناً في بطنها ولم يكن لها ولد آخر غيره ولا زوج آخر ينافسه عليها. لقد شبع أمه التي كانت له لوحده أثناء طفولته الأولى وكأن القدر ينتقم له، من خلال هذا الاتصال المستمر بها، من تلك الدفعة العنيفة التي أبعدته بها عن حجرها يوم كانت تغزل. . . لقد كان وحيد أمه، لا بل وحيد الأسرة. كانت أمه تعيش في بيت أبيها مع والدها وأمها وأخويها اللذين كان أحدهما يكبرها ببضع سنين، بينما كان الآخر أصغر منها قليلاً، وقد توفي بعد مرض طويل لا يذكر من أعراضه إلا السعال وضيق التنفس.

توفي هذا الخال وصاحبنا ما يزال صبياً، حتى إنه لا يتذكر منه إلا شحوب الوجه. أما حادثة الوفاة نفسها وما رافقها من دفن وحداد فلا يتذكر منها شيئاً، بل إنه يستطيع أن يجزم اليوم أن ذاكرته لا تحتفظ له بأي معنى من معاني الموت من هذه الحادثة التي تنتمي إلى ذكريات طفولته الأولى. وإذا كان يتعذر عليه الآن تحديد تاريخ هذه الوفاة تحديداً دقيقاً فإنه يرجح، مع ذلك، أنه كان يومئذ في نحو الثالثة من عمره. دليله على ذلك أن خاله هذا كان قد توفي قبل حادثة أخرى كانت وما زالت من الحوادث التي يؤرخ الناس بها، أعني انهيار سقف المسجد الكبير بقصر زناكة، سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، وهي حادثة سنعرض لها في فقرة لاحقة.

وأما **الواقعة الثالثة**، التي يمكن وضعها فعلاً في الرتبة الثالثة حسب تسلسل زمن ذكرياته، فهي واقعة ختانه التي لا يزال يحتفظ منها في ذاكرته بمشهدين واضحين تماماً:

أولهما مشهد استلقائه على ظهره، وسط صحن الدار المفتوح على السماء، على شيء مرتفع أشبه بالطاولة، يحيط به جده لأمه وآخرون من بينهم رجل لم يكن غريباً عنه، أخذ يداعبه في فخذيه وفيما بينهما، ثم فجأة قال له: «انظر. . انظر إلى ذلك الطائر». وما إن اتجه صاحبنا بعينيه إلى أعلى حتى أحس بشيء كأنه وخز في عضوه التناسلي فصرخ. لكن صرخته ذابت بين زغاريد النساء اللائي كن يرقبن المشهد من على شرفة مطلة على صحن الدار. انتصب صاحبنا واقفاً يمشي وهو يباعد بين رجليه يمنة ويسرة، مذهولاً من ذلك الحشد والمنظر، لا يدري ما حدث بالضبط.

أما المشهد الثاني، الذي يتذكره بكل وضوح من واقعة الختان هذه، فهو نزوله من الطابق العلوي من المنزل لابساً ثياباً جديدة، بل عباءات عديدة، بعضها من الصوف وبعضها من الكتان، وعلى كتفه وعنقه سلهام (بُرنس) صغير مدلًى على

جسمه. أما رأسه فقد كان يزهو بطربوش لا يذكر لونه بالضبط، أحمر أو أخضر، مزركش بخطوط بيضاء صغيرة. نزل وخرج إلى الشارع محاطاً بعناية كبيرة من بعض أفراد عائلته وجلس على مصطبة أمام باب المنزل يأكل من شيء في يده، لعله قطعة خبز أو كعكة ومن حوله أقرانه، صغار الحي، يتسابقون إلى الحصول منه على قطعة مما يأكل، وكان يوزع عليهم بكبرياء وزهو. ومع أن حادثة الختان هي من الحوادث «التاريخية» في حياة الإنسان، فإن صاحبنا لا يستطيع أن يدعي أنه يحتفظ في وجدانه بأية ذكرى نفسية عنها. كل ما يتذكر هو أنه كان محط اهتمام الجميع وأنه كان مزهواً فخوراً، وفي نفس الوقت مذهولاً مندهشاً.

ونأتي الآن إلى الواقعة الرابعة، من الوقائع الرئيسية التي تملأ الصفحة الأولى من صفحات ذكريات صاحبنا. إنها واقعة ترتبط بها عدة ذكريات تشكل في مجموعها معطى أساسياً من معطيات الشعور الذي كان يملأ أناه زمن طفولته.

كان أفراد العائلة يجلسون القرفصاء حول الموقد، كما اعتادوا أن يفعلوا كل مساء من أمسيات الشتاء انتظاراً لنضج طعام العشاء، الذي كان في معظم الأحيان عبارة عن وجبة جماعية من كسكس القمح الصلب مع اللحم والقرع، أو من كسكس الشعير مع «الكرورب» ـ نوع من الكرنب ـ كخضرة وقوائم الضأن أو رأسه، مكان اللحم. كان الموقد يتألف كالعادة من ثلاث أثاف تشتعل بينها قطع من خشب النخل. وعلى الأثافي قدر مملوءة ماء وخضراً ولحماً وتوابل، خاصة الفلفل الحرّيف ـ الذي كان أهل فجيج يستهلكونه بكثرة معتقدين أنه «يحرق» الكميات الكبيرة التي يأكلونها من التمر يومياً ـ وعلى فوهة القدر كسكاس، وهو وعاء مصنوع من دقيق سعف النخل على شكل أسطوانة منفرجة، مفتوحة من إحدى قاعدتيها وضيقة في القاعدة الأخرى على مقدار اتساع فوهة القدر، مع فتحات في وسطها تسمح بمرور البخار إلى داخلها لإنضاج ما فيها من الدقيق المفتول كرات صغيرة: الكسكس (وينطق بالأمازيغية: أوتشو).

كان الوقت مساء، كما قلنا، والظلام يخيم على جميع أجزاء البيت. لم تكن نار الموقد كافية لاختراق كثافة الظلام، فكان مصباح الزيت، المعلق على جانب الموقد قريباً من السقف، يحاول من جهته نشر خيوط من نور عبر ذلك الركام من دخان الحطب وبخار القدر وظلمة الليل. ساد سكوت لم يكن يشوش عليه إلا أزيز النار في الموقد أو حركات يد أمه التي كانت منهمكة في إعداد الطعام. وفجأة استرعى انتباه الجميع صوت في السقف شبيه بحفيف الأشجار، فالتفتوا جميعاً بما فيهم

صاحبنا الذي لم يكن عمره يتجاوز الرابعة، وإذا به يرى ما يشبه قطعة من حبل غليظ، تزحف في هدوء وكبرياء على حافة الجدار، تلامس السقف في اتجاه ثقب على الجدار المقابل. كانت طويلة رمادية اللون ذات عقد في جسمها الذي كان ينكمش قليلاً ثم يتمدد. أما رأسها فكان يميل إلى الصفرة لا يتحرك إلا لماماً. نظر أفراد العائلة إليها وقال أحدهم بكل هدوء وعدم اكتراث: «إنها الأفعى». أما صاحبنا فقد انتابه شعور بالخوف أول الأمر، ولكنه سرعان ما عاد إليه كامل هدوئه واطمئنانه عندما سمع جده يقول: «إنها صاحبة الدار، لا تؤذي أحداً، فلا تشغلوا أنفسكم بها». وبالفعل عاد الجميع بوجهه إلى الموقد وامتدت الأيدي نحو النار تطلب الدفء... ومع دخول بقية جسم الأفعى في غارها تلاشت وقائع هذه الذكرى.

وسيعرف صاحبنا فيما بعد أن الدار التي كان يسكنها مع أهله لم تكن ملكاً لهم وحدهم بل يشاركهم فيها كائنات أخرى. فإضافة إلى الأفعى، «صاحبة الدار»، كانت هناك الحيوانات المنزلية الأليفة. ونادراً ما تخلو دار في فجيج، وفي قصر زناكة بالخصوص، من بضع نعاج أو معزات من أجل الحليب وكبش أو كبشين للمسافدة، وأيضاً استعداداً لعيد الأضحى. هذا إضافة إلى دابة للشغل، حمار أو بغل في الغالب، أما الحصان فنادر. أما الطيور، التي كانت الأفعى تتغذى من بيضها وصغارها، وخاصة منها الحمام والعصافير، فقد كانت طليقة تغدو وتروح ثم تأوي مساء إلى أعشاشها التي تبنيها داخل الدار بين فجوات خشب السقف أو في ثقوب الجدران.

وإذا كان الأطفال الصغار يلهون عادة بالجري وراء العصافير التي تنقر الحب على الأرض فإن الأمهات والجدات ينشغلن أكثر بدلالات أصوات بعض الطيور التي كان منها «البشير» ومنها «النذير». وإن صاحبنا ليذكر جيداً كيف كانت جدته لأمه مشغولة إلى درجة الهوس بصوت العصفورة التي تسمى «تبشيرت» (حاملة البشارة) والتي كان صوتها يكاد يتطابق مع كلمة «يو.. سد» التي تعني بالأمازيغية «جاء» (رجع، وقدم من سفر أو غيره). لقد كانت الجدة تنشرح أيما انشراح لصوت هذه العصفورة التي كانت «تحمل» إليها بشارة قرب عودة ابنها من الجزائر حيث كان يعمل في السدود. ولم يكن تاريخ رجوعه مهماً، فالمهم أنه على وشك أن يعود، الشيء الذي يعني أنه الآن بخير وعلى خير. وإذا صادف أن جاء ساعي البريد يحمل رسالة منه في ذلك اليوم، أو في الغد أو بعد غد، فذلك هو الدليل القاطع على صدق العصفورة «تبشيرت».

ومن الذكريات التي تحضر صاحبنا الآن، بمناسبة الحديث عن الكائنات التي «تشارك» الإنسان في ملكية المكان، منازل وبساتين وغيرها، ذكريات تتعلق بالجن، وهم أكثر شركاء بني الإنسان أهمية. إنهم لا يُرَون في النهار ولكنهم يعمرون المكان ليلاً، فيقومون بنفس الأعمال التي يقوم بها أهل المنزل من البشر، يسمعهم أهل الدار يتحركون، يمشون ويدقون في جنح الظلام. والحق أنه ليعجب اليوم العجب كله حينما يسترجع بعض ذكرياته المرتبطة بـ «معاشرة» بني الإنسان في بلدته مع الجن. إنه يتذكر كيف كان يستيقظ ليلاً على دقات ترسل صوتاً أشبه بصوت الدق على المهراس أو على مسمار في الجدار، فينتابه الخوف ويلتصق بجسم من كان ينام بجانبه: أمه أو جدته أو جده. ولكنه سرعان ما كان يعود إليه هدوءه واطمئنانه عندما يقول له الذي بجانبه: «نم ولا تخف، إنهم فقط الذين لا يُسمَّون، إنهم «المسلمين» (= الجن) يقومون بأشغالهم، يدقون القهوة أو يثبِّتون وتداً... فلا خوف منهم خصوصاً إذا تركناهم وما يفعلون بدون إزعاج». لم يكن الجن يسكنون المنازل وحدها، بل كانوا يسكنون أجسام البشر أيضاً: فلكل فتاة أو امرأة جنيها، ولكل شاب أو رجل جنيته. ويظهر الجني والجنية في صاحبهما بصورة علنية عندما تتعرض الفتاة أو الفتى لأزمة عصبية. ويتذكر صاحبنا كيف أن المختصين في إخراج الجني أو الجنية من جسم الشخص المصاب كانوا يمسكون يد هذا الأخير ويركزون ظفر إبهامهم على ظفر إبهامه ضاغطين عليه بكل قواهم وهم يحركون شفاههم، يقرأون التعاويذ وما أشبه...

في هذا الإطار تندرج خامسة الوقائع أو الحوادث التي تعمر وعي صاحبنا عند استرجاعه لذكريات طفولته الأولى. إنها ذكرى بقيت عالقة بذهنه، لم تفارقه أبداً. يتعلق الأمر بطفل من أطفال الحي خطفه الجن لأنه كان «زهرياً»، الشيء الذي يعني أن الخطوط المرسومة على راحتي يديه كانت على شكل خاص وفريد. وكان مثل هؤلاء «الزهريون» محط عناية فائقة، إذ كان أهلوهم يخافون عليهم من أن يختطفهم «المختصون» في استخراج الكنوز والذين يسخرون جنية الزهري لإرشادهم إلى مكان الكنز. غاب الطفل عن بيت أهله طول النهار. ولما لم يرجع في المساء تيقنوا أنه اختطف، فنادوا على شخص معروف باسترجاع المخطوفين من هذا النوع بواسطة العزائم والتعاويذ.. حضر هذا الشخص «المختص» وجلس بجانب الجذع الذي يمسك باب الدار على الأرض وحفر حفرة استخرج منها تراباً أخذ يذره يميناً وشمالاً متمتماً متعوذاً... حتى إذا انتهى انصرف مودعاً، مطمئناً أهل الطفل بكون

هذا الأخير سيعود إليهم بعد قليل سالماً. ومع ظلام الليل عاد الطفل إلى دار أهله وهو في حالة ذهول لا يدري أين كان ولا من أين أتى. ولم يسأله أحد عن ذلك لأنه لا يجوز السؤال في مثل هذه الأحوال والشؤون التي «تخص» الجن.

وبالجملة كانت الحياة زمن طفولة صاحبنا مجالاً يتقاسمه البشر والجن. كانت تربط بينهم علاقات لامرئية، في المنازل والبساتين والأسواق، يعملون ويشترون ويبيعون تماماً كما يفعل البشر. ومع أن نشاط الجن في المنازل إنما يكون خلال الليل فإن حضورهم في البساتين يكون في النهار وبالخصوص وقت الزوال عندما تشتد حرارة الشمس ويغادر بنو البشر بساتينهم إلى منازلهم. وإذا تأخر أحدهم في بستانه إلى حين توسط الشمس كبد السماء، حين ينعدم الظل ويسود السكون إلا ما كان من أزيز سعف النخل أو أصوات بعض الحشرات، فإنه لا يستبعد أن يصادف في طريقه «جنياً» حاملاً حطباً أو ذاهباً إلى البستان وبيده منجل وعلى كتفه منقاش. وهؤلاء الجن «العاملون» في البساتين وحقول النخل يتمثلون في شكل كائنات بشرية بلباسهم ومشيتهم، ولكنهم يتميزون بانعدام الظل، وبذلك يعرفون (معلوم أن الإنسان ينعدم ظله أو يكاد وقت الزوال). إن عالم الجن كان يلابس عالم البشر، لقد كانت بينهما ألفة ومعاشرة، لا بل صداقة وأحلاف. ولذلك فلم يكن الجن مصدر خوف ولا عنصر تخويف إذا التزم الواحد من البشر بقواعد السلوك المتعارف عليها وعلى صلاحها. ولعل هذا هو ما يرمز إليه هذا الحضور المكثف للجن في حياة الناس في مدينة ليس فيها شرطة ولا حراس ولا قانون مكتوب. لقد كان «الجن» وما يروى بصددهم وسيلة «ردع»، وسيلة تنظيم للحياة. إن الناس يغادرون البساتين، عادة، عند اشتداد الحر مع ميل الشمس نحو كبد السماء، وهو وقت نزول أشعة الشمس عمودياً على الأشياء فلا يكون لها ظل ممدود. ومن أجل قطع الطريق أمام اللصوص من البشر كان لا بد من إشاعة الاعتقاد في أنه لا يرتاد البساتين وسط النهار، أي حين مغادرة أصحابها لها، سوى «الجن» الذين يتميزون بانعدام الظل. لقد كان «الجن» موضوع توقير واحترام، وأيضاً عنصر ردع وتخويف، ليس للصغار وحدهم بل وللكبار كذلك. لقد كانوا يمثلون السلطة غير المرئية كالسلطة التي تمثلها «الدولة» اليوم في نفوس الناس عندما لا يكون هناك ما يجسدها...

ومهما يكن فلقد كان هناك إلى جانب الجن «شياطينهم» يؤذون الناس كـ «شياطين» البشر، سواء بسواء. وكان هناك، في المقابل، الملائكة، وكان من

مهامها مرافقة الإنسان الصالح أينما حل وارتحل، تحفظه وتبعد عنه كل ضرر مصدره الجن أو شياطينهم. ومن أجل أن تستمر الملائكة في مرافقة الشخص وحمايته عليه أن يذكر الله دائماً وأن يقرأ القرآن سراً أو جهاراً أينما كان، في البيت أو في الشارع أو في البستان. حالة واحدة لا يجوز فيها قراءة القرآن هي عندما يكون المرء بصدد قضاء حاجته في المرحاض أو ما يقوم مقامه. في هذه الحالة كان عليه أن يقرأ أدعية ويتلفظ بعبارات أخرى خاصة بالمناسبة. ولا يزال صاحبنا يذكر أن أحد معلميه في الفترة الابتدائية الأولى لقنه وأقرانه الدعاء التالي وطلب منهم قراءته مباشرة عند الفراغ من قضاء «الحاجة» ونصه كما يلي: «الحمد لله الذي أدخلنيه طيباً (= الطعام)، وأخرجه عني خبيثاً...». كان لكل مكان ولكل وضع ولكل وقت دعاء... لم يكن هناك فراغ.

تلك بعض مظاهر الحياة الروحية التي كان الناس في فجيج يحيونها فتقيم في نفوسهم التوازن المطلوب والاطمئنان الضروري. ومع أن كثيراً من هذه المظاهر منتشر هنا وهناك، في جميع البلدان وعلى مر العصور، إلا أن الناس آنذاك كانوا يعيشونها بـ «إخلاص»، فلم تكن مجرد اعتقادات من أجل «الحياة»، بل كانت هي الحياة نفسها، خصوصاً في مدينة معزولة على أبواب الصحراء، قليلاً ما يرتادها غريب أو يدخلها جديد. كان كل شيء فيها يرتبط مع غيره من الأشياء بعلاقة وشيجة، علاقة العشرة والمساكنة: الأطفال والأمهات والآباء والإخوة والأقارب، والحيوانات والطيور والزواحف والحشرات والجن والملائكة والقمر والنجوم، كل هذه الكائنات كانت تسكن فضاء واحداً تربطها مع بعضها علاقات الألفة والمعاشرة، علاقات «المعرفة»: الجميع يعرف القمر والقمر يعرف الجميع...

على أن القمر والسحاب والنجوم وغيرها من الكائنات الجامدة الصامتة تتحول إلى كائنات حية طافحة بالمعنى تقوم بأدوار معينة، على خشبة مسرح الحياة البشرية، يشاهدها الإنسان، وذلك عندما يكون في أحوال خاصة كحالة المرض مثلاً. وفي هذا الإطار يذكر صاحبنا ـ وهذه خاتمة ذكريات طفولته الأولى ـ أنه مرض، وهو في حوالى الثامنة من عمره، مرضاً لم ينتبه إلى خطورته إلا في مرحلة متأخرة جداً، حينما علم من بعض أصدقائه من الجيل السابق له، أن مرضه ذاك كان يندرج ضمن وباء عام، لعله الطاعون، كان قد أصاب فجيج في أوائل الأربعينات من هذا القرن. (قارن مع الطاعون الذي أصاب بعض المدن الجزائرية الغربية في الوقت نفسه وخلده الكاتب الفرنسي ألبير كامو في روايته الشهيرة **الطاعون**).

مشهدان تحتفظ بهما ذاكرته عن هذا المرض. **الأول** هو كثرة الموتى. لقد غدا الموت في تلك الأيام ـ وربما الشهور ـ عنصراً عادياً من عناصر الحياة اليومية يدخل ضمن «الكائنات» التي تعمر المكان والزمان مع كل ما يسم الحياة في ذلك البلد من رتابة وتكرار. لم يكن الناس يتحدثون عن الموت آنذاك كما يتحدثون عن «الغائب» أو النادر أو المخيف، بل كانوا يعيشون الموت في كل لحظة. لم تكن الحاجة إلى المآتم قائمة، فالبلد كله في مأتم، مأتم رتيب صار جزءاً من المألوف اليومي: في كل يوم، وفي كل حي، وفي كل زقاق، مغسل وكفن ونعش على أكتاف بضعة أفراد، يذهبون به إلى المقبرة ثم يعودون للمساهمة في نقل نعش آخر.

يتذكر صاحبنا جيداً كيف كانت هذه النعوش تمر في الأزقة التي كان يلعب فيها مع أصدقائه وكيف أنها لم تكن تثير فيهم أي خوف ولا حتى الحاجة إلى اصطناع التأثر، فلقد كانت من الكثرة إلى درجة أن الشعور الوحيد الذي كانت تثيره فيهم هو الامتعاض من كونها كانت تضايقهم في ألعابهم إذ كانوا يضطرون لفسح المجال لها المرة تلو المرة وبدون انقطاع.

وما هي إلا أيام حتى سقط صاحبنا طريح الفراش. إنه يرى نفسه الآن ـ وهذا هو **المشهد الثاني** ـ جسماً صغيراً ممدوداً على الأرض، مغطى بإزار أبيض، ومن حين لآخر تهجم عليه موجات من الحمى، فيغيب عن رشده، حتى إذا خفت وفتح عينيه على السماء رأى قطع السحاب على صورة خيول وجمال تتحرك أو تتسابق، فيعود ليغمض عينيه أو ليغطي وجهه و «ينام». لقد اختار له أهله ـ من أبيه ـ أن يقيم أثناء النهار في ذلك المكان الذي يقع على جانب الجدار الذي يصل باب الدار بالصحن المفتوح على السماء، عند نهاية سقيفة باب المنزل المظلمة، ولكن الباردة، والتي كانت خاصة بجده يلجأ إليها في الصيف، في أوقات القيلولة خاصة، هروباً من لظى القيظ...

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، والذكريات يستدعي بعضها بعضاً، فإن صاحبنا يرى الآن مشهداً لم يكن قد استحضره عندما كان يستعرض وينظم هذه الذكريات التي تنتمي إلى طفولته الأولى... إنه مشهد جدة أبيه التي كان يدعوها «نانّا حنّا»، والتي كانت قد عاشت أزيد من مائة سنة. ومع أن ذاكرته لا تحتفظ له بتفاصيل كثيرة عن والدة جده لأبيه، هذه التي بلغت من العمر عتيّاً، فإنه متأكد أنه يراها الآن جالسة القرفصاء خلف الباب، غير بعيد من المكان الذي كان ممدوداً فيه أثناء مرضه. كانت تتكلم أحياناً مع نفسها كلاماً لا يفهم، وأحياناً تنادي على هذا

الشخص أو ذاك وتطلب منه ما تريد وكأنها سيدة في الخمسين. وعندما كان صاحبنا «يصبّح» عليها ـ أو يمسي، طلباً لبركتها ورضاها، كما كان أفراد الأسرة يفعلون كل يوم، كانت تمسكه بيديها وتلح عليه في الجلوس على حجرها، وعندما يفعل كان يحس وكأنه جالس وسط مجموعة من العظام.. ومع أنه يتذكر أن رأسها كانت تتدلى منه ضفيرتان خفيفتان قصيرتان وأن شفتيها كانتا مشدودتين طول الوقت إلى بعضهما، وكأن فكيها اندمجا في عظم واحد، فإنه يتذكر جيداً أن أهله كانوا يقولون عنها إنها بدأت تنبت أسناناً جديدة كأسنان الأطفال، وأن شعراً جديداً أخذ يظهر على رأسها... كانت هذه الجدة المعمرة تقيم عند أولادها الثلاثة بالتناوب، وكانوا جميعاً جدوداً لأحفاد وحفيدات. ومع ذلك فقد بقيت تميل إلى أصغر أبنائها الذي كان آنذاك في نحو الخمسين من عمره، وكان الجميع يقول إنها كانت تحابيه، وهو جد، تماماً كما كانت تفعل وهو طفل صغير... والحق أن العاطفة لا زمن لها، بل زمانها حاضر ممتد لا أول له ولا آخر.

ـ ٢ ـ

تقع مدينة فجيج، مسقط رأس صاحبنا، في الجنوب الشرقي من المغرب، على خط الحدود الذي أقامه الفرنسيون بين المغرب والجزائر في أوائل هذا القرن. كانت فجيج وما زالت واحة جميلة مكتظة بالنخيل تحيط بها الجبال من جميع الجهات، وتلامس الجبلين اللذين يحدانها من الجنوب واللذين كانت تقع وراءهما علامات الحدود التي أقامها الفرنسيون في هذه المنطقة، عندما احتلوا الجزائر قبل منتصف القرن الماضي. أما اليوم فقد تقدمت الحدود نحو المدينة منذ قيام الثورة الجزائرية، وذلك عندما أحاط الفرنسيون المدينة من الجنوب والشرق بأسلاك شائكة منعاً لأهلها من مساندة الثوار الجزائريين، ولا يزال الوضع كذلك إلى اليوم. وبين الجبلين المذكورين تمتد الطريق الرابطة بين فجيج وبين قرية بني ونيف، الجزائرية اليوم، المغربية الأصل. وفي منتصف الطريق تنتصب صخرة عليها رسوم قديمة يرى بعض الباحثين أن «لها علاقة مع «آمون رع» بطيبة مصر، علاوة على الكراكيت أي أهرام من الأحجار، بداخلها أدوات بدائية سابقة لنموذج الأهرامات الفرعونية»، مما يدل على قدم هذه المدينة التي كانت إحدى بوابات الصحراء، ومحطة من محطات القوافل التجارية التي كانت تنتقل من بلاد سوس على المحيط الأطلسي إلى صعيد مصر. أما سكانها فهم خليط من عرب وأمازيغ، جمع بينهم المقام والمصاهرة والمصالح ولغة

الكلام، إذ كانوا جميعاً يتحدثون لهجة أمازيغية متفرعة عن لهجة الأطلس الكبير ومتميزة عنها بقربها إلى درجة المطابقة مع اللهجات الأمازيغية التي يتكلمها سكان الخط التجاري الصحراوي الممتد من تافيلالت إلى صعيد مصر.

كانت فجيج (أو فكيك، وبالأمازيغية: إفْيِيْ) تتألف زمن طفولة صاحبنا ـ وما زالت كذلك اليوم ـ من سبعة قصور. و «القصر» ـ ويسمى بالأمازيغية أَغْرَم ـ هو عبارة عن تَجَمُّع سكني، من منازل مبنية من الطوب ومسقفة بخشب النخل والتراب. أما الأزقة فبعضها عار وبعضها عليه سقف يحمل غرفة تابعة لهذا المنزل أو ذاك. كان كل قصر ذا شخصية خاصة به: تسكنه عائلات وأفخاذ معروفة محصية. ولم يكن يحدث إلا في النادر جداً، ولسبب طارىء، أن ينتقل شخص من قصره، قصر آبائه وجدوده، إلى السكنى في قصر آخر... كان أهل قصر «الوداغير» (وبالأمازيغية آت عدي: آل عدي) يعتبرون أنفسهم «شرفاء» أرفع شأناً وأكبر مقاماً وكانوا يمارسون التجارة في الغالب. ويجانبهم يمتد، من جهة الجنوب، قصر «أولاد سليمان» (آت سليمان) وهو من أصغر القصور، يليهما من جهة الشرق، قصر «المعيز» (آت لمعيز) ومعظم أهله من «الشرفاء» المتواضعين. وإلى الشرق، على سفح هضبة فجيج، يمتد قصر «الحمام الفوقاني» (آت عامر) ثم قصر «الحمام التحتاني» (آت واداي) وهما قصران متلاحمان مترابطان، منازل وسكاناً، تغزوهما الرمال بين حين وآخر، وأهلهما كانوا معروفين بالصدق والتصديق إلى درجة الغفلة. وفي الطرف المقابل، أعني إلى الغرب من قصر الوداغير يوجد قصر صغير يحمل اسم «العبيدات» (آت النَّج). وإلى الجنوب من هذه القصور كلها، وعلى أسفل هضبة فجيج يقع قصر زناكة (بالأمازيغية: إزناين) على السهول الممتدة إلى الجزائر، وهو أكبر القصور جميعاً وربما يعدلها مساحة وسكاناً وأهله يعتبرون أنفسهم «المركز» والباقي «أطراف». وبما أنهم كانوا على خط المواجهة مع الفرنسيين في الجزائر فلقد كان نصيبهم من المقاومة والتضحية أكبر، وكانوا لذلك يعتبرون أنفسهم أشجع وأقدر على المقاومة. أما اختصاصهم فكان الفلاحة للرجال وصنع الجلابيب والبرانس للنساء.

في هذا القصر، قصر زناكة، ولد صاحبنا وفيه نشأ نشأته الأولى. ومع أن أهله من أمه كانوا في الأصل من قصر «المعيز» من أولاد سيدي عبد الجبار، وأن أهله من أبيه كانوا أصحاب قصر خاص بهم يحمل اسمهم، فإنهم جميعاً، أعني أهله من أبيه وأهله من أمه، كانوا قد سكنوا قصر زناكة منذ مدة طويلة وصاروا فئة من

فئات سكانه. وإلى زمن طفولة صاحبنا كانت خرائب قصر أولاد جابر قائمة بجوار قصر «العبيدات» قريباً من منحدر الهضبة المطلة على قصر زناكة من الغرب. وهي ما زالت كذلك إلى اليوم. وكانت جدة صاحبنا لأبيه تحرص دائماً على تذكيره بمكان قصر جدوده عندما يكون في رفقتها إلى بعض ذويها في قصر «العبيدات» أو قصر «الوداغير» حيث كانت تسكن أختها.

ولم يكن قصر أولاد جابر وحده «القصر الخراب» في مدينة فجيج، بل كانت هناك قصور أخرى خربة، بعضها على أطراف المدينة وبعضها الآخر على مقربة من وادي زوزفانة الذي تمتد على ضفتيه بعض حقول النخيل التابعة لأهل زناكة خاصة. ويستفاد من سرد المؤرخين لوقائع تاريخ المغرب أنه كان لمدينة فجيج دور هام في كثير من الأحداث والثورات منذ الفتح الإسلامي. يبدو ذلك واضحاً عند ابن خلدون الذي ذكر فجيج مراراً (وأحياناً يكتبها فكيك) في تاريخه، وهناك من يرجع ببعض القصور الخربة في هذه المدينة إلى زمن الأدارسة. ومهما يكن فلقد كانت فجيج مركزاً استراتيجياً وبوابة من بوابات الصحراء، وفضلاً عن ذلك كانت مركزاً علمياً هاماً ومقصداً لأصحاب «الزوايا»، العلماء منهم والأدعياء، ولم يكن عبد الجبار الفجيجي وأبناؤه وحفدته بقصر «المعيز»، ومنهم ينحدر جد صاحبنا لأمه، سوى الرعيل الأخير لسلسلة العلماء والمتصوفة و «الأولياء» بهذه المدينة.

وإذا كان صاحبنا لا يدري شيئاً عن سبب نزوح أهله من أمه من منازلهم بقصر «المعيز» إلى قصر زناكة فإنه، بالمقابل، يذكر جيداً قصة سكنى أهله من أبيه هذا القصر، كما «خبرته» بها، مراراً وتكراراً، جدته من أبيه. تقول «الخبّيرة» (الحكاية) التي روتها له جدته عن جدوده: إن آل جابر كانوا يحكمون المدينة بجميع قصورها، وقد طغوا طغياناً كبيراً في وقت من الأوقات، وصاروا إذا ولد لهم ولد حملته خادمة إلى أحد القصور الأخرى، بالتناوب، ليستقبله أهل ذلك القصر بطفل في مثل سنه، يذبح «تكريماً» للوليد وتأكيداً للولاء لآل جابر. وذات يوم كان الدور على أرملة من قصر زناكة لم يكن لها سوى طفل واحد وحيد، فعزّ عليها وخرجت إلى الشارع عارية تستغيث وتستنهض الرجال، رجال قصر زناكة، فهبوا لنجدتها، وقد ثارت ثائرتهم. وهكذا فبدل أن يذبحوا ابنها تكريماً للطفل الجابري ذبحوا هذا الأخير، ثم جمعوا أمرهم بسرعة وقصدوا قصر آل جابر فهاجموه على حين غرة من سكانه فهدموا المنازل على أهلها وقتلوا من قتلوا منهم واقتادوا الباقين ووزعوهم على القصور الأخرى حتى لا تقوم لهم قائمة من بعد.

وعلى الرغم من الدور الذي قد يكون للخيال الشعبي في قصة «خراب» قصر أولاد جابر، فإن هناك حادثة تاريخية تؤسسها بعض التأسيس. ذلك أن مؤرخي المغرب يذكرون أن أهل فجيج كانوا قد أكثروا من الثورات واستقلوا بأنفسهم مكونين لهم شبه جمهورية صحراوية مستقلة. وأيام الدولة الموحدية قرر أحد ملوكها أن يسلط عليهم إحدى القبائل الشرسة الوافدة من المشرق، مع قبائل بني هلال في هجرتها المعروفة، فوقع اختياره على قبيلة آل جابر فبعثهم إلى فجيج ليخضعوها ويحكموها باسمه. وقد شيدوا قصرهم، بين زناكة والوداغير، قريباً من منابع عين «تزادرت»، وهي أهم مصدر للماء في فجيج، والتحكم فيها يعني التحكم في منبع الحياة الرئيسي في هذه المدينة الصحراوية. ويذكر بعض المؤرخين فعلاً أن أهل زناكة ثاروا على حكم آل جابر في وقت من الأوقات، ولسبب من الأسباب ـ قد يكون راجعاً إلى النزاع حول ماء «تزادرت» وقد يكون غير ذلك ـ فخربوا قصرهم ووزعوهم على أحيائهم، منعاً لهم من أن يلتئم لهم شمل من جديد، مما يعطي خلفية تاريخية حقيقية للحكاية السابقة. ومع أن آل جابر (وبالأمازيغية: آت جابر) قد اندمجوا، بمختلف فصائلهم وأفخاذهم، في أحياء المدينة وبين أهل قصر زناكة بكيفية خاصة، من خلال المصاهرة والمعاشرة والتحالفات، فإنهم قد احتفظوا في سلوكهم ولاوعيهم بشيء من الأنفة والاعتداد بالنفس. كما أن سكان المدينة كانوا، إلى زمن طفولة صاحبنا، ينظرون إليهم بوصفهم «جبابرة» يصعب انقيادهم. وقد سمع صاحبنا من خاله مراراً تأنيباً ينتهي بالعبارة التالية: التي يمكن نقلها إلى العربية كما يلي: «رأسك قاسح (قاس ومتصلب) كراس أولاد جابر».

وعلى العكس تماماً من «كبرياء» آل جابر، أهل صاحبنا من جهة أبيه، كان «أولاد الحاج محمد أو الحاج معضاض»، أهله من جهة أمه، معروفين بالتواضع والمسكنة والعافية. لقد كانوا «أهل علم» لا «أصحاب سيف»، وهم يفتخرون بانتسابهم إلى العالم الشهير سيدي عبد الجبار الفجيجي، صاحب الضريح المشهور في قصر «المعيز». كانت أسرة «الحاج محمد أولحاج» جد صاحبنا لأمه قليلة العدد شأنها شأن أسر أولاد الحاج عموماً. لم يكن لصاحبنا أية خالة وإنما كان له خال واحد (كان الثاني، وهو الأصغر، قد توفي وصاحبنا ما يزال يحبو كما ذكرنا. أما خاله الثالث فقد كان أخاً لأمه من جهة أمها وحدها وقد كانت العلاقة معه محدودة، إذ قضى معظم عمره خارج فجيج، في الجزائر أولاً ثم في وجدة بعد ذلك). كان ذلك الخال، ولد الحاج محمد أولحاج، متين البنية شديد الأنفة صعب المراس، وكان

ينظر إلى صاحبنا، ابن أخته على أنه ابن أولاد الحاج وأنهم أحق به من «الجبابرة» الذين طلقوا أخته حبلى به. . لقد فهم صاحبنا هذا المعنى من خلال عبارات كثيرة كان خاله يرددها أمامه. وإذا كان لا يتذكر بالحرف هذه العبارات فإنه لا يستطيع أن يمحو من ذاكرته جملة المعاني التي كانت توحي بها له. لقد كانت الرسالة واضحة: إن عليه أن يكون من آل الحاج وليس من آل جابر. لقد طلق هؤلاء أمه من غير سبب وهي حبلى به، ملحقين هكذا إهانة بأهلها، فليطلقهم ابنها، هو كذلك، وليبق إلى الأبد ابن أولاد الحاج، فهو طفلهم الذكر الوحيد، وهم أهله الحقيقيون.

ذلك ما حاول الخال مراراً إفهامه لابن أخته، صاحبنا هذا، منذ نعومة أظفاره. والحق أن هذا الموقف لم يكن صادراً عن حقد على آل جابر بقدر ما كان صادراً عن حب الخال لأخته ولابنها ورغبته في احتضان هذا الأخير والاستئثار به. لقد كان هذا الطفل وحيد أمه، بل وحيد أهلها، إذ لم يكن للخال ابن ذكر وإنما كانت له بنت في مثل عمر صاحبنا رزقها من زوجة عرف عنها أنها صارت عاقراً. . ومنذ أن كان طفلاً صغيراً وهو يسمع من خاله أنه سيزوجه ابنته الوحيدة تلك. وقد بقي الخال متمسكاً بمشروع الزواج هذا إلى أن كبر صاحبنا وصار في سن الزواج، فعرض عليه الخال رسمياً أن يزوجه ابنته تلك، فاعتذر بالقول إنه يعتبرها أخته وأنه لا يستطيع أن يتعامل معها على غير هذا الأساس. ولقد كان الأمر كذلك بالفعل، فالعلاقة بينه وبينها كانت من جنس علاقة الأخ بأخته، علاقة حب من نوع خاص لا يمكن تغيير وجهته ولا مضمونه. ومع أن الشباب في فجيج، من جيله والأجيال السابقة، لم يكونوا يمانعون في قبول مثل هذه «الاقتراحات»، أو على الأصح لم يكونوا يستطيعون الاعتذار، فإن صاحبنا كان، يوم عرض عليه خاله ذلك، قد فارق «الشرنقة» منذ زمن طويل، مستقلاً بنفسه في الدار البيضاء حيث كان يدرس ويعمل ويسكن مع أبيه وأعمامه. وتلك مرحلة أخرى سيأتي الحديث عنها فيما بعد. فلنعد إلى أيام الصبا، إلى العلاقة بين أهله من أمه وأهله من أبيه وقصة تسميته باسمه المعروف به اليوم، وظروف نشأته.

- ٣ -

نشأ صاحبنا، كما أسلفنا، نشأته الأولى عند أخواله. وكان جده وجدته لأمه، علاوة على أمه وخاله، يرعونه رعاية فائقة. كان الجد والجدة مسنين، ولا بد أنهما كانا قد تجاوزا السبعين، فكان الطفل الصغير مؤنسهما، لا بل قرة أعينهما. أما

علاقته بأمه ونوع ارتباطه بها وارتباطها به فهو لا يستطيع أن يعبر عن كنهها بالكلام. ولعل القارىء يتخيل نوع هذه الرابطة إذا هو عرف أن طفلنا كان وحيدها، وأنها عادت مطلقة إلى بيت أبيها وهو جنين في بطنها، وأنها كانت من النساء الصامتات الخجولات الصابرات القانتات اللائي لا يسمع لهن أنين ولا شكوى ولا نحيب ولا قهقهة، وأنها مكثت في بيت أبيها بعد طلاقها مدة سبع سنوات عاكفة على تربية ابنها لا تغادر الدار إلا نادراً، رافضة الزواج رغم كثرة الذين كانوا يطلبون يدها. كان أبوها وأمها وأخوها قد حسموا في هذه المسألة: لقد قرروا جميعاً أن لا تتزوج «الوازنة»، وهذا كان اسمها، إلا بعد أن يبلغ «محمد» ـ وهذا هو الاسم الذي حمله ابنها في نهاية الأمر ـ سبعة أعوام كاملة.

لقد علم صاحبنا بذلك القرار فيما بعد، بطبيعة الحال. وهو لا يتذكر بالضبط هل علم به من جدته لأمه أو من جدته لأبيه، ولكنه يعلم علم اليقين، وذاكرته متأكدة من نفسها في هذا الأمر، أن أمه لم تتزوج إلا بعد أن صار فعلاً في سن السابعة، حين انتقل به جده لأمه من مسيد الحي الذي يسكنه أولاد الحاج إلى مسيد آخر يقع في الأحياء المجاورة لحي أهله من أبيه، وكان صاحبه هو والد ذلك الشخص الذي أصبح زوجاً لأمه.

إنه يتذكر هذا جيداً، ويتذكر كذلك وبنفس القوة والوضوح، قصة تسميته «محمداً» كما قصتها عليه جدته لأبيه في مرحلة متقدمة من طفولته، عندما أصبح ملازماً لها في بيت أهله من أبيه، بعد زواج أمه بمدة قصيرة. لقد أخبرته غير ما مرة أن أخواله كانوا يريدون تسميته بـ «عبد الجبار» تيمناً بجدهم سيدي عبد الجبار الفجيجي العالم المشهور الذي سبقت الإشارة إليه. كان هذا العالم الجليل (وله عدة مصنفات حدثني جاك بيرك المستشرق الفرنسي المشهور في لقاء معه خلال ندوة بواشنطن في نيسان/ أبريل ١٩٨٢ أنه يتوفر في خزانته بفرنسا على عدة مخطوطات لسيدي عبد الجبار وقال إنها مهمة جداً وأنه ينوي تحقيقها عندما يسمح له الوقت بذلك. وقد مات جاك بيرك قبل أن يفعل)، كان هذا العالم الجليل أحد آباء جده لأمه، فأراد هذا الأخير أن يخلد اسمه في حفيده تيمناً به.

غير أن هذه الرغبة اصطدمت برغبة أخرى حركت جدته لأبيه. ذلك أنها كانت قد سمت ابنها البكر، والد صاحبنا، باسم «محمد»، تيمناً باسم النبي الكريم. غير أن أقرانه من أبناء الحي قد حرفوا اسمه وهو ما يزال صغيراً فصاروا يدعونه «حمو دودّو»، وهو اختزال لـ «محمد بن أحمد»، وذلك على طريقة أهل فجيج في

تخفيف الأسماء واختزالها. فـ «محمد» يختزل إلى «حمو» زمن الطفولة والشباب، وإلى «أمّو» حين الكهولة والشيخوخة، بينما يختزل «أحمد» إلى «حِدًا» زمن الطفولة والشباب ثم إلى «دودّو» بعد ذلك، كما تخفف خَديجة إلى «خِجّا» ثم إلى «جّا»، وهكذا. . . (بالمناسبة نتساءل: هل هناك علاقة بين هذا النوع من الاختزال لاسم «محمد» بالأمازيغية إلى «حمو»، وبين اسم «حمو رابي ـ أو حمو رَبِّ»، الملك البابلي صاحب الشريعة المعروفة؟ هل «حمو» في «حمو رابي» تحريف أو تخفيف لاسم «محمد»؟ مجرد سؤال. . .).

المهم أن جدة صاحبنا من أبيه أصرت على أن يكون اسمه «محمداً»، فحصل نزاع بينها وبين أخواله. غير أن الجدة، أم الأب، تصرفت كواحدة تنتمي إلى «آل جابر» فهددت بأخذ الطفل وحرمان أمه وأخواله منه، فما كان من هؤلاء، أهل السكينة والعافية، إلا أن قبلوا، فسمي صاحبنا باسمه الذي ما زال يحمله كاسم شخصي. أما اسمه الثاني «عابد» فهو اسم أحد جدوده من أبيه صار علماً على حي من أحياء آل جابر، فيقال «أولاد عابد»، كما يقال «أولاد الطيب» و «أولاد بوزيان»، وغيرهم من فروع آل جابر.

لم تكن جدته من أبيه تنتمي إلى آل جابر وإنما كانت من أصغر قصور فجيج، قصر «العبيدات»، الذي كان ملاصقاً لقصر الوداغير ومجاوراً لقصر آل جابر المخرب المهدم. ومع ذلك فكون جدته هذه ـ واسمها «أدّا»: تخفيف حادة بالأمازيغية ـ أُمّاً لأبناء من آل جابر كان يكفيها لتتصرف كواحدة من «الجبابرة». لقد كانت من تلك النساء اللائي يُقمن الدليل، المرة تلو المرة، على أنهن صاحبات الأمر والنهي، يزوجن أبناءهن من يرتضين من النساء ويطلقنهن متى شئن وبدون اعتبار رأي أزواجهن. ويبدو أن أمراً تافهاً تسبب في شجار كلامي بينها وبين أم عروسها، فكانت هذه وجنينها هما الضحية. لقد طلقت على ابنها زوجته وما كان له إلا أن يقبل، شأنه شأن أبناء كثير من العائلات في فجيج الذين كانوا يتزوجون ويطلقون بأمر أمهاتهم. لم يكن من الممكن الاعتراض على قرار الأمهات في هذا الشأن. . . فلقد كان أقسى عقاب ينال الشخص هو «سخط الوالدين». . .

كانت الأم تختار لابنها زوجته خلال الأعراس والمناسبات، وقد تستعين ببعض ذوات الخبرة من قريباتها أو صديقاتها: يجلسن أثناء الحفل ـ الذي لم يكن يحضره سوى النساء طبعاً ـ ويستعرضن الفتيات الحاضرات مع أمهاتهن، يتصرفن في سرية تامة، ويتكلمن بالإشارة والرمز فيقررن في كل شيء، في الجمال والأخلاق

والنسب والحسب، حتى إذا استقر رأيهن على فتاة رجعت الأم المعنية بتزويج ابنها لتزف البشرى إليه بواسطة عمته أو خالته، ثم تبعث بالخاطبات إلى منزل الفتاة. فإذا سارت الأمور بيسر جاء دور الأب ليذهب هو وبعض معارفه من وجهاء الحي إلى والد العروس للخطبة. قد يتمكن العروس من رؤية الفتاة خلسة، وفي الغالب لا يراها ـ إذا أتيح له ذلك ـ وإنما يرى كائناً بشرياً يمشي على الأرض عليه إزار (حجاب) من قمة رأسه حتى أخمص قدمه، مغطى الوجه بالكامل إلا ما كان من فتحة صغيرة تصنعها أصابع المرأة بين تلابيب إزارها قريباً من إحدى عينيها، وفي حجم عين أصغر الطيور، فترى منها الطريق. أما العين الأخرى فتبقى مغطاة هي وكامل الرأس والوجه والجسم إلى القدمين.

لم تكن المرأة في فجيج تشتغل خارج المنزل، فهي لا تمارس أعمال الفلاحة كما في البوادي المغربية الأخرى. كان كل شغلها في البيت: الغزل والنسيج وإعداد الطعام. أما خارجه فينحصر عملها في الغسل، غسل الثياب في المغسل العام الخاص بالنساء الذي كان عبارة عن قطعة من الأرض محاطة بجدران تشقها ساقية ماء، في منطقة يحرم على الرجال الاقتراب منها. كان هناك في قصر زناكة مغسلان، أحدهما يسمى «اعمارة» وهو لحي «ازناين» الذي سمي القصر باسمهم لكبره وكثرة ساكنيه ويقع شرقاً، والثاني يسمى «احرحاض» وهو في حي «اداريت» إلى الغرب. كانت النساء يذهبن إلى أحد المغسلين، ويعدن منه، محجبات وعلى ظهورهن جفناتهن المملوءة بالغسيل والمغطاة هي الأخرى بالحجاب الذي يرتدينه. وإضافة إلى الغسيل كانت النساء يجلبن الماء على ظهورهن في قلال من الفخار، تحت الحجاب دائماً، من أعالي السواقي حيث يكون الماء نقياً نظيفاً قبيل الفجر. لقد كن يتواعدن كل يوم ويوقظ بعضهن بعضاً ليذهبن جماعات تحت جنح الظلام محجبات (مع التخفيف على الوجه هذه المرة) إلى السواقي العليا ليأتين بالماء النقي قبل خروج الرجال للاغتسال والوضوء لصلاة الصبح.

ويقال ـ استناداً إلى ما احتفظت به ذاكرة صاحبنا من أخبار التقطها على عهد طفولته الأولى، والأطفال يلتقطون عادة مثل هذه الأسرار بسهولة ويسر ـ إنه في هذا الوقت، وقت عودة النساء بالماء من السواقي العليا وخروج الرجال للاغتسال والوضوء قبيل الفجر، حدث ذات يوم، مصادفة أو بموعد سابق، أن جرى خلسة وبسرعة، وفي ركن من أركان الطريق، ما يجري بين رجل وامرأة من علاقات محرمة، فكان ذلك من الحوادث النادرة التي ينتقل خبرها، في العادة، انتقال النار

في الهشيم: يهمس بها الرجل في أذن صاحبه مع التأكيد عليه على «الاحتفاظ بالسر» لنفسه فقط... والحق أنه نادراً جداً ما كان يحصل هذا النوع أو غيره من أنواع «الخروج عن الطريق»، إذ يكاد يكون محصوراً في بعض المطلقين والمطلقات... أما الوافدون على المدينة من أعوان سلطات الحماية الفرنسية من جنود وموظفين فقد أقامت لهم ـ كما فعلت في جميع المدن المغربية ـ حيين خاصين لممارسة هذا النوع من العلاقات بصفة «قانونية»، مع نساء مستوردة من هذه الجهة أو تلك، أحدهما كان في قصر زناكة (= القسبت أو القصبة) ولم يعمر طويلاً، والثاني بحي الوداغير (= تميجرت) وهو أكبر لقربه من الحي الإداري، وقد أغلق مباشرة مع إعلان الاستقلال. ولم يكن أبناء فجيج يرتادون هذين الحيين إلا في النادر... وعلى العموم لقد كان الزواج هو الطريق المستقيم، وكان سهلاً وميسراً مثله مثل الطلاق.

فعلاً، لم يكن الزواج يومئذ يكلف كثيراً، فالهدايا بسيطة والمهر أبسط، إذ لم يكونا يتجاوزان في الغالب حزاماً ملوناً مفتولاً من خيوط الصوف الغليظة الذي تحمل المرأة عليه ما تضعه على ظهرها كالأولاد الصغار وقلال الماء وجفنات الغسيل، وقد يشتمل المهر على خلخال وأسورة، كانت من الفضة لا غير. أما الذهب فنادر جداً. وأما حفلة الزفاف فكانت تقام على شكل «تويزة»، أي على صورة مشروع جماعي، يشارك في الإعداد لها وفي موادها أصدقاء العريس وأقاربه. أما الطلاق فلم يكن مستهجناً قط، بل كان أمراً عادياً تماماً. وكانت أم الزوج هي التي تتولاه في الغالب. ولكن قد يحدث أن تأتي المبادرة من الزوج فتقول عنه النساء حينئذ إنه «يكره»، كما قد يحدث أن «تكره» المرأة فتعتصم في بيت أهلها رافضة الذهاب إلى زوجها. أما علاقة «الحب» ومظاهرها فكانت، إن وجدت، تتم في سرية تامة، حتى بين الزوج وزوجته، إذ نادراً ما يرى أحدهما الآخر في النهار: فالزوجة مشغولة طول الوقت مع حماتها تغزل وتحيك وتهيىء الطعام الخ... حتى إذا جن الليل آوت إلى مخدعها لتنام مع زوجها، متجنبة استعمال مصباح قوي أو تركه مشتعلاً أكثر من الوقت الضروري لدخول الغرفة وأخذ مكانها فيها. وحتى إذا تركه الزوج يضيء ما حوله بنوره الخافت، فإن آداب الجماع كانت تقتضي أن يغطي الزوج وجه زوجته بإزارها...

تلك كانت العادة السائدة يومئذ، ولكنها لم تكن عامة بنفس الشكل ولا بنفس الدرجة، وصاحبنا يشك في أن والده كان يلتزم بها مع زوجاته (لقد زوجته أمه وطلقت له أكثر من ثلاث مرات) فلقد كان رجلاً يسافر إلى بوعرفة ووجدة، وقد

تعرف هناك على نمط آخر من التعامل مع النساء، ولذلك يستطيع أن يقول عنه إنه كان متحرراً ولم يكن متزمتاً. وإذا كان لا يستطيع أن يقول أي شيء عن نوع العلاقة التي كانت تشد أباه إلى أمه قبل انفصالهما فإنه يستطيع أن يؤكد أنه ما سمع يوماً كلاماً غير لائق من أبيه في أمه أو العكس، بل إنه يستطيع أن يخمن الآن أن سكوت أمه عن ذكر اسم أبيه وسكوت أبيه عن ذكر اسم أمه طوال طفولته إنما يدل على علاقة حميمة دفينة قمعتها «الحرب» التي كانت بين الجدتين. إن «رضا الوالدين» كانت له هنا الكلمة العليا على العاطفة بين الزوجين.

كان الأب يحب ابنه ويدلله ويتلذذ بالدخول معه في جولات حبية من الملاكمة والمطارحة. وبما أنه كان تاجراً يسافر إلى وجدة فلقد كان يحمل معه لابنه كلما عاد من سفره هدايا كثيرة من مأكولات وعباءات من الكتان والحرير إلى درجة جعلت هذا الابن يتباهى أمام أقرانه بعباءاته التي كان يلبس منها مرة واحدة ما قد يصل عدده إلى خمسة أو ستة، في حين كان جل أطفال بلدته يقتصرون على عباءة أو اثنتين من الصوف في الغالب. ولم يكن أبوه تاجراً وحسب بل كان أيضاً صاحب مخبزة، وكان يحرص دائماً على أن تكون الخبزة التجريبية المسماة «الطورطة» من نصيب صاحبنا يحملها معه إلى بيت أمه. و «الطورطة» خبزة خاصة تلقى في الفرن لمعرفة مدى ملاءمة حرارته لطهي الخبز، وتكون في العادة عريضة ورقيقة تتخللها فتحات في طول الإصبع أو أكثر، وكانت لذيذة جداً تؤكل مع الشاي أو بمفردها، فكانت لـ «الخواص» فقط. لقد كان الأب يحب ابنه كثيراً ولذلك لم يكن أحد من عمال المخبزة يخالف له رغبة.

كان والد صاحبنا تاجراً وصاحب مخبزة. وقبل أن يصبح كذلك مارس مهنة البناء كأبيه. غير أن صاحبنا لم يدرك أياً منهما يمارس هذه المهنة، إلا إذا تعلق الأمر ببناء جدار في البستان أو إصلاح سقف في الدار. أما المهنة التي أدرك صاحبنا جده لأبيه يمارسها فهي مهنة خياطة البرانس، وكان يقوم بها في الغالب خارج المنزل في مكانه «الثابت» من المجمع الذي يرتاده في حي «أورتان» قريباً من منزله. ولم يكن يقبل أو يرضى أن يتولى حفيده إمساك خيوط «البرشمان» له، بل كان يستعمل أطفالاً آخرين. ومع أنه كان رجلاً صموتاً وقوراً، لا يتكلم إلا عند الحاجة ولا يبتسم إلا بمقدار، فإنه لم يكن يبخل على حفيده بقطعة من السكر عندما يكون بصدد «إقامة» الشاي في المنزل بعد الغذاء. لقد كانت هذه الإلتفاتة من هذا الرجل، المعروف بجديته الفائقة، تنطوي على معنى، إذ لم يكن يحظى بمثلها أحد من أفراد

العائلة. وأكثر من ذلك كان صاحبنا هو الشخص الوحيد، من بين أفراد الأسرة، الذي يناديه هذا الرجل الوقور للجلوس بجانبه. ومن المؤكد أنه كان الطفل الوحيد الذي كان هذا الجد يبتسم له ويداعبه ولكن دائماً بوقار ومقدار.

وإلى جانب الخياطة كان هذا الجد يقوم بمهمة المتصرف (= أسرايفي) لحصص ماء «تزادرت» التي كان يملكها أحد أقارب العائلة من الأغنياء بقصر الوداغير. كانت مهمة دقيقة وصعبة إذ تتطلب المعرفة بأنواع معقدة من الحساب يقوم بها «المتصرفون» ذهنياً بدون أوراق ولا أقلام إلا ما ندر. لقد كان لكل قصر من قصور فجيج عين ماء ـ واحدة أو أكثر ـ منها يشرب أهله ويسقون دوابهم وزرعهم، هذا إضافة إلى الآبار التي كان ماؤها مالحاً في الغالب. غير أن معظم العيون لم تكن ذات صبيب يسمح بالاستفادة منه في الفلاحة، باستثناء عين «تزادرت» التي كانت وما زالت خاصة بقصر زناكة تقريباً، نظراً لوجودها في بداية انحدار الهضبة المطلة على السهل الذي يمتد فيه هذا القصر مع بساتينه.

كانت عين «تزادرت»، إذن، المصدر الرئيسي للماء في فجيج، ولقصر زناكة بالخصوص. وكان ماء هذه العين ـ وما زال ـ لا يزيد ولا ينقص، فقد شيد مخرج الماء فيها بشكل يجعل صبيبها ثابتاً منتظماً طول السنة، ثم وزع على قنوات رئيسية ذات حجم واحد يعطي كل منها صبيباً مساوياً لصبيب الأخرى. والصبيب الذي تعطيه الواحدة من هذه القنوات الرئيسية في مدة خمسة وأربعين دقيقة يسمى «الخروبة» (بالأمازيغية: تخرويت). وكان عدد منها في «ملكية جماعية» يستفيد منها السكان جميعاً، بينما كان الباقي، وهو الأكثر، في ملكية الخواص يباع ويشترى. وكانت «الخروبة» من ماء «تزادرت»، وما تزال إلى اليوم، سلعة لا تبور إذ كانت أهميتها، وما تزال، كأهمية الذهب في أسواق المال. ومن القنوات الرئيسية تتفرع قنوات أخرى أكثر عدداً وذات صبيب منتظم وثابت، يصب كل منها في صهريج خاص، وكانت الصهاريج في حجم مسابح اليوم، وكان الأطفال والشباب يسبحون فيها كما يفعل أقرانهم اليوم في المسابح العامة. كان لكل صهريج متصرف واحد أو أكثر يوزعون ماءه بطريقة دقيقة: يقاس ارتفاع الماء في الصهريج إلى أقصى علوه بعمود مستقيم من خشب لا ينال منه الماء بسرعة. يوزع العمود إلى أقسام بمقدار السنتمتر تقريباً، بالحفر عليه بواسطة سكين أو حجر حاد. وحجم الماء الذي يمثله كل قسم من هذه الأقسام، التي تختلف حسب حجم الصهريج، يسمى «تيغريت» وعلى أساسها تتم محاسبة ما استهلكه الشخص من الماء في سقي بستانه أو ملء خزان

الماء المنزلي الخاص إذا كان له مثل هذا الخزان. كان الصهريج الواحد تسقى منه عدة بساتين وكان على صاحب البستان أن يعلم على عمود القياس مقدار استهلاكه من الماء ثم يقوم المتصرف بضبط استهلاك المشتركين ومحاسبة كل واحد. وفي الصباح قبل شروق الشمس يجتمع المتصرفون للتنسيق وتبادل حصص الماء. ولم يكن المتصرف يتقاضى أجرة نقدية بل كانت تمنح له حصة خاصة من الماء تتفاوت بتفاوت عدد الخروبات التي يتصرف فيها. ومع أن المتصرف يتوفر على «ساعة» جيب لحساب الوقت إلا أن مرجع المتصرفين كان بالأساس «الساعة الشمسية» التي يقدر الزمان فيها بواسطة تحرك الظل على جدار معلوم ومختار لهذا الغرض وكان يقع وسط ساحة «الجماعة» بجوار منزل صاحبنا لأهله.

ولم يكن جد صاحبنا لأبيه مشغولاً بحسابات المتصرفية «تاسرايفت» انشغالاً كبيراً إذ لم يكن يمتهن هذه المهنة امتهاناً وإنما كان عمله فيها محدوداً في السهر على حصص ماء شخص واحد من الأقارب من سكان قصر الوداغير. أما الشاغل الذي كان يحظى منه بأكبر عناية واهتمام زمن طفولة صاحبنا ـ أعني طفولته الأولى، قبل انتشار فكر الحركة الوطنية الذي بدأ يتغلغل في المدينة مع بداية الأربعينات ـ فهو عمله كواحد من «درقاوة»، نسبة إلى الطريقة الصوفية الدرقاوية المتفرعة عن الشاذلية. كان مقر هذه الطريقة في المسجد الصغير بحي «أورتان» قريباً من منزل جد صاحبنا. كان هذا الجد يقضي مع أصحابه أوقاتاً معينة، في الصباح والمساء، يقرأون أورادهم الخاصة. وكانت معظم الأسر الفجيجية تابعة لهذه الطريقة الصوفية أو تلك، وكان رؤساء هذه الطرق يزورون فجيج من حين لآخر، في مواكب فخمة فيها خدم وحشم. وما زال صاحبنا يحتفظ في ذاكرته ببقايا صور ومشاهد من التظاهرات التي كانت تقام بهذه المناسبة. ولعل أوضح مشهد يستطيع استرجاعه الآن هو منظر أطفال كانوا يلبسون ثياباً حمراء ويقومون بحركات غير مألوفة ويمشون وراء رجل يلبس قفطاناً أخضر وطربوشاً أحمر عليه حزام أبيض يمشي مشية المتبختر مع وقار، على حافة مصطبة دار الجماعة بـ «تاشرافت». وربما كان هذا الشخص رئيساً لطريقة أو واحداً من خاصته.

كانت لصاحبنا، إلى جانب جده وجدته من أبيه، عمتان. كانت العمة الكبرى شبه أرملة إذ كان زوجها قد سافر إلى ألمانيا للعمل هناك فانقطعت أخباره مع ظروف الحرب العالمية الثانية المتزامنة مع المرحلة التي نتحدث عنها من عمر صاحبنا. . . ومرت سنوات وسنوات، ووضعت الحرب أوزارها والزوج الغائب لا خبر عنه. أما

العمة فلم «تقطع الأمل»، كما يقال، ولم تكن تفكر أو لم تكن تريد طلب الطلاق منه باللجوء إلى القاضي حسب ما ينص عليه الشرع. لقد كانت النساء يقلن عنها إن فيها «راقداً»، بمعنى أنها حامل وأن حملها «رقدا» ولن يستيقظ إلا عندما يعود إليها زوجها. وفي هذه الحالة لا يجوز لها أن تتزوج قبل وضع ما في رحمها وقضاء مدة طهرها.

كانت هذه العمة مثالاً في الصدق والسذاجة، سذاجة براءة الأطفال، فلم تكن تعرف الكذب ولا المراوغة. وكانت كتومة تخفي ما بصدرها، فلا تشتكي ولا ترفض لأي من أفراد الأسرة طلباً. ويستطيع صاحبنا أن يلاحظ ـ اليوم ـ أن احترام جميع أفراد العائلة لها يرجع إلى مكانتها في نفوسهم بالدرجة الأولى ولكن ربما أيضاً إلى وضعيتها المأساوية كامرأة غاب عنها زوجها وانقطعت أخباره. وفي إطار هذه الوضعية يستطيع أن يفهم، اليوم، ما كانت تعنيه تلك الزفرات التي كانت هذه العمة ترسلها بنغمة حزينة كئيبة، خصوصاً خلال الليل والتي كانت توقظه من النوم عندما ينام معها وبجنبها. إنه ما زال يذكر تلك العبارة التي كانت ترافق زفراتها في نغمة استسلامية، عبارة: «هذا ما قدر الله»... وقد شاءت الأقدار أن يظهر الزوج بعد غياب طال ما يقرب من خمس عشرة سنة كان تزوج خلالها بسيدة ألمانية رزق منها أطفالاً، فلما عاد إلى البلد افترق الزوجان القديمان فراقاً رسمياً بعد خمسة عشر عاماً من الفراق العملي. وتزوجت هذه العمة الكبرى، كبرى بمحنتها وعفتها وصبرها، من رجل آخر ورزقت منه بنين وبنات.

أما عمته الصغرى، التي كانت آنذاك فتاة في مقتبل العمر حوالى الخامسة عشرة أو أقل قليلاً، فقد كانت متفتحة عليه وكان متفتحاً عليها: تلاعبه ويتطاول عليها فيضربها وينتف شعرها مزاحاً، وكانت أقرب أفراد الأسرة إلى عقله وسلوكه بوصفه طفلاً: كانت تذهب إليه، في منزل أهله من أمه، لتأتي به إلى منزل أبيه من حين لآخر، حاملة إياه على ظهرها تلتذ بما يمارسه عليها من صنوف المشاكسة: ينتف شعرها، ويعضها في كتفها ويضربها على جنبيها برجليه، واخزاً إياها كما يخز الفارس حصانه. ولم تكن مهمتها إزاءه تنتهي بالوصول به إلى بيت أبيها، إذ كان عليها أن تلازمه أينما تحرك، تحرسه وتلاعبه وتقوم على جميع أموره.

ومع كل العناية التي حظي بها صاحبنا من جميع أفراد عائلته، سواء أهله من جهة أبيه أو من جهة أمه، فإن الشخص الذي يستحق فعلاً أن يسمى مربي صاحبنا هو «الحاج محمد أولحاج» جده لأمه. لقد كان كلفاً بابن ابنته «الوازنة» العزيزة عليه

وعلى الأسرة جميعاً، ليس فقط لأنها كانت تحيا في وضعية الأرملة بسبب ذلك الطلاق الظالم، بل أيضاً لما كانت تتصف به من دماثة خلق وسلامة طبع، ينتزعان الاحترام. كان الجد، إذن، منشغلاً بحفيده أي انشغال، حريصاً على إرضائه، ساهراً على حركاته وسكناته، منذ أن ولد إلى أن صار تلميذاً في قسم الشهادة الابتدائية، حينما اختطفت منه المنون هذا الجد المثالي، في ظرف سنشرحه فيما بعد.

إن صاحبنا ليذكر جيداً كيف كان جده هذا يصحبه معه أينما ذهب، كيف كان يذهب به إلى منزل أهله من أبيه، مرة أو مرتين في الأسبوع، حيث يقضي معظم النهار ثم يعود ليرجع به، بعد انتظار أمام باب المنزل لمدد طويلة كانت تتجاوز أحياناً الساعة والساعتين، ليس لأن أهله من أبيه كانوا يمسكونه عن جده ذاك بقصد إذلاله، بل بالعكس، فلقد كانوا يحترمون هذا الجد «الفقيه» المنحدر من سلالة العلماء ويقدرون فيه حرصه على أن يبقى ولدهم على صلة دائمة بهم. إن انتظار هذا الجد أمام دار أصهاره القدماء كان بسبب أن صاحبنا كان ذا سلوك غريب في هذا الشأن: كان ألوفاً، يكره مغادرة منزل أهله لأمه، وفي نفس الوقت يمانع في العودة إليه عندما يكون في منزل أهله لأبيه. ويذكر صاحبنا أنه امتنع غير ما مرة عن العودة مع جده لأمه رغم توسلات جدته وعماته، فكان الشيخ الحاج محمد يعود كثيباً قلقاً حتى إذا أصبح اليوم التالي كان أول شيء يفعله بعد الرجوع من صلاة الصبح هو الذهاب للمرابطة أمام منزل أهل صاحبنا من أبيه ينتظره كي يعود به مع الضحى حاملاً إياه على كتفيه ماسكاً بكلتا يديه على رجليه كالعادة، يداعبه ويتحدث إليه بما يشوقه. ويعود الشيخ والطفل إلى «الوازنة» التي كانت تنتظر في مثل هذه المناسبات ابنها واقفة وراء باب الدار على أحر من الجمر، حتى إذا وصل اختطفته واحتضنته وصعدت به إلى مخدعها في الطابق العلوي لتنفرد به زمناً.

ولم تكن جدته لأمه أقل عناية به. لقد كانت امرأة قوية الشخصية متينة البنية صعبة المعاملة، فقدت بصرها في كهولتها. وكانت دائماً تشاكس وتخاصم زوجها الحاج محمد، فكان يقول لها: «إن ما أصابك من عمى إنما هو لطبعك وسلوكك». وكانت لهذا السبب لا تكلمه ولا يكلمها إلا عبر صاحبنا. وكما كان الجد يحرص على حمل حفيده على كتفيه، كانت الجدة تحرص هي الأخرى على حمله على ظهرها جالسة أو واقفة، سواء كان نائماً أو صاحياً، ذاهلاً أو لاعباً. أما عندما يحين وقت نومه أو عندما يكون في حالة شبيهة بالبكاء ـ وقلما كان يبكي بكاء حقيقياً ـ فإنها كانت تقف به وهو على ظهرها، تقطع المنزل ذهاباً وإياباً تشدو له وتغرد بصوتها

الجهوري مرددة أغاني بالأمازيغية فيها كثير من الحزن، وفيها كثير من الدفء، أغاني، أو أهازيج، تحكي ما تحس به الجدة في صدرها من يأس وحزن على حالها. ومن القصائد الحزينة التي كانت تشدوها باستمرار وهي «تُراري» له على ظهرها (= تهدهده)، قصيدة شهيرة بقيت بعض أبياتها راسخة في ذاكرته تنازع البقاء، منذ أن كانت جدته هذه تحمله على ظهرها. وقد استعادها كاملة بمساعدة صديق له كان من معلميه في الابتدائي. وفيما يلي مقطعان منها:

١ ـ أمّو إلا وُول إنُوخْ	هذه حال قلبي
فاجاتْ خْفِي آبابْ إنُوخ	فرج عني يا مالكي
٢ ـ إشوشن وول إنوخْ	قلبي كئيب
أَشّوشّنْ نُوغلاسْ	كآبة الأسد
٣ ـ إتْساراَنْ إِلْخَلا	حين يجوب الخلاء
أُولْ يُوفي أَيْتماسْ	ولا يجد إخوته
٤ ـ إزّلّزْ وُولْ إنَوخْ	قلبي وجيم
أَزَيّلّزْ نُويْلاسْ	وجوم الزرع
٥ ـ مدّسْ تكَّرْ تَقْشُوشْ	إذا أرسل ضفائره
إِيَحَفّتْ أُو خَمّاسْ	قصها الفلاح
٦ ـ آزواخْ آ يُوما آ زواخْ	تعال أخي تعال
أَنّاليَّ أَذرازْ نْراخْ	نصعد الجبل ونروح
٧ ـ نعيذْ لْخْبازْ أَنّخْ	نحكي أخبارنا
إزْوا وَاوَالْ إراخْ	ذهب الكلام وراح
٨ ـ آ وُول إنْوخّ أَوَدّ ي	يا قلبي يا قلبي
آوَنّ إكَدذْ أُويْدي	يا من نهشه الكلب
٩ ـ إسّنْسَرْ تَقذْ يت	سلخ اللحم
إِذْجيدّ إغَسّ أَمَقّوز	وترك لي يابس العظم

١٠ ـ أمُو إلاّ وُولْ إينوخ	هذه حال قلبي
أمُو غانيمْ نو زَطّا	حال قصبة المنسج
١١ ـ إ شال أسّ أزرار	يقضي النهار كله
إَ يَتّالِيْ أَلِيهَكّا	وهي تصعد وتنزل

وإلى جانب جدته لأمه كانت هناك زوجة خاله، تعامله هي الأخرى بنفس العناية التي كانت تعامل بها بنتها التي كانت في مثل سنه كما سبقت الإشارة إلى ذلك. كانت أم البنت عزيزة على جده، حميها، لدماثة أخلاقها وقيامها بشؤون المنزل. وقد بقيت تحظى بكامل الاحترام والتقدير من طرف حميها وحماتها وأم صاحبنا حتى بعد أن طلقها خاله بدعوى أنها لم تعد تنجب وأنها لم تلد له ذكراً وإنما بنتاً. وعبثاً حاول والده حمله على إعادتها إلى فراشه، فلقد كان هذا الخال متصلباً في رأيه وسلوكه، مثل صلابة عضلات جسمه. كان يعمل في الجزائر بمدينة خراطة وكان لا يعود إلا بعد سنة أو قريب منها ليمكث مدة ثم يرجع إلى مقر عمله، وكان يسلم إلى والده ما يوفره من دراهم ليشتري أرضاً أو حصصاً في ماء عين «تزادرت». لقد كان من يملك حصصاً من ماء تزادرت كمن يملك الذهب: سلعة عزيزة لا تبور قيمتها ولا تنقص بل ترتفع باستمرار، وما زالت كذلك إلى اليوم.

كان الجد، والد الخال، يخزن ما يدع عنده ابنه من دراهم وسط كنانيش أو قصبات يضعها في أماكن لا يطلع عليها أحد غير حفيده الوحيد، صاحبنا. لقد كان يأتمنه على كل شيء، بل كان يسترضيه بهذا الامتياز، وكان الجميع يعرف ذلك وفي مقدمتهم الخال الذي نتحدث عنه. كان يعرف منزلة ابن أخته عند أبيه، فكان إذا أراد شيئاً من هذا الأخير، لا يستطيع مكالمته فيه أو يعتقد أنه لن يستجيب له، فزع إلى ابن أخته وكلفه بالمهمة لأنه يعلم أن الجد لا يخالف لحفيده رغبة.

وإن صاحبنا ليتذكر بكامل الوضوح كيف أن هذا الجد غضب غضباً شديداً عندما ترامى إليه أن ابنه، الخال الذي نتحدث عنه، ينوي الزواج من فتاة كانت تصغره كثيراً إذ كانت قريبة من عمر صاحبنا ومعروفة عند أهل البلد بجمالها. حاول الخال إقناع والده بتوسط بعض وجهاء البلد، ولكن دون جدوى. وأخيراً لجأ إلى ابن أخته، الطفل الصغير الذي لم يكن عمره يتجاوز العاشرة، وكلفه بإقناع الجد بدعوى أنه ـ أعني الطفل ـ يريد أن يلعب مع هذه البنت عندما تصبح زوجة خاله. كان الجد قد التجأ غاضباً إلى قصر «المعيز» عند أقاربه من أحفاد سيدي عبد الجبار.

وكان صاحبنا يتردد عليه هناك ـ وكان يزور الضريح معه قبل ذلك. قصد صاحبنا ضريح سيدي عبد الجبار هذه المرة لأداء مهمة، فوجد جده داخل الضريح منهمكاً في الدعاء، فاقترب منه وجلس إلى جانبه وأخبره بما جاء من أجله، فلم يزد الجد على أن قال: «اللهم هذا ما كتبت، اللهم اجعل العافية بخير»، ونهض يمسك بيده اليمنى عصاه التي يتكىء عليها وبيده اليسرى يد حفيده، وعاد إلى المنزل وأعلن موافقته على زواج ابنه من تلك البنت.

جميع ما سبق من الذكريات تمت وقائعها في السنوات الأولى من عمر صاحبنا، قبل الثانية عشرة من عمره. دليله على ذلك أنها تمت جميعاً قبل دخوله المدرسة الوطنية، مدرسة النهضة المحمدية التي دشنت عام ١٩٤٦. (وكان قد ولد صباح يوم عيد الفطر من سنة ١٣٥٤ هجرية، حسب ما وجده مقيداً في دفتر من دفاتر جده لأمه، وذلك يوافق يوم ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٥. وقد سجله والده فيما بعد بدفتر الحالة المدنية ضمن مواليد ١٩٣٦).

لقد عاش طفولته الأولى، إذن، في جو من الرعاية البالغة، كما بيّنا، سواء من جهة أهله لأمه أو من جانب أهله لأبيه. وإذا كان يستطيع أن يؤكد أنه لم يحدث له طوال هذه المرحلة من عمره ما يكدر عليه صفو ذكريات طفولته، فإنه مع ذلك يشعر أنها لا تمده بأية صور أو مشاهد عن أبيه وأمه مجتمعين. لقد رأى النور في منزل أخواله وتردد كثيراً على منزل أبيه، محفوفاً بكل رعاية، لا شيء يكدر صفو خاطره. ولكنه لم يعِ إلا في مرحلة لاحقة أن الوضع الطبيعي هو أن يكون الابن في حضن أمه وأبيه معاً وفي وقت واحد وتحت سقف واحد. على أنه إذا كان يحس منذ شبابه بثغرة في ذكريات طفولته الأولى فإن ذاكرته خالية بالمقابل من أي مشهد يسجل خصومة ما بين أبيه وأمه. إنه لم ير قط ولم يسمع أبداً ما من شأنه أن يخدش في علاقة أبيه بأمه. لم يكن أي منهما يسأله عن الآخر، فلقد كان ذلك «عيباً» ما داما في حالة طلاق، سلوكاً لا يليق كما علم ذلك من بعد. ومع ذلك فلقد كان يشعر منذ فتح عينيه على أمه وأبيه، منفصلين كل منهما في منزل أهله، بأن أمه كانت تحب أباه وأن أباه كان يحب أمه ولم يكن بُعد أحدهما عن الآخر يعني لديه أي شيء في طفولته الأولى. كان له أب، وكانت له أم، وكان له جد وجدة وخال وعمات، وكان الجميع شديد العناية به، شديد الحب له. وكان هو نفسه يحس بهذا، غير أن عناية جده لأمه به كانت تفوق كل عناية مما جعل طفولته الأولى ترتبط في ذاكرته بأخواله أكثر من ارتباطها بالطرف الآخر.

ـ ٤ ـ

بالفعل، قضى صاحبنا طفولته الأولى عند أخواله، وهو يستطيع الآن أن يؤكد هذه الحقيقة بكل حياد وموضوعية من خلال استعادته لذكرياته مع رفاق الصبا الذين كان يلعب معهم قبل دخوله المدرسة. لقد كانوا جميعاً من جيران أخواله الذين كان منزلهم في وسط المدينة، بعيداً عن منزل أهله من أبيه الذي كان يقع في حي آخر. كانت بنت خاله رفيقته الأولى في ألعاب الصبا، وكان يعاملها معاملة الأخ لأخته بما في ذلك استعلاء الأخ على الأخت والتصرف معها بقسوة أحياناً. كانت أمها مطلقة هي الأخرى، كما أشرنا إلى ذلك قبل، عرفها قبل طلاقها وهو يحبو، وعرفها بعد ذلك وهو صبي يخطو على رجليه، فكانت له بمثابة الأم الثانية. كانت جدية متزنة محتشمة مثل أمه، وكانت من عائلة فقيرة. كان صاحبنا يزورها، بعد طلاقها، برفقة ابنتها، في بيت والدها المتواضع، فكانت تحوطه بكل ما تملك من حنان مما جعل صورتها تنطبع في ذهنه جنباً إلى جنب مع صورة أمه. والحق أنه لا يستطيع أن يتذكر كيف كان يفرق بينهما في وجدانه، وإن كان يتذكر بوضوح أنها كانت أكثر بياضاً من أمه وأطول منها قليلاً مع شعر أخف وأقصر. كان ارتباطه بها أشبه بارتباطه بأمه، بل إنه كان يشعر معها بانبساط أكثر إذ كانت تلاعبه وتداعبه، بينما كانت أمه على درجة أكبر من الوقار الذي يميل بصاحبه إلى نوع من الانطواء. لقد ورثت منها ابنتها تلك الصفات، المعنوية منها والجسمية، فكان صاحبنا يذوب فيها أو معها، حين اللعب، كما كان يذوب في حجر أمها وهي تداعبه وتسليه.

وعندما بدأ صاحبنا يخرج إلى الشارع تصادق مع طفل في مثل سنه يسكن قريباً من منزل أمه، لا بل كان المنزلان المتلاصقان يسند أحدهما الآخر ويسندهما معاً من الخلف، المسجد الكبير، الجامع. كان ابن الجار ـ واسمه «حمو زايد»، بينما كان صاحبنا يوم ذاك يدعى «حمو عابد» ـ كان طفلاً في مثل سنه: ما بين الثانية والثالثة من عمرهما، حينما بدآ يلعبان معاً أمام منزلي أهلهما أو في دكان والد صديقه الذي كان بداخله باب يؤدي إلى الدار. ومع أن صاحبنا يستحضر في وجدانه بوضوح كيف كان أحدهما مشدوداً إلى الآخر برباط من الصداقة والمحبة البريئة فإنه لا يتذكر من وقائع عشرتهما سوى واقعة واحدة غطت على كل شيء يتعلق بذكرياته معه. كانت أشغال «التويزة» ـ أعني العمل الجماعي التطوعي ـ جارية على قدم وساق لتجديد جانب من سقف المسجد الجامع المجاور لبيت صاحبنا، بعد أن كانت بعض

سراياه قد تداعت للسقوط. كانت سقوف المنازل تشيد بواسطة خشب جذوع النخل وأعجازها، يوضع التراب فوقها مبللاً بالماء، ويلكز بالملاكز إلى أن يصير جسماً واحداً متماسكاً. أما بيوت الضيافة والمساجد فكانت تسقف بعيدان الدفلى، تقطع قطعاً بطول الشبر وتصفف بين الأعمدة المصنوعة من أعجاز النخل ثم يوضع التراب المبلل المزوج بالجير فوقها ويلكز لكزاً. وكانت عيدان الدفلى تصبغ بألوان زاهية، الأخضر والأحمر في الغالب، فكان ذلك هو المظهر السائد للزينة والزخرف في البناء بهذه المدينة الصحراوية.

كان رجال «التويزة» منهمكين في لكز سقف المسجد بملاكزهم الخشبية، الواحد منهم جنب الآخر على شكل دائرة تارة، والواحد منهم وراء الآخر على شكل خطوط متوازية تارة أخرى. كانوا يتحركون بوتائر متناغمة وينشدون أناشيد جماعية فيتناغم صوتهم الجماعي مع إيقاع الملاكز على أرضية سقف المسجد. كان هذا المنظر يغري الأطفال فكانوا يقلدون الكبار على جوانب السقف أو قريباً منهم على الأمكنة التي انتهى العمل فيها وصارت متماسكة شبه يابسة. وإن صاحبنا ليذكر بكامل الوضوح كيف أنه كان ذات صباح، والشمس تتقدم ببطء نحو كبد السماء، يلعب مع صديقه «حمو زايد»، يجريان على السقف، تارة بين اللاكزين وتارة وراءهم. وفي لحظة من اللحظات لم يشعر صاحبنا إلا والقسم الأعظم من الرجال اللاكزين يختفون. لقد ابتلعتهم الأرض ابتلاعاً: لقد هوى بهم سقف المسجد فصاروا تحت ركامه. ولم يشعر صاحبنا الذي كان يجري خلف صديقه الصغير إلا ويد قوية تمسكه من خلف وتلقي به بعيداً إلى الوراء... لعلها كانت يد أحد الرجال الذين كانوا يجمعون بعض الأدوات خلف اللاكزين، بل لعل صاحبنا قد قفز إلى الخلف من تلقاء نفسه قفزة خيل إليه، بسبب هول المشهد، أن قوة عظمى هي التي أمسكت به بعنف وقذفت به بعيداً، عقاباً له على اقترابه من الرجال اللاكزين الذين كانوا يطردون الأطفال باستمرار ويمنعونهم من الاقتراب من الأمكنة التي لم تجف بعد.

وقف صاحبنا بعيداً، إلى الخلف، يجول ببصره بحثاً عن صديقه، ولما لم يجد له أثراً اندفع يجري نحو حافة الطرف الذي هوى، وما إن اقترب منها حتى شعر بالسقف يتحرك تحت قدميه ويهوي ببطء فقفز قفزة واحدة لا يذكر منها إلا أشعة الشمس التي واجهت عينيه بقوة وكأنها حبال انتشلته انتشالاً من بئر عميقة. ولا يذكر صاحبنا شيئاً بعد ذلك سوى أنه ارتمى في حضن أمه التي كانت واقفة وسط بهو الدار تصيح: «ابني... ابني...» لقد سمع الجيران بسقوط سقف المسجد

فتداعوا إلى المكان. . . أما هي، التي كان الخروج من الأمور التي لا تليق بها، فهي ابنة الشرفاء «أولاد الحاج» الذين لا يكشف لبناتهم وجه، وهي بعد مطلقة ملازمة للبيت من أجل ابنها ـ أما هي فما كان لها أن تغادر بهو المنزل ولا أن تقترب من الباب ولا أن تصعد إلى السطح. لقد وقفت إذن في وسط بهو المنزل تصرخ: «ابني. . ابني. . .» لقد خافت عليه أن يكون قد هوى به سقف المسجد. ولكن ما إن ظهر أمامها يجري نحوها حتى قفزت إليه وخطفته خطفاً إلى حضنها ثم انحنت عليه بكامل قوامها وكأنها تريد انتزاعه من هذا العالم والرجوع به إلى جوفها. . . أجهشت بالبكاء وجلست ممسكة بالأرض أن تميد بها. ولم تمض إلا دقائق حتى عرف أهل الحي جميعهم أن «حمو زايد» يبحثون عن جثته تحت الأنقاض، وأن «حمو عابد» نجا بأعجوبة.

لم تكن صداقة الطفلين قد دامت زمناً طويلاً، إذ لم يكونا قد تجاوزا الخامسة من عمرهما عندما وقعت هذه الواقعة. ومع ذلك فالمدة التي عاشها صاحبنا في رفقة صديقه، يلهوان ويلعبان، قليلاً ما يفارق أحدهما الآخر، قد تحولت في ذاكرته إلى دهر بأكمله، إلى زمان لا بداية له ولا نهاية، إلى حضور دائم لم تنل منه الحوادث ولا تعاقب الأيام شيئاً. إنه يتذكر جيداً أن علاقته بصديقه «حمو زايد»، أول صديق له، كانت أشبه بعلاقة المتصوف مع ربه. إن صداقة الأطفال تنطوي على أسرار لا يعرفها الكبار، أسرار فقدوها نهائياً عندما فقدوا براءة الأطفال.

كان سقوط سقف المسجد من الحوادث التي يؤرخ بها في قصر زناكة. لقد كان وقعه في النفوس كبيراً وعميقاً: فالضحايا عديدون من بينهم ثلاثة أطفال صغار علاوة على صديق صاحبنا. وقد دفنوا في مقابر خاصة تتميز بها مقابر الشهداء. وقد عرف صاحبنا ذلك في مرحلة لاحقة. أما عن الحادثة نفسها فإن ما يتذكره، إضافة إلى ما ذكرنا، هو أن وفاة صديقه، ذلك الطفل الوسيم، قد نزلت على الحي كله كالصاعقة. لقد كان وحيد أبيه الذي كان كهلاً في الأربعين أو يزيد، ولم يرزق قبله بمولود، مما زاد من هول المأساة وجعل أهل الحي يشعرون وكأن المصيبة مصيبة الحي بأجمعه.

لم يمر وقت طويل ـ فيما يبدو ـ حتى انخرط صاحبنا في جماعة من أطفال الحي ـ حي أهله لأمه ـ كانوا يلعبون ألعاباً جماعية كـ «الغبارة» أو «تيمنفولي» و «النيبلي» (كرات صغيرة من الحديد أو الزجاج) و «العداد» (= العد والحساب: ينقسم الأطفال إلى مجموعتين متباريتين وينتشرون في الأزقة المسقفة المظلمة يملأون

أكفهم بالتراب ويصنعون تلالاً في حجم حبات العنب في الأماكن التي يرجح أن الخصم لا يكتشفها، ثم بعد مدة يتنادون، إيذاناً بأن الفريقين قد انتهيا من وضع التلال كمرحلة أولى، ثم ينتشر كل فريق يبحث عن تلال الخصم ليهدمها. وبعد الانتهاء من هذه العملية يتنادون من جديد «العداد. . لعداد»، فيسرع كل فريق بمرافقة الفريق الآخر إلى الأماكن التي خبأ فيها تلاله ليعد كم بقي له منها، والفريق الذي يبقى له أكبر عدد منها هو الفائز).

كانت هذه الألعاب خاصة بالذكور من الأطفال ما عدا «الغبارة» التي كان يلعبها البنون والبنات، ولكن في غير اختلاط، في الغالب. كانت هناك ألعاب خاصة بالبنات وفي مقدمتها صنع العرائس مما يفضل من خيوط الصوف التي تصنع منها المنسوجات، خصوصاً الملونة منها. ولم تكن البنات ولا النساء عموماً يمارسن التسريد (التريكو). لقد كان ذلك من اختصاص الشبان، يصنعون الجوارب والقفازات و «الطاكيات» وغيرها مما يوضع على الرأس. لقد مارس صاحبنا، كبقية أبناء جيله، هذه الألعاب والمهام ولكن في غير إدمان.

على أن أهم لعبة كانت تنفرد بها الفرقة التي انضم إليها صاحبنا في هذه الفترة من عمره هي لعبة «الرباط». كانت الفرقة تتألف من نحو عشرة أطفال يقودها شاب يكبرهم بنحو خمس سنوات ـ كان في الخامسة عشرة ـ كان معروفاً بجموح الخيال إلى درجة الهوس. كان يذهب بالأطفال إلى خارج قصر زناكة، إلى السهل الممتد شرقاً والمسمى «بغداد». هناك بعيداً من الأحياء والبساتين كانوا يبنون بالتراب والأحجار وبالماء الذي يحملونه من عين قريبة، وبتوجيه وإشراف من قائدهم، مدينة أطلق عليها هذا الأخير اسم «الرباط». لم يكن غالبية الأطفال يعرفون معنى «الرباط»، ولا يتذكر صاحبنا أنها كانت تعني بالنسبة إليه شيئاً آخر غير مدينتهم تلك، ولربما كان يتخيل في شحوب أنهم يقلدون شيئاً بعيداً، مكاناً يقع على الطرف الآخر من العالم.

كان قائد هذه الفرقة ذا خيال مبدع كما قلنا، كان يعرف كيف يحمل الأطفال على العمل: يجلبون التراب والحجر والماء، وكان يذهب بهم إلى «مزبلة» الجالية الفرنسية في قرية بني ونيف على بعد بضعة كيلومترات، يجمعون علب السردين الفارغة وما يقعون عليه من آلات حديدية وأسلاك ليصنعوا منها سيارات وقطارات وعربات تجوب شوارع مدينتهم. كان القطار الذي صنعوا عرباته من علب السردين، المشدودة إلى سلك، يجري بسرعة إذ كانوا يربطونه بذيل ضب. وكانوا يصطادون

الضباب من الأماكن القريبة ويخيطون أفواهها حتى لا تعضهم. ومع أن صاحبنا يذكر أنه كانت هناك وسط «الرباط» كومة من التراب عليها بناء خاص فإنه لا يستطيع أن يجزم هل كان هذا البناء قلعة أم كان قصراً. كل ما يذكره أنهم كانوا يستيقظون باكراً ويملأون جيوبهم بالتمر ويذهبون للعمل في «الرباط» طول النهار: ينظفون الأزقة ويعيدون بناء ما تهدم ويوزعون الأدوار بينهم. ولم يكن ذووهم يقلقون عليهم، فلقد كان سكان الحي جميعاً، كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً، على علم بـ «الرباط»، مدينة الأطفال.

* * *

لا يتذكر صاحبنا من أفراد هذه الفرقة سوى رئيسها وطفل كان في مثل عمره هو، ومن عائلة رئيس الفرقة. كان هذا الطفل هو ثاني صديق لصاحبنا بعد وفاة صديقه الأول في حادثة المسجد. كانت الصداقة بينهما من جنس الصداقة التي كانت قائمة بينه وبين هذا الأخير: يلعبان معاً ويمكث الواحد منهما ساعات طوال مع الآخر في منزل أهله، لا يكاد أحدهما يفارق الآخر.. إن صاحبنا ليتذكر جيداً، وبوضوح كامل، أنه كان إذا تصادق مع طفل ارتبط معه بكل جوارحه، وإذا أحب أحداً أحبه بكل كيانه. ويبدو أن الأطفال جميعاً هم على هذه الحال، وأن ما تعنيه عبارة «براءة الأطفال» هو، أولاً وقبل كل شيء، هذا الإخلاص في الصداقة والمحبة، إخلاصاً لا يلابسه أي هدف آخر سوى المحبة نفسها.

ويبدو لصاحبنا من خلال استنطاق ذكرياته واستبطانها أن البطانة الوجدانية التي تؤطر صداقة الأطفال هي من جنس تلك الروابط التي تشد بألف وثاق العشاق بعضهم إلى بعض مع فارق واحد، وهو أن حرارة انشداد الأطفال الأصدقاء بعضهم إلى بعض تقوى مع دوام الاتصال، في حين أن لهيب حب العشاق لا يتوهج إلا في حال الفراق، وغالباً ما تخبو ناره مع دوام الوصال. إن عالم الطفل ينحصر أو يكاد في صديقه أو لعبته، تماماً مثلما ينحصر عالم العاشق في معشوقه. وإذا كان حب العاشقين يتجه دوماً نحو غاية تقع خارجه هي «الوصال» وذوبان الواحد منهما في الآخر، مما يجعل منه سلوكاً «غير» بريء، فإن حب الأطفال بعضهم لبعض في إطار صداقة الصبا يخلو من كل غاية أو غرض يقع خارجهما. إنها المحبة الناشئة عن استمرار الاتصال والاشتراك في عالم من التصورات التي تشكل مجال «الوصال» بينهم، ولذلك فهي محبة بريئة تماماً. لذلك قلنا إنه قد لا يكون لمفهوم «براءة

الأطفال» غير هذا المعنى. أما ما يبدو عليهم من مظاهر أخرى مماثلة فتلك سذاجة وليست براءة. . .

ويمكن للمرء أن يلاحظ الفرق بين السذاجة والبراءة في سلوك الأطفال من خلال «لعبة الزوج والزوجة». إنهم في هذه اللعبة يتصرفون لا بـ «براءة الأطفال» بل بحيلة ومهارة ساذجتين يخفون بهما سلوكهم على ذويهم، غير هادفين إلى الحصول على أية متعة سوى متعة «الخفي» و «الممنوع»، تدفعهم إلى ذلك الرغبة في تقليد الكبار. وإن صاحبنا ليتذكر بوضوح كيف كان هو وزملاؤه من أبناء الحي وبناته ـ دون الثامنة ـ يقيمون على سطح أهله من أمه «خيمة» بواسطة برنوس يرفعونه بعمود من داخل القلنسوة ويتخذون منه بيتاً لعريسين: طفل وطفلة. كان «الزواج» يقتصر على دخول الولد مع البنت إلى «الخيمة» ثم يخرجان في الحين وكأنهما يقيمان الدليل على أنه لم يجر بينهما شيء. . . وكان الأطفال، خارج الخيمة يقفون كالحراس وكأنهم بذلك يريدون تشديد المراقبة والوقوف ضد حدوث أي شيء آخر غير تمثيل دور «الزوج والزوجة» المقتصر على دخول «المخدع» والخروج منه. ومع ذلك فإن صاحبنا لا يستطيع أن ينسب هذا الحذر والمراقبة اللذين يقوم بهما الأطفال الصغار في مثل هذه المواقف إلى الوعي بحقيقة العلاقة الجنسية ولذتها، ولا أن ذلك يحدث بدافع هذه الغريزة. إن الأطفال في مثل هذه المواقف أقرب ما يكونون إلى تقليد الكبار في ممارسة السلطة، سلطة المراقبة، منهم إلى أي شيء آخر. وليس من المؤكد أن الطفل، ذكراً كان أو أنثى، يحس بأي إحساس جنسي واع عندما يلامس أحدهما الآخر أو يلتقي عضو أحدهما مع أية منطقة في جسم الآخر، كما يحدث لهم عندما يسبحون في السواقي أو في الصهاريج التي كان صاحبنا ورفاقه الصغار يقضون فيها ساعات طوال في فصل الصيف يسبحون ويتبارون في القفز إليها من أعلى النخل المطل عليها، أو يجري بعضهم وراء بعض في الماء للقبض عليه ومحاولة إغراقه، عراة بالكامل إذ لم يكن الطفل ـ ولا الشاب ـ يلبس تباناً أو سترة ما، عند السباحة زمن طفولة صاحبنا، ولذلك كان الشبان يتحرون الوقت المناسب للخروج من الماء، وإلا فاليد تقوم مقام السترة بالنسبة للعورة لبني آدم منذ بدء الخليقة. . .

ليس من المؤكد أن الأطفال في مثل هذه الألعاب والممارسات يحسون بأي إحساس جنسي واع عندما يلامس أحدهما الآخر حتى ولو كان ذلك في الأعضاء المختصة في اللذة الجنسية. إن عملية التخصص هذه لا تبدأ إلا لاحقاً، ولربما كانت «علامات البلوغ» إيذاناً بحدوث هذا التخصص. صحيح أن الطفل يلهو

بعضوه التناسلي، وقد ينتعض هذا الأخير أو يعمل الطفل على انتعاضه، غير أن اللذة التي يشعر بها ليست اللذة الجنسية بل هي إلى لذة الشعور بالملكية أقرب، لذة امتلاك شيء لا تمتلكه البنت، أو امتلاك شيء يكبر وينتصب ولا يبقى دائماً في حالة ارتخاء وضمور. وصحيح كذلك أن الأطفال يتلذذون بالبيلة الطويلة، وكثيراً ما يتبارون في ذلك. ولكن ليس من المؤكد، حسب ما يستعيده صاحبنا في ذاكرته، أن اللذة التي يحس بها الأطفال في هذه التجربة هي لذة جنسية. إن الإحساس العام المرافق لهذه التجربة هو نوع من الزهو الناتج عن شعور الطفل بأنه يبرهن من خلال هذه العملية على أنه قد أصبح رجلاً أو يكاد. إن طول البيلة يقترن في تصور الطفل بطول القامة وطول العمر. إن الأمر يتعلق إذن بنوع من تحقيق الذات يشعر الطفل معه أنه لم يعد ذلك الصبي الذي لا يتحكم في بوله، فيطلقه على سيقانه وثيابه ويتعرض للوم ولربما لنوع من العقاب الجسدي، كما يحصل لـ «الصغار»، بل إنه الآن كبير مثل الكبار يتحكم في ما بداخل جسمه، يملكه ويتصرف فيه كما يتصرف الكبار في أشياء العالم. إن الشعور بممارسة «السلطة» مقروناً بـ «الملكية» ربما كان أقرب من غيره إلى تفسير ذلك الزهو الذي يشعر به الطفل في تجربة «البيلة الطويلة». وأغلب الظن أن فرويد لم يقصد بمفهوم «الليبيدو»، عندما يتعلق الأمر بالأطفال الصغار، أكثر من هذا النوع من الإحساس باللذة الذي يمتزج فيه الزهو بتحقيق الذات بالشعور بامتلاك شيء وممارسة السلطة عليه أو من خلاله.

وعلى كل حال فمن الواضح تماماً أن الطفل عندما يقلد الكبار لا يفعل ذلك لأنهم طوال القامة أو كبار السن بل لأنهم يمارسون «السلطة». الكبير في تصور الطفل هو الذي يصدر الأوامر والنواهي، ويثيب ويعاقب، ولذلك تراه يتحدث باستمرار إلى لعبه وأدواته بلغة الآمر الناهي، يداعب تارة ويعاقب أخرى. ولعل هذا المفهوم الطفولي لـ «الكبير» هو الذي يفسر كون الناس يطلقون على أولئك الذين يمارسون السلطة في المجتمع عبارة «كبار القوم». دليل ذلك أننا كثيراً ما نتمم هذه العبارة بعطف بيان فنقول: «كبار القوم وسادتهم». والأمازيغية مثلها مثل اللغة العربية في هذا الشأن. فكلمة «أمقران» تعني الكبير مادياً، طولاً أو حجماً أو ثقلاً، كما تعني «الكبير» بنسبه وحسبه وأيضاً بطموحاته، بينما تعني كلمة «أمزيان» الصغير مادياً والصغير معنوياً، إضافة إلى معنى الصغار (بفتح الصاد) عندما تقرن بكلمة «الحالة» (= «أمزيان أنحالت»: وضيع السلوك قليل المروءة).

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

مرت وقائع الذكريات السابقة، في جملتها، قبل دخول صاحبنا «المسيد» (الكتاب). غير أن ذلك لا يعني أنه كان لا «يقرأ»، فقد كان جده لأمه يلقن حفيده بعض السور القصيرة من القرآن وآيات أخرى مثل آية الكرسي وبعض الأدعية كدعاء القنوت... وإذا كان لا يتذكر وقائع يوم دخوله المسيد أول مرة، فإنه يتذكر بوضوح أن جده كان يحمله كل صباح إلى المسيد المجاور للمسجد الكبير الجامع على مسافة قصيرة من منزله. كان المسيد في الطابق الأول فوق سقيفة المسجد وبيت الوضوء، وكان يشتمل على ثلاث غرف: كانت غرفة الصغار في منتصف السلم المؤدي إلى السطح بينما كانت الغرفتان الأخريان على السطح وكانتا خاصتين بالكبار. كان هؤلاء ممن أنهوا «السلكتين»، أعني ممن حفظ القرآن مرتين واستقر كله أو معظمه في ذاكرتهم، وكان منهم من كان يكتب على لوحته منظومة «النُصرى»، الخاصة بقواعد كتابة القرآن على طريقة المصحف، وكان منهم من يكتب «الأجرومية» أو «ابن عاشر» أو «الألفية». وكان حفظ هذه المنظومات واستظهارها عن ظهر قلب ـ وفي الغالب بدون فهم المعنى ـ يشكل الخطوة الأولى في الانتقال من مرحلة حفظ القرآن إلى مرحلة حفظ «العلم».

على أن أبرز ما كان يشد صاحبنا إلى «الكبار» منذ دخوله «المسيد» هو الطريقة التي يقرأ بها أحد الشبان القرآن. لقد كان جهوري الصوت يجود القرآن على طريقة أهل تافيلالت التي تتميز بنبرات موسيقية. كان الالتحاق بمرتبة «الكبار» هو كل طموح أولئك الصبية الصغار الذين كانوا يكثرون من الصعود إلى «السطح» حيث

«الكبار»، تارة بدعوى تنشيف ألواحهم في الشمس بعد أن يكونوا قد غسلوها مما سبق أن كتبوه فيها من آيات قرآنية وبعد أن يطلوها بالصلصال، وتارة بدعوى الصلاة... وكان غرضهم هو الإطلالة على غرف الكبار والاستماع إليهم وهم يحفظون «العلم» أو يجوّدون القرآن.

لم تكن غرف المسيد مفروشة ولا كانت فيها مقاعد، وإنما هو الحصير في الصيف، والحلفاء في الشتاء. كانت تنشر أكوام من هذا النبات، الذي تصنع منه الحبال وأشياء أخرى، على الأرض كما على جوانب الجدران لتشكل حاجزاً يقي الجالس عليه من برودة أرضية المسيد، في هذه المنطقة التي تتميز ببرد قاري قارس أثناء فصل الشتاء، برد لا تعدله شدة إلا حرارة الصيف.

كانت غرفة الصغار واسعة نسبياً تتخللها كوات يدخل منها الهواء وضوء الشمس، في وسطها سارية، وفي الواجهة الأمامية مصطبة من الطوب ملاصقة للجدار الأمامي يجلس عليها «الفقيه» مفترشاً «هيضورة» (سجادة من جلد الخروف وصوفه...). وبجانب الفقيه ثلاث عصي، صغرى للأطفال الصغار القريبين منه، ووسطى للذين يجلسون في الوسط، وطويلة لمن هم في الأطراف، وكانوا في الغالب من كبار السن. كان هؤلاء الأطفال يجلسون على الحصير يحيطون بالفقيه على شكل هلال مر عليه أكثر من نصف شهر. كان الفقيه يتولى بنفسه أو يكلف بعض «الكبار» كتابة آيات من القرآن على ألواح الصغار المجللة بالصلصال، وكانت الكتابة بالحفر عليها بواسطة قلم من القصب وبدون مداد (تسمى هذه الكتابة بـ «التعليمة»: وضع العلامات) وكان على الطفل المبتدىء أن يتتبع بقلمه الذي يغطسه بين حين وآخر في دواة من «السمق» (نوع من المداد يستحضر بحرق الصوف ومواد أخرى، ويوضع في الدواة مع الماء وقطعة صوف تتشرب السائل كالإسفنج وفيها يغطس القلم). هكذا كان الأطفال يتعلمون الكتابة، لا حرفاً حرفاً، بل انطلاقاً من كلمات وعبارات على طريقة «الجشطلت» (= الصورة أو الشكل أو الصيغة، ويطلق هذا الاسم كذلك على مدرسة ألمانية في علم النفس تنطلق من هذا المبدأ، فترى أن الإدراك يكون أول ما يكون للصور وللصيغ، أي للكل وليس للأجزاء) وعندما ينتهي الأطفال من الكتابة يأخذ الفقيه أو من يكلفه بذلك بتحفيظهم ما على ألواحهم متتبعين بإصبعهم الكتابة المرسومة فيها. وعندما يحفظ الطفل لوحته من وجهيها يتقدم إلى الفقيه لـ «يعرض» ـ يستظهر ـ عليه فإذا أجاد سمح له بمحو لوحته بالماء ثم

يجللها بالصلصال من جديد لـ «يُعلِّم» له عليها الفقيه أو من يكلفه بذلك وهكذا دواليك.

وعندما يتدرب الطفل على الكتابة والقراءة والحفظ بهذه الطريقة يكون قد حفظ بعض السور القصار فينتقل إلى المستوى الثاني ويجلس في وسط المسيد في الغالب يكتب بنفسه مباشرة على لوحته: يملي الفقيه عليه الآيات القرآنية كلمة كلمة: يلتقط الطفل الكلمة ويرددها على مسامع الفقيه، فإذا لم يعقب هذا الأخير بشيء فمعنى ذلك أن تلفُّظ الطفل بالكلمة يخلو من الخطأ، وحينئذ يشرع الطفل في كتابتها حتى إذا انتهى رفع يده قليلاً وصاح: «زد يا سيدي. . .»، ثم يذكر الكلمة التي كتبها فيملي عليه الفقيه الكلمة الموالية في الآية فيرددها الطفل بصوت مرتفع ويكتب، وهكذا إلى أن تمتلىء لوحته. إنها طريقة تبدو بسيطة وعملية، غير أن ما يثير الاندهاش فيها هو أن الفقيه يتعامل بنفس الطريقة، وفي آن واحد، مع أطفال عديدين قد يتجاوزون العشرة والعشرين! هذا يصيح: «زد يا سيدي. . .» ويذكر كلمة من سورة، وآخر يفعل الشيء نفسه ويذكر الكلمة من سورة أخرى، ثم ثالث فرابع الخ. . . والفقيه يجيب كل طفل بصورة آلية تلقائية، فيملي في نفس الوقت من سور مختلفة بمجرد سماع الكلمة، ولا أقول العبارة أو الجملة. إن الفقيه في هذا الموقف أشبه بحاسوب (دماغ إلكتروني) أُدخل القرآن في «ذاكرته» ورتب برنامج عمله ليعطيك الكلمة الموالية لأية كلمة في أية آية وفي أية سورة بمجرد ما تنطق بها، بمجرد ما يسمع «زد يا سيدي». . . بمجرد ما تضغط على الزر! كان هذا شأنه مع الأطفال من المستوى المتوسط. أما المتقدمون الذين يجلسون في الوراء عادة فيملي عليهم جملاً كاملة يعيدونها على مسمعه ثم يكتبون. ثم بعد ذلك: «زد يا سيدي. . .» وهكذا.

كانت الكتابة تتم في الصباح غالباً. أما بقية النهار فتخصص للحفظ: كل طفل يكرر جهاراً الآيات المكتوبة على لوحته، وفي الغالب يميل بجسمه إلى أمام وإلى خلف، أو يميناً وشمالاً، والفقيه ينصت للجميع يصحح الخطأ ويراقب النطق ويشهر بعصاه القصيرة أو المتوسطة أو الطويلة، حسب الحالة، على الأطفال الذين يلهون ويلعبون أو يتثاءبون وينامون. كانت العصا تأتي إلى الطفل لتقع على رأسه على حين غرة، وإن هو سبقها ومال أدركته على كتفه أو يده، وفي جميع الأحوال فقليلاً ما تخطئه، وإذا أخطأته كانت من نصيب جاره. وبالمقابل قد يحدث أن يغمض الفقيه جفنيه تحت وطأة النوم الذي يستدعيه ذلك الضجيج المرهق والرتيب ونقص الهواء

(الأوكسجين) بسبب الازدحام والتنفس. وفي هذه الحالة يغتنم الأطفال الفرصة فيتحررون قليلاً، يلتفتون إلى بعضهم بعضاً وقد يشاغبون أو يضحكون أو يتصارعون حسب درجة استغراق الفقيه في غفوته، ولكنهم كثيراً ما تفاجئهم العصا فوق رؤوسهم، عصا الفقيه الذي يستيقظ ويضرب يميناً وشمالاً فتُدمي رأس هذا وتُوجع كتف ذاك وقد تُنقض ظهر آخرين ممن ينحنون هرباً منها.

أما إذا ارتكب طفل ما مخالفة تستوجب العقاب أو جاء به أبوه يشكوه إلى الفقيه فإن «الفلقة» عقابه: يحمله طفلان من ذوي البنية الصحيحة على أيديهم ويمسك ثالث برجليه موجهاً بطن قدميه نحو العصا التي تنهال عليهما من الفقيه نفسه أو ممن ينيبه عنه من «الكبار»، والطفل المعاقب يصيح ويتدافع، ولا ترفع عنه العصا إلا عندما يقدر الفقيه أنه قد استوعب «الدرس» فيأمر بإنزاله على الأرض، فيمكث الطفل جالساً يتلوّى لا يقوى على الوقوف ولا على المشي يضع لوحته في حجره ويتظاهر بالحفظ.

لم يكن الأطفال المشاغبون يستسلمون لعصا الفقيه هكذا بدون رد الفعل، بل كانوا كثيراً ما «ينتقمون» بوضع أشياء حادة موخزة أو مزعجة بين تلابيب صوف «هيضورة» الفقيه: تارة شوكاً وتارة مسماراً وأحياناً عقرباً... أما إذا أراد أحدهم أن يرى الفقيه وقد جن جنونه فإنه يطلق «مواء» كمواء القط عندما يكون الفقيه منهمكاً في تصحيح لوحة أو منساقاً مع غفوة نوم. إنه التحدي الذي يجعل الفقيه يفقد عقله، إذ لا يتبين في الغالب صاحب «المواء» ولا يجرؤ أو يقبل أحد من الأطفال الكشف عن اسمه، وهكذا يأخذ الفقيه بالضرب بعصاه، يميناً وشمالاً فتتمايل الصفوف وتتزاحم الأرجل والأجساد ويكثر الصياح...

وإذا كان هناك حد أدنى من «الصغر» في العمر إذ لا يلتحق الطفل بالمسيد، في الأعم الأغلب، إلا بين السادسة والسابعة، فإنه لم يكن هناك حد لـ «الكبر»، إذ كثيراً ما يحدث أن يقضي الإنسان طفولته وشبابه وجزءاً من كهولته في المسيد، «يقرأ»، ويعيد ما «قرأ» ويحفظ ويعيد ما حفظ، سواء تعلق الأمر بالقرآن أو بالمتون والمنظومات. وهو أثناء ذلك يشتغل في بستانه ويقوم بشؤون أولاده... لم تكن هناك مرحلة أعلى من المسيد، وحتى الدروس التي تلقى في المسجد، سواء طوال السنة أو خلال المناسبات الدينية، فهي دروس مفتوحة للجميع، للصغار والكبار، للذين «يقرأون»، كما للذين يسمعون فقط. وعلى كل حال فالمسيد هو، أصلاً، للصغار، فإذا صار الشاب يقرأ في المصحف ويحفظ بعض المتون وبقي مع ذلك في

المسيد ملازماً للفقيه، فلأمر ما... قد يكون من الذين ينتظرون «وظيفة» في المسجد أو ينوون فتح مسيد يشرفون عليه، وقد يكون من «الطلبة» الوافدين من خارج البلد والذين ترتب لهم بعض العائلات تقديم وجبات الأكل يومياً بالتناوب، ومن هنا اسم أمثال هؤلاء: «أنرتوب» (المرتب له).

لا يتذكر صاحبنا بالضبط كم كان عمره يوم دخل المسيد أول مرة، ولكنه يتذكر جيداً أنه انتقل من مسيد المسجد الجامع المجاور لمنزل أخواله والذي التحق به أول مرة، كما قلنا، إلى مسيد آخر يقع في الجانب الآخر من القصر ـ قصر زناكة. كان هذا المسيد بجانب مسجد عادي، وكان صاحبه شيخاً مسناً، ينوب عنه ولده، الرجل الفقيه الذي تزوج والدة صاحبنا. وإذن سيكون صاحبنا قد التحق بهذا المسيد الثاني بعد السابعة من عمره مباشرة ـ باعتبار أن أمه وأهلها كانوا قد آلوا على أنفسهم ألا تتزوج حتى يبلغ «محمد» سبع سنوات، كما ذكرنا. ولم يمر وقت قصير حتى توفي الشيخ صاحب المسيد فخلفه ولده وأصبح صاحبنا يدرس على زوج أمه.. ولكن لمدة قصيرة فقط.

ـ ٢ ـ

إن ذكريات صاحبنا عن هذه المرحلة من عمره جد مشوشة ومضطربة. إنه لا يتذكر بوضوح كيف زفت أمه إلى زوجها الجديد، ولا كيف كان شعوره إزاءها بعد ذلك. كل ما يتذكره في هذا الصدد أمران: أولهما أن والدة الزوج الفقيه لم تكن راضية عن هذا الزواج، مع أنه لم يتزوج إلا في سن متأخرة ـ بل لربما بسبب من ذلك ـ وأنها كانت تعامل زوجته «الوازنة» ـ أم صاحبنا ـ معاملة سيئة جداً، على الرغم من أنها كانت مثلها من أولاد الحاج. كانت هذه الحماة تعمل بكل ما أوتيت من قوة ونفوذ على أن يطلق ابنها هذه المرأة التي جاءت لتأخذه منها، أو على الأقل تزاحمها عليه. ولكن «الوازنة» كانت امرأة هادئة مسالمة. كانت تتحمل استفزازات وإهانات هذه الحماة بصمت وصبر لأن زوجها كان يحبها ولا يريد فراقها ولأنه أيضاً كان فقيهاً مستقيم السلوك حسن السمعة يبعث على الثقة والاطمئنان. إنه لم يكن يريد أو يستطيع الصدام مع أمه خوفاً من فقدان «رضا الوالدين»، فكان في موقف حرج: يُعد أمه بأنه سيلبي طلبها ويماطل في ذلك بكل ما أوتيه من قوة وصبر، وفي الوقت نفسه يطمئن زوجته، بأنه لن يطلقها أبداً، وأنه سينتهي به الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى تغيير وجهة نظر أمه.

ومرت سنوات طوال قاست فيها أم صاحبنا الأمرين من حماتها. أما هو فلم يكن يزورها في بيت زوجها إلا نادراً، وغالباً ما يتم ذلك خلسة وفي غيبة تلك الحماة القاسية. لقد كانت أخبار معاناة أمه من حماتها معروفة لدى أفراد العائلة والأقارب، وكان صاحبنا يسمع تفاصيل ما تعانيه، من عماته أو من جدته لأبيه التي كانت تتأسف بغضب لما يحدث لـ «الوازنة» التي كانت تقول عنها دائماً إنها من خيرة النساء، وكثيراً ما أنحت باللائمة على أمها ـ أم الوازنة ـ التي تعتبرها هي السبب فيما نشب من خصومة بينهما أدت إلى طلاق هذه الأخيرة. ومع أن هذه الجدة كانت تجتهد في إفهام حفيدها، صاحبنا، أنها غير مسؤولة عما حدث، فإن الانطباع الذي لم يفارقه قط أيام طفولته هو أن جدته لأمه بريئة مما تنسبه إليها جدته لأبيه. لقد استقر في نفسه، من خلال ما كان يسمعه من زوجات أبيه وأعمامه ومن نساء الحي عموماً، أن والدة الأم لا تملك عادة القدرة على تطليق ابنتها على زوجها، فضلاً عن أنه ليس من مصلحتها ذلك: إن طلاق البنت هو في جميع الأحوال عبء على والدتها، إن لم يكن إهانة لها. لقد تأكد صاحبنا من هذا من خلال موقف جدته لأمه إزاء ما كانت تعانيه ابنتها من تلك الحماة القاسية. لقد كانت توصيها بالصبر، وكانت تتجنب الدخول في أية علاقة مع تلك الحماة. وإن صاحبنا ليذكر بوضوح كيف أنها كانت توصيه بعدم الذهاب إلى منزل زوج أمه، وإن فعل ذلك فليكن خلسة، وليدخل غرفة أمه مباشرة ولا يخرج منها إلا وهو يغادر المنزل. وعندما يتذكر صاحبنا اليوم أن باب غرفة أمه كانت بجوار باب المنزل بحيث يمكن أن يدخلها دون أن تشعر به تلك الحماة، يتساءل: هل كان اختيار زوج أمه لتلك الغرفة النائية، بدل الغرف العديدة التي كان يتألف منها منزله، هل كان ذلك مجرد مصادفة أم أنه اختيار مقصود، هدف من ورائه تمكين الطفل من زيارة أمه دون أن تشعر تلك الحماة؟

أما الأمر الثاني الذي يتذكره صاحبنا عن هذه المرحلة من طفولته فهو أنه انتقل للسكنى في دار أبيه، وأن ذلك تم بمحض إرادته. وهكذا فبدلاً من أن يأتي إلى دار أبيه زائراً لفترة من الوقت، ساعات من نهار أو يوماً أو يومين، كما كان يفعل من قبل، تطورت الأمور فصار اليوم أو اليومان أياماً لينتهي به الأمر إلى الإقامة رسمياً في بيت أبيه. وهكذا صار يزور بيت أخواله لساعة من نهار أو ليوم أو يومين يرافقه بل يطلبه ويلح في طلبه جده لأمه الذي رباه ماسكاً به إلى جانبه منذ أن ولد إلى أن اختار استبدال بيت أخواله ببيت أهله من أبيه في الثامنة من عمره. ويبدو أن هذا

الجد المثالي قد قرر عدم الإلحاح عليه في المكوث عنده إذ كان على علم بما تقاسيه ابنته من حماتها وبتعذر زيارة ابنها لها بكل حرية، إضافة إلى أن أحواله الصحية ـ أعني الجد ـ كانت قد أخذت في التدهور.

ـ ٣ ـ

لم يطل تردد صاحبنا على مسيد زوج والدته فلم يكن يميل إلى هذا الرجل، لا لأنه قد أخذ منه أمه، فلقد أصبح الآن، بحكم تقدمه في العمر، يدرك أن الأم التي لا تعيش مع والد أبنائها لا بد أن تتزوج برجل آخر، كما كان واضحاً أمام عينيه من خلال وضعية أمهات كثير من أقرانه وأصدقائه، بل إنه لم يكن يرتاح إلى ذلك الزوج الصامت المحافظ الذي لا يعرف كيف يداعب الأطفال ولا كيف يحمي زوجته من تلك العجوز القاسية. لذلك عاد صاحبنا إلى المسيد المجاور لبيت أخواله الذي التحق به أول مرة. والغالب أنه لم يمكث فيه إلا مدة قصيرة، فلقد أدخله عمه من أبيه إلى «ليكول»: المدرسة الفرنسية بالبلد.

كانت هذه المدرسة موزعة إلى ثلاثة مستويات: المستوى الابتدائي الأول في حي «إدّاريت» والمستوى الابتدائي الثاني في حي «عبد الكافي» وكلاهما بقصر زناكة. أما مستوى الشهادة الابتدائية والمستوى التكميلي فكانا في الحي الإداري على امتداد قصر «أولاد سليمان». التحق صاحبنا بالمستوى الأول حيث قضى سنتين. كانت المدرسة تتألف من غرفة واحدة طويلة خُصِّص نصفها لتلامذة السنة الأولى الابتدائية ونصفها الآخر لتلامذة السنة الثانية. وكان المعلم من مدينة وجدة، عاصمة الإقليم، لا يعرف الأمازيغية ـ والأطفال لا يعرفون العربية الدارجة، فكان يتحدث إليهم بالفرنسية وحدها، مستعيناً بوسائل الإيضاح. كان يُشغِّل تلامذة السنة الثانية بالتمارين عندما يكون بصدد تعليم تلامذة السنة الأولى، وكان يكلف هؤلاء بعمليات النقل والرسم عندما يكون بصدد تدريس جيرانهم «الكبار».

لم يكن الأطفال يشاغبون كما كان الشأن في المسيد، فالتلاميذ هنا يجلسون فرادى على مقاعد، والمعلم يتعامل معهم كأفراد وليس كـ «جمع» كما في المسيد. وإذا طلب من أحدهم أن يتكلم فإن على الباقي أن يصمت ويستمع. وإذا طلب

منهم أن يكتبوا فعلوا ذلك بسكوت، سواء تعلق الأمر بالنقل من السبورة أو بدرس الإملاء. أما إذا كان المعلم بصدد شرح الدرس فإن على التلاميذ جميعاً أن يجمعوا أذرعهم من خلاف على صدورهم أو على الطاولة، وذلك ما تفيده عبارة «كروازي ليبرا» (اجمعوا أذرعكم) التي كانت أول عبارة يتعلمها الطفل في اللغة الفرنسية لكثرة ما كانت تتكرر. إنه «النظام» الذي تفرضه سلطة المعلم - التي هي امتداد لسلطة الحاكم الفرنسي - «النظام» الذي ينقل معه «النزعة الفردية» من التراث الليبرالي الأوروبي لتحل محل «الحضور الجمعي» الذي يتميز به المسيد. ولم يكن هذا «النظام» يستغني عن العقاب الجسدي. فالأطفال هم من «أبناء الأهالي» (ليزانديجان) الذين جاءت الحماية الفرنسية لتنقل إليهم «الحضارة». لقد كان العقاب منظماً و «حضارياً» وفردياً بدوره. لقد حلت المسطرة محل عصيّ الفقيه، وهي لا ترفع للتهديد فقط ولا كانت تنزل على الطفل أينما اتفق حين يفقد المعلم أعصابه - وهو لا يفقدها لأن «النظام» يكفيه شر ذلك.

كان العقاب يتم بهدوء وبدون صخب. فإذا اقتضى نظر المعلم إنزال عقاب بدني على أحد التلاميذ لسبب من الأسباب فإنه يأمره، بهدوء، أن يقدم راحة يده، أو يديه كلتيهما، راضياً صامتاً، لتنزل عليهما المسطرة بضرباتها المتوالية. . . وإذا تبين أن الضربات على راحة اليد لا تكفي ارتفع العقاب «المنظم» درجة أخرى: يجمع الطفل أصابعه لتنزل المسطرة على رؤوسها وعلى الأظافر كذلك. وإذا أحس المعلم بالتعب من جراء الضرب طلب من التلميذ فتح أصابعه ليدخل مسطرته بين اثنين منها ثم يمسكهما بإحدى يديه مسكاً قوياً بينما يدير بالأخرى المسطرة بقوة، لتفعل زواياها الحادة فعلها، والألم حينئذ أشد وأقسى. وأفظع منه أن على الطفل المعاقب أن يتحمل ويسكت. على أنه قد يقتصر العقاب على إصدار الأمر للطفل بالوقوف ملاصقاً جسمه ووجهه مع الجدار رافعاً يديه فوق رأسه. وقد يؤمر بالخروج من الفصل والوقوف بجانب الباب. إن الإقصاء والنفي اللذين يمارسان على الطفل هما كذلك. وغير خاف أن هذه الأنواع من العقاب ما زالت حاضرة في مدارسنا كجزء من الأساليب «الحديثة» التي ورثناها عن «الحماية» الفرنسية واحتفظنا بها. . . ومع أن صاحبنا لم يتعرض قط لأي عقاب في هذه المدرسة فإن مشاهد من هذه العقوبات «الحديثة» ما زالت حاضرة في ذاكرته، وسيكون غير مخلص مع نفسه إذا هو لم يعترف الآن أنه مارسها أحياناً على تلامذته يوم كان معلماً في أوائل شبابه.

والحق أنه لا يحتفظ بذكريات كثيرة عن هذه المدرسة، وبالتالي فهو لا يستطيع استعادة شيء عن إحساسه إزاءها ولا عن شعوره بالفرق بينها وبين المسيد سوى ما ذكرنا بصدد العقاب. كل ما يتذكره بوضوح، مما يهمه شخصياً، أنه كان من نجباء الفصل، هو وابن خال أبيه الذي كان قد التحق بالمدرسة نفسها قبله بأسابيع، وأنهما كانا من المتفوقين، وأن صاحبنا كان مبرزاً في مادة الحساب وأنه لم يكن في حاجة إلى استعمال الخُشيْبات ـ «ليبوشيت» ـ من أجل القيام بالعمليات الحسابية من جمع وطرح... وأن المعلم كان يكلفه، خصوصاً في السنة الثانية، بحراسة التلاميذ أو بتحفيظهم ما في السبورة من حروف وأرقام. ويتذكر صاحبنا كيف أنه كان يجيد القراءة في كتاب التلاوة الفرنسية الذي كان معروفاً باسم مؤلفه «ليوني»، ولكنه لا يتذكر من نصوصه سوى عنوانين، أحدهما «بلادنا فرنسا»، والثاني «أجدادنا الغاليون»!

كان الانتساب إلى المدرسة الفرنسية ينطوي في نظر أهل البلد على نوع من «الخروج عن الطريق»، على نوع من «العقوق» بالدين والوطن. فكان الآباء يخفون أبناءهم ولا يسمحون بتسجيلهم في هذه المدارس إلا تحت ضغط السلطات الفرنسية وأعوانها، وكان أصحاب «الجماعة» واقعين تحت نفوذ الحاكم الفرنسي، فكانوا يزودون هذه المدارس بالتلاميذ، وفي الغالب كانوا يأخذونهم من العائلات الفقيرة الضعيفة... على أنه إلى جانب هؤلاء أطفال كان آباؤهم وأولياؤهم ممن «انفتحوا» على الحياة العصرية التي كانت الحماية الفرنسية تغرس بعض مظاهرها في البلد، فكانوا يأملون أن يصبح أبناؤهم موظفين في الإدارة (معلمين أو سعاة بريد... وكان ذلك منتهى طموحهم في ذلك الوقت).

كان من هؤلاء «العصريين» عم صاحبنا، عمه الأكبر، وهو الذي أدخله المدرسة الفرنسية. ولا يعلم هل تم ذلك باستشارة أبيه، الذي كان مسافراً للتجارة، أم أن العم اتخذ المبادرة من نفسه. ومهما يكن فإن صاحبنا لم ينس قط تلك الصفعة الخفيفة والرمزية التي تلقاها من عمه على قفاه ذات صباح، وهو يقوده من دار أهله لأمه إلى المدرسة بعد أن تغيب عنها يوماً، ربما لأن أهله أثروا فيه وأقنعوه بترك مدرسة «النصارى» (= الأوروبيين) والرجوع إلى «الجامع» (= المسيد).

لم ينس صاحبنا تلك الصفعة على خفتها، لأنه لم يسبق له قط أن صفعه أحد، لا من جهة أبيه ولا من جهة أمه. كانت الصفعة الأولى، ولكنها لم تكن الأخيرة،

فلقد كانت هناك صفعة ثانية، أشد وأقوى، كانت الأخيرة فعلاً، وكان قد تلقاها من خاله المعروف بيديه الشديدتين وعضلاته القوية وبنيته المتينة. أما السبب فهو أن خاله هذا كان قد سخره للإتيان له ببعض السجائر. خرج صاحبنا للقيام بالسخرة، ولكنه ما إن غادر باب المنزل حتى اجتذبه جمع من أصدقائه الأطفال يجلسون القرفصاء، على شكل حلقة مستديرة يحيطون بكومة من الأحجار الصغيرة يلعبون لعبة «أخباض» (= من خبط الحجر بعضه ببعض). إنها لعبة كانت تستهوي الأطفال يجلسون ساعات وهم يتبارون... مثلما كان يجلس الشباب والكبار حول مربعات لعبة «الشيت» التي يرسمونها على الأرض بالتراب يحركون عليها قطع الطوب كما في لعبة «الضامة» والشطرنج.

استغرق صاحبنا إذن مع أصدقائه أطفال الحي في لعبة «أخباض» ونسي سخرة خاله، بل نسي نفسه تماماً... ولم يستيقظ من استغراقه في هذا النسيان، الذي يحقق به الطفل ذاته أحياناً، إلا على وقع صفعة على قفاه. كانت الصفعة قوية ومفاجئة إلى درجة أحس معها أن مثانته قد أخذت تفرغ ما فيها دون سابق إنذار. ومر وقت لا يستطيع تقدير مدته، فهو لم يشعر إلا ويد تخطفه خطفاً وترفعه إلى أعلى لتعيده إلى الأرض واقفاً على رجليه. على أن الخال سرعان ما عاد إليه رشده فأمسك صاحبنا برفق من يده وقاده بهدوء إلى المنزل، ناصحاً ومعاتباً بأسلوب ينم عن اعتذار واسترضاء، حتى إذا دخلا الدار همس في أذنه قائلاً: عد لتلعب مع أصحابك «أخباض» أو لتتفرج في «الشيت». ولكن ارجع مبكراً قبل غروب الشمس.

ـ ٤ ـ

عندما عاد صاحبنا إلى المنزل، بعد فرجة طويلة في لعبة «الشيت»، كانت آثار الخوف والرهبة، من جراء تلك الصفعة، قد تركت مكانها للارتياح والطمأنينة، فجلس بجانب خاله الذي كان مشغولاً، وسط صحن الدار، في ترقيع بردعة حماره الأسود العنيد. قال له خاله وهو منهمك فيما هو فيه: سنذهب غداً إلى «إغزر» (= الوادي: وادي زوزفانة) للاحتطاب وجني بواكير التمر. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها صاحبنا إلى «الشغل»، فلقد سبق له أن رافق جده مراراً إلى البستان يساعده في سقي الزرع أو في جمع الحطب. أما «الحمار» فقد كان يتولى الذهاب به إلى الساقية للورد كل يوم في وقت العصر، وغالباً ما يكون ذلك في شبه مباراة مع غيره من أطفال الحي الذين كانوا يقومون بنفس المهمة. كان حماراً أسود

قوي البنية سريع المشي صعب المراس، لا يقترب منه غريب إلا ركله. ولكنه كان منقاداً انقياداً تاماً لصاحبه خال صاحبنا. كان الحمار شديد الخوف من هذا الرجل الذي روضه ترويضاً بالقوة. وما زال صاحبنا يتذكر كيف أن هذا الحمار تجرأ ذات يوم على ركل خاله، فما كان من هذا الأخير إلا أن تعرض للركلة بيده اليمنى، فأمسك الحمار من رجله ولواها بقوة، فلم يتمالك الحمار رغم ضخامة جثته من الوقوع على الأرض. كان للحمار لجام من الجلد، وكان صاحبنا يمسك به عندما يقوده، راكباً أو ماشياً. أما في حالة السباق مع أقرانه فكان يرخي اللجام إرخاء، وأحياناً يلقي به في عنق الحمار لينتصب على ظهره ملوحاً بيديه زاهياً مفتخراً بوجوده في مقدمة المتسابقين.

والحق أن هذا السباق اليومي ـ تقريباً ـ الذي كان يجري بعد العصر كان متعة للأطفال وموضوع حديثهم في النهار. ولكنه ـ أعني سباق الحمير في أوقات الورد ـ كان ضرورياً للحمار نفسه، إذ إنه «الرياضة» الوحيدة التي كان يمارسها يومياً. ذلك أنه قد تأتي عليه أيام وأيام يظل خلالها رابضاً في إسطبله ليل نهار واقفاً أوجاثماً على الأرض، فكان هو الآخر ينتظر وقت الورد بفارغ الصبر متشوقاً لـ «الزعرطة» (= الجري مع الركل) والسباق.

ذهب صاحبنا ذلك اليوم، أيضاً، بالحمار للورد، ولكنه حرص على العودة سريعاً، فالحمار في حاجة إلى الراحة، ولا بد له من «وجبة عشاء» غنية، لا بد من إضافة شيء من الشعير إلى الوجبة المعتادة من التبن. كان اسطبل الحمار في زاوية على اليمين داخل الدار قريباً من قبو مملوء تبناً، منه تقدم له وجباته: نحو كيلوغرام صباحاً ومثله مساء. أما الشعير فيؤخذ من مخزون العائلة في غرفة المؤونة التي كانت تشتمل في زاوية منها على حوض مملوء شعيراً تتخلله قطع من الملح الحجري لحفظه من الفساد. وإلى جانبه حوض من القمح مع قطع من الملح كذلك. يملأ الحوضان في الصيف بما جاد به البستان أو «المعذر» (السهل الذي ينتهي إليه الوادي بالماء والطمي الذي يأتي به من التلال والأراضي المجاورة). كانت قطع الملح لحفظ الزرع من الفساد ـ كما قلنا ـ ولكن أيضاً لطرد الجن حتى لا يسرقوا منها، فلقد كانوا شركاء البشر في كل شيء كما ذكرنا. أما في أقصى عمق الغرفة فتصطف خوابي التمر الملبّد، الذي يدك فيها بالأرجل دكاً مع نهاية الخريف، بعد جنيه وتجفيفه في سطح المنزل على حرارة الشمس. وفوق الخوابي أعمدة تمتد من الجدار إلى الجدار علق عليها عدد من عراجين التمر الممتاز، يحتفظ به كما هو ليقدم في المناسبات.

لم يكن صاحبنا في حاجة إلى مصباح ـ مع أن الغرفة كانت مظلمة ليلاً ونهاراً ـ لأنه كان يعرف طريقه ويعرف بالضبط، مثله مثل جميع أفراد العائلة، أين يجد حاجته. اتجه مباشرة إلى حوض الشعير وملأ وعاء يسع نحو مدين ثم ذهب به إلى مذود الحمار الذي ما إن رأى الوعاء حتى أخذ ينهق فرحاً، ماداً ذيله إلى وراء، رافعاً رأسه إلى أعلى، فاتحاً شفتيه، واصلاً أسنانه العليا بالسفلى. لقد كانت تلك طريقته في التعبير عن الرضا والفرح، فالحمار يضحك بأسنانه... وضع صاحبنا وعاء الشعير بعيداً على الأرض ثم أتى بوجبة التبن ووضعها في المذود، ثم وضع الشعير وسط التبن وترك الحمار يأكل وانصرف.

في اليوم التالي استيقظ صاحبنا قبيل الفجر على إيقاع حركات خاله الذي كان قد استيقظ قبله وأخذ في تسريج الحمار وتثبيت مزود «العوين» (الزاد) عليه: شيء من التمر الملبد والأقط (الجبن اليابس).. ثم خرجا راكبين على الحمار، الخال في الأمام وابن أخته وراءه. اتجها شرقاً عبر «بغداد» قريباً من مدينة الأطفال، «الرباط» التي تحدثنا عنها قبل. وعندما بدأ قرص شمس الصباح يطل عليهما من ثنية جبل «سيدي يوسف»، الذي يشق وادي زوزفانة مجراه على سفحه، كانا قد وصلا الكثبان الرملية التي تنحدر نحو الوادي. كانت على سفوح هذه الكثبان آثار الزواحف والحشرات والذئاب. نزل صاحبنا وخاله من على ظهر الحمار وأخذا يمشيان وراءه بين الكثبان الرملية تخفيفاً عليه: فالمشي على الرمل الكثيف المتموج ليس كالمشي على الأرض الصلبة المسطحة، وركوب الدابة وهي تمشي على الكثبان الرملية يعتبر عملاً لاأخلاقياً. ومع منحدر الكثبان نحو الوادي تمتد صفوف النخيل تتزاحم في غير نظام. وكان صاحبنا ينحني بين الفينة والفينة ليلتقط التمر فيأكله بعد أن يمسحه بيده من الرمل. إن تمر الصباح هو ألذ تمر، فعلاوة على حلاوته فإن برودة الصباح تضفي عليه نكهة خاصة. أما إذا كان التمر ما يزال على العرجون يستكمل النضج فإن طعمه يكون ألذ طعماً: حلو كالعسل مع مذاق البلح.

لم تكن حقول النخيل مفصولة عن بعضها بل كانت متداخلة. ومع ذلك فأهل فجيج يعرفون نخلهم، واحدة واحدة، سواء كانت مجتمعة في بقعة من الأرض أو متناثرة بين النخيل والكثبان أو على ضفاف الوادي، فالأرض مشاعة ولا يملك المرء إلا ما غرس. لم يكن أحد يقترب من نخيل الآخرين إلا ليصلح ما أفسدته الرياح، لا يأخذ منها تمراً ولا جريداً... على أنه من الجائز للمارة التقاط التمر من أسفل النخل أياً كان مالكه، ولكن للأكل فقط، هناك في عين المكان. إن ما يأكله الإنسان

في عين المكان مما يسقط على الأرض لا يعد سرقة، ولكن إذا جمع الرجل أكثر من مُدّ، وجاء به إلى منزله عُدّ ذلك سلوكاً مشيناً يحط من قيمة صاحبه. على أنه إذا كان المعني بالأمر رجلاً فقيراً معروفاً بكونه لا يملك نخيلاً فإنه لا لوم عليه إن هو جمع من الأرض ما به يقتات في منزله مع أولاده ليوم أو يومين. لم تكن هناك حاجة إلى الحراس، ولا كان هناك قانون مكتوب، وإنما هو وازع داخلي قوامه «أخلاقيات» وقواعد للسلوك مستضمرة بصورة جماعية وبفعل الخبرة اليومية.

كان أول شيء فعله صاحبنا عندما وصل هو وخاله والحمار إلى نخيل «أولاد الحاج»، هو ربط الحمار على نخلة بينما تولى خاله نزع البردعة عنه ووضعها هي والزاد بعيداً، مخافة أن يمد إليها الحمار عنقه فيأكل الزاد ويقطع البردعة ليأكل التبن الذي يملأ فجواتها. وفوراً بدأ العمل: الخال يقطع اليابس من جريد النخل ويلقيه على الأرض وصاحبنا يجمعه وأطراف الخشب في أكوام صغيرة. كان تسلق النخلة أمراً عادياً مألوفاً يتقنه الكبير والصغير في بلدة فجيج، فكان صاحبنا يتسلق النخلات النحيفة الطويلة الجذع، التي لا تحتمل ثقل جسم خاله، ليجني تمرها، بينما كان هذا الأخير يتولى النخلات الأخرى... بعد ذلك نزلا إلى الوادي يجمعان ما ألقى به من الحطب، حتى إذا جمعا ما يكفي رجعا ليكملا التقاط التمر من العراجين المدلاة ووضعها في أكياس خاصة.. لم تكن العملية سهلة فعراجين التمر محمية بشوك الجريد، الطويل الحاد، مما كان يستوجب التعامل معه بمهارة حتى لا تخرج اليد مضرجة بالدماء.

ـ ٥ ـ

عندما انتهى الخال من تفقد النخيل وجمع ما يكفي من الحطب، بل ما يقدر الحمار على حمله، اجتاز مع ابن أخته الوادي إلى الضفة الأخرى، لقد كان ارتفاع الماء لا يتجاوز القدم إلا بقليل. ثم اتجها عبر شعاب سفح الجبل حيث تكثر أشجار السدر التي يجنى منه النبق. ولم يبخل الخال على ابن أخته بالوقوف والسماح له بجمع ما قدر على جمعه من هذه «الفاكهة» الصحراوية التي دونها ـ دوماً ـ شوك القتاد. ثم تابعا طريقهما عبر منعرجات سفح الجبل إلى ضريح الولي الصالح «سيدي يوسف بن علي» المشيد بين الصخور، في هذه الناحية من الوادي المعروفة بـ «تمزوغت» (الأذن).

إن زيارة هذا الضريح البعيد من المدينة يعد من المناسبات التي لا تتاح إلا نادراً، ويقال إن «بركة» دفينة تنفع الأطفال إذ تبعد عنهم كل شر. أما ضريح «للاشافية»، المقام في الجانب الآخر من الجبل إلى الغرب، فيقال إن زيارته تشفي النساء العواقر. ويكفي أن تصعد إليه المرأة، عبر مسالك وعرة، وتقدم واجب الزيارة من تمر أو خبز ثم تعقد عقدة على سعف نخلة صغيرة هناك، يكفي ذلك لتنفتح أمامها أبواب الأمل في الإنجاب. وما زال صاحبنا يذكر أنه زار هذا الضريح مراراً محمولاً على ظهر عمته التي كانت ترافق امرأة عاقراً كانت تتردد على هذا الضريح بدون إذن زوجها. إن صاحبنا يذكر ذلك جيداً لأن المرأة والعمة معاً كانتا تحرصان على تلقينه ما يقول للزوج إذا هو سأله أين ذهبت زوجته.

والواقع أن الأضرحة في مدينة فجيج كثيرة ومتنوعة الاختصاصات: فاختصاص ضريح «سيدي منصور» غير اختصاص ضريح «سيدي الحاج محمد أوفضل»، غير اختصاص ضريح «سيدي بايزيد»، أو ضريح «سيدي الطيفور» الخ... كان بعض الأضرحة قبوراً لعلماء من فجيج مثل ضريح سيدي عبد الجبار في قصر المعيز، بينما كان كثير منها مجرد «مقام» لمتصوفة مشهورين اتخذ الناس منهم أولياء بعد مماتهم. والغالب على الظن أن ضريح «سيدي منصور» هو مقام للمتصوف الشهير ابن منصور الحلاج، وأن ضريح «سيدي بايزيد» هو مقام لأبي يزيد البسطامي، كما أن ضريح «سيدي الطيفوز» قد يكون بدوره مقاماً لـ «طيفور»، المتصوف المعروف. ومهما يكن فقد كانت هذه الأضرحة بمثابة «مستشفيات» ترتادها النساء لطلب الشفاء لهن أو لأبنائهن، وكثيراً ما يتطلب الاستشفاء المرابطة في الضريح عدة أيام. ومن هنا اسم الضريح بالأمازيغية (أمرابط)، ويطلق أيضاً على دفينه. على أن المرابطة في الضريح لعدة أيام لم تكن هي القاعدة. لقد كانت الزيارة من حين لآخر، وتقديم الشمع و «الفتوح» (تمر أو خبز في الغالب) لمن يقوم على خدمة الضريح وخدمة زواره، تكفي...

أما ضريح «سيدي يوسف» الذي زاره صاحبنا مع خاله عند الانتهاء من أشغالهما في الوادي فلم يكن فيه محافظ ولا محافظة. لقد كان بعيداً ونادراً ما يرتاده الناس. كان الضريح عبارة عن قبة في داخلها قبر، أو على الأصح أحجار منصوبة في هيئة قبر. وعلى أحد الجدران كوة يعلوها سواد دخان باهت مما يدل على أن الشمع لم يوقد في هذا الضريح منذ مدة. ولم يكن الخال قد اصطحب معه شمعاً، ولذلك اكتفى بوضع مُدّ من تمر استخرجه من مزود كان على كتفه، في حفرة كانت

على شكل إناء، على مسافة قريبة من مكان الرأس في القبر. إنه «واجب» الزيارة. كان الخال يتمتم بأدعية لم يكن صاحبنا يتبين ألفاظها بَلْهَ معناها، ولكنه أدرك أن عليه أن يقلد خاله فيرفع كفيه بالدعاء هو الآخر، حتى إذا جاء وقت قراءة الفاتحة قرأها معه، ثم سلم.

عاد الخال وابن أخته إلى المكان الذي كان حمارهما ينتظرهما فيه مشدوداً بحبل إلى نخلة. وبعد أن فَكّا وثاقه نزلا به إلى الوادي ليشرب ثم عادا به إلى المكان الذي حطا فيه رحالهما، وأخذا يجمعان الحطب وجريد النخل اليابس ويرتبانهما في حزمتين ربطاهما بحبل ثم ألقيا بهما على ظهر الحمار، ثم ملآ ما بينهما فوق العمود الفقري للدابة بما كان معهما من متاع وأكياس، ثم قفلا راجعين يمشيان خلف الدابة.

ـ ٦ ـ

كانت الشمس تميل نحو الغروب عندما التقيا في مدخل المدينة عند ملتقى طريقهم مع طريق «تاغيت» (حقل النخيل المجاور للمدينة) بتلك الشخصية التي كان يعرفها الخاص والعام في البلد: «ناسا» (وهو تحريف بالأمازيغية لاسم عبد الناصر)، كان يتحدث إلى نفسه، بل إلى الناس كافة، كعادته. كانت عصاه في يده، يلوح بها ذات اليمين وذات الشمال. لقد كان هو الآخر في طريق عودته من ضريح «سيدي فضل» بـ «تاغيت». كان هذا الرجل من تلك «الشخصيات» المعروفة في البلد بكونها على شيء من «الحمق». وكان لكل واحد من هذه الشخصيات أسلوبه الخاص في التعبير عن هذا «الحمق» الذي يوصف به. أما «ناسا» فكان يتميز بانتقاله بين داره في المدينة وبين ضريح «سيدي فضل» صباح مساء. ويعتقد الناس ـ أو على الأقل هذا ما كان يعتقده الأطفال في سن صاحبنا ـ أن «ناسا» يقطع المسافة بين المدينة والضريح في «لمح البصر»، بينما يتطلب ذلك من الرجل العادي نحو ساعة من الزمن. هناك في هذا الضريح الذي كان هذا الرجل يحتكره احتكاراً ـ ربما لأن نزيله من جدوده ـ كان يقضي نهاره يشرب الشاي ويدخن سجائر كان يلفها في أوراقها بنفسه. ولم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منه هناك ولا كان الأطفال يجرؤون على الدخول إلى الضريح للإطلاع على ما فيه إلا نادراً وبعد أن يكونوا قد تأكدوا من غيابه. ومع ذلك فقد كانوا يخافون منه في غيبته أكثر من خوفهم منه في حضرته.

فعلاً كانوا يتحلقون حوله عندما يقف قبيل الغروب يلقي خطبته اليومية في

«تاشرافت» (= ساحة البلدة). كان يخطب في الناس بالعربية الدارجة، وقليلاً ما كان يتكلم الأمازيغية مع أنها لغته الأم. لم يكن الأطفال يفهمون شيئاً ذا بال من خطبه فقد كانوا لا يعرفون إلا الأمازيغية. ولم يكن «ناسا» يخيف الأطفال دائماً بل يحدث أحياناً أن يعاملهم بلطف وابتسامة، وهو لا يتحول إلى رجل غاضب مخيف حقاً، إلا حينما يكون بدون سجائر أو بدون سكر وشاي، وإذا زوده الأطفال بهما أو بأحدهما تبدد الغضب من وجهه وعاد يبتسم...

وإذ يستعيد صاحبنا اليوم في ذاكرته «ناسا» يجد نفسه ميالاً إلى تفسير «الحمق» الذي كان ينسب له بكونه كان تعبيراً عن الرفض، رفض المجتمع وقيوده وغياب العدل فيه. ذلك ما كانت تشي به «الخطب» التي كان يلقيها هذا الرجل على «الناس» الغائبين الذين لا يريدون، بل لا يستطيعون، سماع الكلام الحر الطليق الذي يتفوه به هذا الذي كان يوصف بأنه على شيء من «الجنون».

وعلى العكس من «ناسا» كانت الشخصيات الأخرى ـ المعروفة في البلد بشيء من «الحمق» أو ما يشبهه ـ أقل شعبية لدى الأطفال. أما «كاسو» (تحريف أبو القاسم) فقد كان بهلولاً يجري في الأزقة باكياً أو «يتكلم» كلام من يبكي. لم يكن يحسن الحديث إلى الناس ولا التعبير عما يريد ولا عما يشكو. لقد كان «مخطوفاً» ـ مجذوباً ـ في عقله ولسانه. ولكنه كان طيباً جداً يساعد كل من يدعوه لمساعدته أو من يبدو له أنه في حاجة إليها. ومع أن منظره لم يكن رائقاً، إذ كان لعابه وأنفه دائمي السيلان، فلقد كان الجميع ينظرون إليه بعين الشفقة، باستثناء الأطفال الذين كانوا يستفزونه ليجري وراءهم وهو يصيح بكلام غير مبين ولا مفهوم. وعندما مات اتخذت النساء قبره مزاراً ومن تراب قبره دواء لمعالجة اللوزتين (كان أهل البلد يداوون تعفن اللوزتين بإحاطة مكانهما من العنق بجبيرة من الطين الأحمر يتركونه يجف فيتقلص حجمه ويضغط على اللوزتين المنتفختين وقد يصادف أن يشفى المريض، فينسب ذلك إلى بركة صاحب الضريح، أو القبر، الذي أخذ منه التراب). لقد حظي «كاسو» باحترام زائد بعد مماته، بينما كان مزعجاً أثناء حياته. لقد تذكر الناس عندما مات أنه لم يكذب طول حياته ولم يسرق ولم يغش ولم ينافق ولم يغتب أحداً قط. ومع أنه لم يكن يؤدي الصلوات الخمس فإن سلوكه البريء براءة الأطفال قد وضعه بعد وفاته في مرتبة الأولياء الصالحين. إن «الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وهذا الرجل لم يعرف طول حياته ما الفحشاء وما المنكر، فكانت حياته كلها صلاة، أو قل إنها كانت تجسيداً للخلق الذي من أجله كانت الصلاة.

أما «الشيخ حمان» (تحريف عبد الرحمان) فقد كان شخصية من نوع آخر. كان قد قضى فترة في فرنسا، وعندما عاد أخذ يتصرف تصرفاً «يعلو» على تصرف «العقلاء» العاديين من الناس. لم يكن كثير الكلام، ولكنه كان إذا مر من أحد المجامع وسأله بعضهم سؤالاً أجاب بجملة أو جملتين بليغتين لفظاً ومعنى. كان ينطق بـ «الحكمة»، وكان «أحمق» لأنه كان ذا عبقرية فوق المعتاد. كان من أولئك الذين يقول عنهم المثل: «خذ الحكمة من أفواه الحمقى». سئل الشيخ حمان ذات يوم: «كيف حال الدنيا؟» فسكت لحظة وأجاب: «إنها ملثمة، فلا ندري أهي رجل أم امرأة!» لم يكن الشيخ حمان موضوع اهتمام الأطفال إذ لم يكن «حمقه» في مستواهم. لقد كان رجلاً عادياً في تصرفاته، وكل ما كان يضعه في زمرة «الحمقى» أنه كان لا يتكلم إلا رمزاً ولا ينطق إلا بحكمة. لقد كان «عاقلاً» أكثر من المعتاد، ولذلك كان الناس يصفونه بـ «الحمق».

ولم يكن عالم النساء يخلو من مثل هذه «الشخصيات». فلقد أدرك صاحبنا زمن طفولته المبكرة سيدة عجوزاً كانت تُعرَف باسم «مامّا قُو» (= أمي رقية) كان يُخَوَّف بها الأطفال. فإذا لم يأتمر الطفل بأمر أمه، كأن يمتنع عن النوم مثلاً، هُدِّد بالنداء على «ماما قو». ولا يتذكر صاحبنا عن هذه السيدة سوى أنها كانت إذا خرجت من منزلها، عارية الوجه والرأس تجر ثيابها على الأرض، فَرَّ الأطفال من أماكن لَعِبهم في الأزقة وأفرغوا لها الطريق ليطلّوا عليها من ثقوب الأبواب حابسين أنفاسهم. لقد كان منظرها يجسد في ذهن صاحبنا، يوم كان في نحو السادسة من عمره، منظر إحدى الشخصيات الرئيسية في الحكايات التي تحكى للأطفال قبل النوم خاصة، حكاية «أمزا وتامزا» (= الغول والغولة). كانت «ماما قو» تمثل في خيال صاحبنا الصورة البشرية لـ «تامزا». أما زوجها «أمزا» فقد كان يصعب على عقل الطفل تصور شيء يشبهه.

كانت حكايات الأمهات والجدّات تقدم «أمزا» في صورة كائن هائل القوة عظيم الجثة إلى درجة أنه قد يحدث له أن يزيح الجبل برجله من طريقه كما يزيح الطفل بقدمه بعرة بعير. والغالب ما كانت حوادث حكايات «أمزا وتامزا» تجري في الخلاء مع الوحوش الضارية. كان الأطفال يُقبِلون على سماعها باهتمام ورهبة لا مزيد عليهما. كانوا يسرحون بخيالهم مع حوادثها إلى أن يغلب عليهم النوم، وحينئذ «تسكت شهرزاد عن الكلام المباح» لتستأنفه في مساء اليوم التالي... فعلاً كانت حكايات «أمزا وتامزا» أشبه بقصص ألف ليلة وليلة من حيث تسلسلها،

ولكنها، في مضمونها، كانت أقرب إلى «أفلام الرعب»، أفلام البطولة والخيال، التي تشد إليها أطفال اليوم شداً. حقاً لكل زمان وسائله ومناظره. ولا جدال في أن هناك تقدماً هائلاً على هذا المستوى. ومع ذلك تبقى الطبيعة البشرية هي هي: إن أفلام الرعب التي تقدم اليوم للأطفال، وللكبار كذلك، صوراً على الشاشة مصحوبة بالحركة والصخب قد لا تختلف كثيراً عن تلك التي يصنعها الأطفال بخيالهم حين سماعهم الحكايات التي تحكيها لهم جداتهم وأمهاتهم، فيرون الحوادث ويسمعون الأصوات داخل أنفسهم وبين طيات وجدانهم، وبذلك كانوا يلبُّون حاجة بشرية بعينها تتم تلبيتها اليوم بطرق أخرى، ويبقى الإنسان هو هو...

ومن الشخصيات التي كانت تشغل عالم الأطفال، عالمهم اليومي الواقعي هذه المرة، رجل يهودي كانوا يسمونه «بيكا». وكان الأطفال يهتمون به لكثرة تردده إلى قرية بني ونيف على الطرف الآخر من الحدود. كان يغادر البلدة صباحاً ويعود مساء، يمشي على رجليه حاملاً عصا يضعها فوق كتفه فيمسك بأحد طرفيها، أما الطرف الآخر فيعلق عليه، وراء ظهره، قفة صغيرة كان وحده يعرف ما فيها. كان الأطفال يتعرضون له أحياناً عند مدخل المدينة ويضغطون عليه لحمله على الإقرار بما في قفته، ولكنه كان يمانع دائماً. وإذا اشتد عليه ضغط الأطفال صاح يطلب النجدة «بوه.. بوه..» فيهب المارة من الرجال إلى نجدته، وينصرف إلى حال سبيله.

والواقع أن اليهود كانوا يعيشون في فجيج حياة عادية تماماً. كان الذين يقطنون في قصر زناكة منهم يسكنون في حي وسط البلدة، قريباً من المسجد الكبير والساحة المركزية على جانب الحي «التجاري» (تميزرت)، يزاولون التجارة والحدادة والصياغة وصنع الأحذية. وكانت متاجرهم قريبة من منازلهم التي كانت جدرانها تطلى بالجير الأبيض أو الملون على عكس منازل المسلمين التي كانت بدون طلاء إلا ما كان من غرف الضيوف. وكان أطفال اليهود يلعبون مع بقية الأطفال.. لا فرق. وكانوا يتصادقون ويلعبون جميعاً. وما زال صاحبنا يتذكر طفلاً يهودياً كان صديقاً له، كان كثير المعاشرة لأطفال المسلمين: يلعب معهم ويدخل بيوتهم وكان اسمه ـ أو على الأقل هكذا كانوا يدعونه ـ «كوكو».. وكان صاحبنا يتردد على منازل أصدقاء أبيه من اليهود التجار فكانوا يعطونه من أكلاتهم الخاصة، كالرقاق ما يحمله معه إلى منزل أهله. وعلى العموم كان اليهود في فجيج يعيشون في هدوء وطمأنينة أيام طفولة صاحبنا. ولكنهم غادروا بعد ذلك خصوصاً خلال الحرب العربية ـ الإسرائيلية ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨.

ولعل آخر الشخصيات التي كانت متميزة في فجيج، هذا النوع من التميز، أثناء طفولة صاحبنا، شخصية راعي قصر زناكة الذي كان أعرابياً لا يعرف الأمازيغية، وكان اسمه «ابن صفية». كان سكان قصر زناكة يربون معهم في دورهم نعاجاً أو معزاً يستعملون حليبها لاستخراج الزبد واللبن منه خاصة، يشربونه أثناء تناول وجبات التمر. كان كل منزل يدفع بشياهه إلى القطيع المشترك الذي كان يرعاه راع مشترك. وغالباً ما كان الراعي من السكان «العرب» الذين يتنقلون بخيامهم والذين يعرفون أماكن الرعي. كان الراعي يخرج بالقطيع صباحاً قبل طلوع الشمس ليعود به قبل غروبها، وأحياناً كان «يعزّب»، أي يقضي أسبوعاً أو نحوه بعيداً عن محيط المدينة طلباً للكلأ الجيد حتى إذا عاد حمل معه ما تضعه الحوامل من الشياه إلى أصحابها. وقد كان أميناً في الغالب.

وفي الفترة التي كان فيها «ابن صفية» راعياً كانت شعارات الحركة الوطنية قد انتشرت، فكان الأطفال يرددون شعار «يحيا الملك»، كلما كانت هناك مناسبة. ويذكر صاحبنا جيداً أن «ابن صفية» كان يتجنب النطق بالشعارات «الوطنية»، ربما خوفاً من السلطات الفرنسية وأعوانها. وقد اكتشف فيه الأطفال ذلك فصاروا يطلبون منه، ويلحون في الطلب كلما عاد بالقطيع مساء، أن يهتف مثلهم بصوت مرتفع: «يحيا الملك»، فكان يتجنب الاستجابة لطلبهم ويجتهد في صرفهم عنه بسلام. وذات مرة قرر الأطفال، وفيهم صاحبنا، أن يحملوه بالقوة على النطق بصوت مرتفع بعبارة «يحيا الملك»، فأحاطوا به وحاصروه أمام جدار، مهددين متوعدين، فما كان منه إلا أن استجاب لطلبهم على طريقته الخاصة إذ قال لهم: «راه حيا لكم، كونوا غير رجال». وعندما عاد الحاج محمد فرج ـ عميد الحركة الوطنية بالبلد ـ ذات مرة من سفر إلى الرباط تحلق حوله الناس كالعادة في مثل هذه المناسبات فحدثهم عن رحلته وقال لهم: «إن الملك يسلم عليكم واحداً واحداً»... وكان الراعي ابن صفية حاضراً فالتفت جانباً وأخذ يضحك ويقول: «هل يعرفني الملك حتى يسلم علي».

ـ ٧ ـ

تلك كانت أهم الشخصيات التي كانت تشغل عالم الأطفال بقصر زناكة وتملأ بعض الفراغ في حياتهم، زمن طفولة صاحبنا، فالفراغ ورتابة حركة الزمن وندرة الجديد والغريب هي السمات الرئيسية التي كانت تطبع الحياة يومئذ. فعلاً، كان

«الزمن» في ذلك الزمان والمكان طويلاً، أطول كثيراً مما يحس به أبناء اليوم. كان أهل البلد يستيقظون باكراً، قبيل الفجر، ونادراً ما كان الإنسان، رجلاً أو امرأة، ينام إلى طلوع الشمس. كانت النساء يستيقظن قبل الفجر ويذهبن إلى السواقي ليأتين بالماء كما أشرنا إلى ذلك قبل. وبعودتهن إلى المنزل يستغرقن في أشغالهن اليومية الأخرى، وأهمها، بعد إعداد وجبات الأكل، غزل الصوف ونسج البرانس والجلابيب لأزواجهن وأولادهن وإخوتهن، أو لبيعها في السوق، وقد كانت المصدر الوحيد ـ تقريباً ـ للحصول على النقود (باستثناء ما يرد من التجارة المحلية المحدودة أو من إرساليات بعض العمال المهاجرين وكانوا قلة).

أما الرجال الذين كانوا يحرصون على حضور صلاة الفجر في المساجد فكان عليهم أن يذهبوا قبل ذلك للاغتسال في السواقي المتفرعة من عين «تزادرت»، وإذا لم يكن هناك ما يستوجب الاغتسال قصدوا حجرة الوضوء التي تكون في العادة مجاورة للمسجد وبجانبها بئر. إن الطهارة شرط للصلاة، فلا بد من الوضوء، ولا بد من الماء، ولم يكن هناك غير البئر لتوفير الماء في عين المكان. ومياه الآبار في فجيج مالحة ولكنها طاهرة: يأخذ الرجل من غرفة الوضوء وعاء من خشب بدون مقبض في الغالب، يأتي به إلى حافة البئر، ثم يسحب الماء بالدلو ويملأ وعاءه ويعود به إلى غرفة الوضوء ليأخذ مكانه جنب آخرين في صف واحد، وعلى ممر يستقبل الماء المستعمل ليذهب به غير بعيد إلى «المطمورة» (حفرة مسقفة). وبعد صلاة الصبح يتفرق الناس، بعضهم يلتحق ببستانه وبعضهم يلتحق بالمسيد أو بالمنزل، بينما يمكث آخرون في المسجد يقرأون القرآن ثم يعودون إلى منازلهم لتناول ما تيسر كفطور، تمر أو قهوة، حتى إذا ملأت شمس الضحى الكون بأشعتها الملتهبة كف الرجال عن العمل، ولجأوا إلى الأزقة المسقفة ليأخذ كل منهم مكانه في «المجمع» الذي يرتاده، والذي يظل منعقداً في جلسة متواصلة حتى غروب الشمس. هذا بينما تستمر النسوة في أشغالهن في البيت طول النهار.

كانت «المجامع» هي المكان المفضل، عند الكهول والشيوخ، لتمضية الوقت. كان «الجلوس» يبدأ في الضحى، وأحياناً قبلها. ولم يكن الرجل يغيب عن مجمعه إلا في أيام «السقي» سقي البستان، مرة في الأسبوع في الغالب، أو يوم السوق وأيام الحرث والحصاد... كان زمان المجمع، إذن، يستغرق معظم النهار، كل نهار. يجلس رواد كل مجمع، وفي الغالب يكونون من نفس الحي، في صفين متقابلين تحت السقيفة، متكئين على الجدار، وبعضهم يستلقي على الأرض متوسداً

مرفقه أو طوبة... شغلهم الشاغل «القيل والقال»: يتبادلون الأخبار، أخبار أهل البلد، ويعلقون ويخمنون... ويحكون ما حدث لهم أو لغيرهم في الماضي القريب أو البعيد، خارج فجيج في المهجر أو داخل محيطها في الوديان وأماكن الاحتطاب... حتى إذا رأوا قادماً على الطريق، رجلاً أو امرأة أمسكوا عن الكلام واتجهوا بأعينهم، بل بجميع جوارحهم نحوه، يتفحصونه من بعد وعن قرب حتى إذا مر تبعوه بأعينهم إلى أن يغيب، ثم يعودون للتعليق ومتابعة القيل والقال. أما إن كان المار امرأة ـ وغالباً ما كانت النساء يتجنبن المرور عبر هذه المجامع ـ فهم يسكتون ويغضون الأبصار، حقيقة أو تصنعاً. ولكن كثيراً منهم لا يفوتهم أن يحدقوا في جسم المرأة، من طرف خفي، رغم أن الإزار/ الحجاب يغطيها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها. لم يكن أحد يتجرأ على الكلام في أي امرأة تمر، لأن أي امرأة في البلد لا بد أن تكون أم فلان أو زوجة فلان أو أخت فلان، ومن ثم فالكلام في أية امرأة لا بد أن يصل إلى أحد أقاربها مع زيادة، فتكون النتيجة الخصومة التي تنذر بالشر. إن «الكلام» في المرأة اعتداء على الشرف، ومن العار ألا يهب الرجل للدفاع عن شرفه. ثم إن الرجل لا يليق به أن يتحدث عن النساء فـ «الكلام» يكون مع الرجال وفي الرجال. وإذن، لقد كان «الكلام» في المرأة غائباً تماماً في هذه المجامع، إلا همساً أو من وراء حجاب.

أما الكلام في الرجال، جداً أو هزلاً، فذاك هو الموضوع. ولكن بما أنه لم يكن هناك في أحياء البلد ـ أعني في أحياء القصر المعني من قصوره ـ رجل غير معروف، ولا كان في حياته ما لا يعرفه الناس، فلقد كان من السهل أن يقع أصحاب المجامع في أزمة فقدان موضوع الكلام. لذلك تجدهم يقبلون تكرار الكلام في نفس الموضوع، يعيدون حكاية «الخبر» مرات ومرات. وكثيراً ما كانوا يلتذون بالاستماع إلى نفس الشخص يعيد نفس ما حكاه بالأمس أو قبله، متسامحين فيما يأتيه من زيادة أو نقصان، فالخبر لم يكن من أجل ما ينقله من معلومات للسامع، بل من أجل تمضية الوقت. ولذلك فلم يكن معيار الصدق ذا شأن، فالشأن كل الشأن لتقديم القديم في ثوب جديد. أما الجديد نفسه فقلما يجود به الزمن، الذي هو قرين الرتابة في البلد الصحراوي، وكأن الصحراء ليست صحراء المكان بل صحراء الزمان أيضاً.

أما الغريب عن القصر فلا وجود له. وإذا وجد فساعة من نهار يقضي حاجته وينصرف. ولم يكن هناك في الحقيقة من غرباء يترددون على فجيج غير «العرب»

(البدو) الذين يأتون من حين لآخر ليعرضوا في إحدى الساحات، على طرف المدينة ما تحمله جمالهم من حطب أو ملح أو أقط (= جبن يابس في حجم المشمش)، وغالباً ما ينهون تجارتهم قبل غروب الشمس، ليقضوا الليل مسافرين وراء جمالهم أو على ظهورها.

كان كل شيء معروفاً، وسواء تعلق الأمر بقصر زناكة أو بغيره من القصور، فالسكان يعرف بعضهم بعضاً، يعرفون أنسابهم وما يملكون، وما يخفون وما يظهرون. وإذا غاب أحدهم عن المجمع وسأل عنه سائل كان الجواب: «هو في المكان الفلاني» أو عند فلان... إنهم يعرفون أين يكون الواحد منهم «حاضراً» عندما لا يكون جالساً بجانبهم: إن «المجمع» هو أيضاً مجمع الأخبار والمعلومات. وبما أن موضوعات الخبر والمعرفة محدودة في الغالب بحدود البلد ورتابة الحياة فيه فإن كل واحد يكون على علم بـ «كل شيء». وكما أن المجمع لا يستقيم بدون القيل والقال، ولو كان تكراراً لما قيل ويقال، فإن المقام لا يحلو فيه بدون حد أدنى من الاغتياب والنميمة. فإذا كان الشخص طرفاً في حديث أو جدال ثم غادر المجمع لسبب من الأسباب تحول إلى موضوع للحديث. ومن أجل ذلك يحرص المرتادون للمجمع على تجنب الغياب والمغادرة قبل انفضاضه، لأنهم يعرفون أن غيابهم قد يجعل منهم موضوعاً لتساؤلات الحاضرين وتعليقاتهم وتخميناتهم.

والحق أن هذه المجامع لم تكن كلها على شاكلة واحدة ولا على مستوى واحد من الوقار أو غيره: كان هناك مجامع للشيوخ، وأخرى للكهول، وثالثة للشبان، إضافة إلى تجمعات الأطفال... مجامع الشيوخ يقل فيها الكلام نسبياً ويكثر فيها النوم وقد لا تخلو من شخير. وفي الغالب يطبع الوقار الحركات والسكنات فيها، بما في ذلك حركات اللسان. أما مجامع الكهول فأكثر حيوية، حساً ومعنى، ومثلها مجامع الشباب ولكن مع صخب أكثر. وأكثر جلسات المجامع متعة، وكان يعقدها الشباب من حين لآخر، هي تلك التي تخصص لما يسمى بالأمازيغية «تومزيا»، أي ما يمكن ترجمته بـ «التشبيه الكاريكاتوري». كان هناك أشخاص معروفون بإبداعهم في هذا النوع من التشبيهات التي تفجر الحاضرين بالضحك تفجيراً إلى درجة يضطر معها بعضهم إلى الإمساك ببطنه أو إلى الوقوف هرباً من وقع التشبيه على خياله. وعند غياب هؤلاء المبدعين يكتفي رجال المجمع بإعادة تشبيهاتهم أو الاجتهاد في الإتيان بما يسلي ويضحك.

كانت «تومزيا» عند أهل فجيج هي متعتهم المفضلة، يعقدون لها الجلسات في

المجامع وفي الأعراس، ونادراً ما تنتهي وليمة بدون ختمها بجلسة من هذا النوع من التشبيهات الكاريكاتورية التي تنتزع الضحك انتزاعاً وتحرك عضلات البطن والأحشاء كلها، فتساعد على الهضم! كانت جلسات «تومزيا»، ولا تزال، تتميز بروح رياضية عالية. فالشخص الذي يكون موضوعاً للتشبيه الكاريكاتوري كان عليه أن يضحك مع الضاحكين، وإذا هو أراد أن يكيل الصاع صاعين لمن جعله موضوع «تومزيا» فعليه أن يرد عليه برسم صورة كاريكاتورية له من خلال تشبيه أكثر إبداعاً وبلاغة. أما إذا كان لا يأنس من نفسه القدرة على التفوق على خصمه، فإن عليه أن يضحك كما يضحك الحاضرون وأكثر. فالضحك لا يكون على الشخص موضوع «تومزيا»، بل يكون بسبب التشبيه ومن أجل الاحتفاء به، اعترافاً بغرابته وإبداع الخيال فيه. ومن آداب «تومزيا» تجنب التعرض لما يقدح في كرامة الشخص، والاقتصار بالتالي في «التشبيه» على هيئته أو لحيته أو بطنه... وبصورة عامة الوقوف عند المظهر الخارجي. ولم يكن يُتوخى من «تومزيا» القدح أو الاستصغار بل هي مجرد إبداع خيالي من أجل حمل المستمع على الضحك، إبداع تلعب فيه «الغرابة» الدور الأكبر. ومن دون شك فإن جو الجلسة، الذي يطبعه الاستعداد الجماعي لسماع الغريب والمضحك من التشبيهات، هو ما يضفي على جلسات «تومزيا» سحرها وجمالها. إنها من هذه الجهة أشبه بالجلسات التي تخصص لـ «النُكات». والفرق هو أن النكات أكثر تجريداً وتكون موضوعاتها غائبة في الغالب، أما «تومزيا» فموضوعها يكون حاضراً في الغالب والتشبيه يكون من النوع الذي يسمى في البلاغة العربية بـ «التشبيه التمثيلي» مع تضخيم الصورة أو إفقارها، وقلب في العلاقات وعدم توخي غرض من أغراض الهجاء أو المدح. على أن من تلك التشبيهات ما يأتي بليغاً جداً فيتسبب في بعض الإحراج لمبدعها ولموضوعها معاً.

لم يكن الأطفال يرتادون مثل هذه المجامع، فاقتراب الطفل من مجمع الشيوخ أو الكهول لا يكون إلا للسخرة، لمناداة قريب أو إبلاغ رسالة شفوية إلخ... أما فيما عدا ذلك فجلوس الأطفال مع الكبار قلة أدب لا تحتمل، ولا تسامح معها. أما مجامع الشباب فقد يقترب الأطفال منها ويجلسون على امتدادها أو بجوارها فيغض الكبار الطرف عنهم مقابل أن يلزموا الصمت وكامل «الأدب»، وإلا رشقهم الكبار بعبارة: «اذهبوا إلى أقرانكم»، فيغادرون المكان مطرودين. وإذا تعنت أحد الأطفال أو تلكأ ولم يغادر كان جزاؤه الصفع أو الرشق بالحجارة. أما جلسات «الشيت» ومثيلاتها، حيث يتبارى المتبارون من الشباب جالسين في صمت، فلقد كانت مفتوحة في وجه المتفرجين من الأطفال الذين يتحلقون حولها في صمت، يتعلمون

قواعد اللعب وأساليب المناورة. وهي كما قلنا من جنس لعبة الشطرنج، تشد الأنظار والاهتمام وتحمل المتفرج واللاعب معاً على نسيان نفسه وما خرج من أجله إن كان خرج لغرض أو سخرة، كما حدث لصاحبنا حينما أرسله خاله لشراء السجائر له، فنسي نفسه في تجمع «أخباض» ونسي المهمة..

ـ ٨ ـ

تلك كانت أبرز مظاهر التسلية الجماعية في مسقط رأس صاحبنا. لقد كانت التسلية الرئيسية هي «الكلام»، وبالتالي فالتسلية الفردية كانت شبه منعدمة. ومن هنا ذلك الطابع الجماعي للحياة في هذا النوع من المدن الصغيرة المعزولة. لم تكن هناك حياة فردية خاصة، فكل شيء ـ تقريباً ـ كان على الشيع، وكل شيء في حياة الأفراد كان معروفاً أو قابلاً لأن يعرف بسهولة. أما الحياة الزوجية، مكمن الأسرار، عادة، فقد كانت مختصرة في نوم الرجل مع امرأته ليلاً، من العشاء أو بعده إلى الفجر. أما نهاراً فلم يكن الرجل يرى زوجته إلا مع باقي نساء الدار، مع أمه وأخواته وزوجات إخوته. وكان كل من الزوجين يتجنب إظهار الاهتمام بالآخر. ولم يكن أحدهما يسمي الآخر أو يناديه باسمه، إذا كان هناك من يسمع.. وإذا تحدثت الزوجة عن زوجها أمام الأهل أو نساء الحي استعملت ضمير الغائب (هو قال.. هو فعل..)، وإذا نادته استعملت ضمير المخاطب. وإذا سمى الرجل زوجته أمام أهله أو أصحابه ذكر اسمها كاملاً: «فلانة الفلانية.. أو بنت فلان» وكأنه بذلك يقيم الدليل على أنه ما زال ابن أمه وأبيه وأن زوجته ما زالت تتحدد هويتها عنده بأبيها ونسبه. وبكيفية عامة يمكن القول إنه لم تكن هناك أسرار بين الزوج وزوجته، إلا في النادر. فالزوج كان ابن أمه وأبيه دائماً، ما داما في الحياة، مهما تقدمت السن. أما الأسرار والأحاديث الخاصة فهي عادة بين الأم والأب حينما يتجاوز بهما العمر مرحلة «الزوجية»، أعني عندما يصبحان «متقاعدين»، عن الإنجاب، لا ينام أحدهما مع الآخر. فـ «الوالد» ينام في غرفته وحده، أما «الوالدة» فتنام مع الأطفال.

تلك هي القاعدة العامة. وككل قاعدة هناك استثناءات تزكيها، كما يقال. ولعل علاقة خال صاحبنا بزوجته الجديدة من هذه الاستثناءات. كانت طفلة تصغره بكثير، وكانت تلعب مع صاحبنا. ولكن ذلك، أعني تفرغها للعب، كان فقط أثناء غياب زوجها للعمل في الجزائر، وهو غياب يستمر في العادة ستة أشهر. أما في

الأيام التي يقضيها في البلد فلم يكن يترك لها وقتاً للعب. كانت تقضي معظم الوقت معه في غرفتها، وكان هذا السلوك يثير امتعاض أمه وأبيه، فلم يكن من «مكارم الأخلاق» الاختلاء بالزوجة ساعات كاملة في النهار. ولكن الأب والأم، وكانا طاعنين في السن، كانا مغلوبين على أمرهما. كان كل ما يستطيعان القيام به من ردود الفعل هو الإعراض أكثر ما يمكن عن «الكلام» مع هذين الزوجين اللذين أصبحا «فريسة للشيطان».

عندما يسافر الخال إلى مقر عمله بالجزائر تبقى العروس مع حميها وحماتها وأخت زوجها تقضي جل الوقت في اللعب مع صاحبنا. كانا طفلين يلعبان بكل براءة الأطفال يختصمان ويتصالحان في الحين. ولم يكن صاحبنا يقيم أي فرق بين أن يلعب مع الطفلة زوجة خاله في المنزل أو مع أقرانه الصغار من بنين وبنات في الشارع، لم يكن يقيم أي فرق بينه كصبي وبينها كصبية إلى أن كان ذات يوم حينما دعاه جده إليه ليهمس له في أذنه: «لا تلعب مع فلانة (زوجة خاله)، إنها امرأة..».

ويستطيع صاحبنا أن يؤكد اليوم تأكيداً قاطعاً أنه ما إن سمع من جده تلك الكلمات حتى شعر بخندق لا قرار له قد حفر فجأة ليفصل بينه كـ «رجل» وبين فلانة كـ «امرأة». وأكثر من ذلك يستطيع أن يؤكد جازماً أنه منذ تلك اللحظة رسخ في وعيه أن علاقة «الذكر» بـ «الأنثى» من بني الإنسان لا يمكن أن تكون بريئة بالكامل مهما كان سنهما. لقد صار يدرك منذ ذلك الوقت أنه لا بد أن يكون هناك وراء علاقة الصداقة واللعب بين الصبي والصبية، بين الفتى والفتاة، شيء غير مرغوب فيه. لم يكن صاحبنا آنذاك يدرك ما هذا «الشيء»، ولكنه يستطيع مع ذلك أن يؤكد الآن أنه شعر آنذاك بما يشبه وخز الضمير من جراء ما كان يمارسه من قبل من ألعاب «الزوج والزوجة» التي تحدثنا عنها من قبل. إنه يتذكر اليوم، بكل وضوح، هذه الواقعة التي بقيت حية في وعيه تفعل فعلها فيه منذ ذلك الوقت، بل إنه يستطيع أن يخمن بأن أناه الأعلى، الخاص بهذا المجال، قد تأسس على هذه الواقعة، وبالتالي فعلاقته بالمرأة عموماً «محكومة»، إلى حد كبير بهذا النمط من الأنا الأعلى، حتى إنه ليذكر أنه كثيراً ما حدث له وهو شاب أن حمل نفسه على صرف النظر عن أية فتاة تشد إليها بصره، وذلك تحت ضغط سؤال كان يأتيه من أعماق نفسه ليهمس في أذنه: «ما دمت لن تتزوجها فلماذا تشغل نفسك بالنظر إليها»؟

سؤال لا يستطيع أن يدعي أنه تحرر من سلطته، حتى في أكثر فترات مراهقته وبلوغه جموحاً وهياجاً.

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

يشعر صاحبنا وهو يتهيأ لمواصلة تتبع معارج مساره الشخصي أيام طفولته، والتعريف بالبيئة التي نشأ فيها وقضى طفولته بين مساربها ودروبها، يشعر بالحاجة إلى القول إن من الذكريات ما تنتمي حوادثها إلى الماضي، وإن منها ما ينتمي إلى المستقبل، لا بحدوثها الزمني بل بآثارها ونتائجها. إن الذكريات التي تم عرضها إلى الآن مع ما تخللها من حفر واستنطاق تتعلق بأحداث كان لها بدون شك دور هام في تكوين شخصية صاحبنا، سواء على صعيد الوعي أو على صعيد اللاوعي، ولكنها ـ في نظره الآن على الأقل ـ لم يكن لها أي «فضل» عليه، لا بوصفه مجرد كائن بشري، بل بوصفه هذا الشخص الذي يكتب الآن والذي تخلع عليه الصحافة أحياناً ذلك اللقب الذي يدخله في زمرة «المفكرين»...

يتذكر صاحبنا أنه عندما قرأ اسمه مقروناً، أول مرة، بهذا اللقب، وكان ذلك منذ ما يقرب من عشر سنوات، شعر بنوع من الخجل الممزوج بالإحراج، فراح يستعرض في ذهنه شريط حياته، لعله يعثر فيه على ما يستحق أن يؤول إليه شرف هذا اللقب. أخذ يرجع القهقرى بتاريخ حياته الفكرية حتى إذا وصل مرحلة الطفولة انتصبت في مخيلته، لا بل أمام بصره، صورة ذلك الرجل الذي يرجع إليه، بالفعل، فضل غرس شجرة العلم في مسقط رأسه فجيج، الشجرة التي مكنت جيله والأجيال اللاحقة في هذه المدينة من ولوج عالم المعرفة والانخراط في سلك المثقفين والفنيين والاختصاصيين على جميع المستويات. إنه الحاج محمد فرج الذي لا يمكن، ولا يجوز، الحديث عنه ضمن سياق الذكريات التي استعادها صاحبنا في الصفحات

الماضية والتي تنتمي حوادثها إلى ما يشكل ماضي طفولته. إن القطيعة التي أحدثها هذا الشخص في مدينة فجيج بين الماضي والمستقبل، بين المسيد والمدرسة العربية العصرية، بين اجترار الحياة وبين صنع الحياة، بين العزلة عن الوطن بتأثير الجغرافيا وبين الانخراط اللامحدود في العمل الوطني لصنع التاريخ، تاريخ الوطن، إن هذه القطيعة التي عاصر صاحبنا بدايتها وكان ثمرة من ثمراتها تفرض عليه الآن، وهو يستعرض وقائع حياته وهو طفل، أن يدشن بدوره قطيعة داخل ذكرياته نفسها، فيميز فيها بين ما «ذهب مع الماضي» وبين ما ظل يبني المستقبل، أعني الوقائع التي يعود إليها الفضل فيما صار لصاحبنا من ذكر في الساحة الثقافية المغربية والعربية.

إن المقام هنا ليس مقام التأريخ لحياة هذا الرجل الذي غرس الوطنية في فجيج، فكان من أهلها وطنيون ومقاومون ساهموا في الكفاح الوطني المغربي من أجل الاستقلال بقدر أكبر كثيراً من حجم بلدهم، ذلك الرجل الذي أنشأ مدرسة النهضة المحمدية، الوطنية العربية الحرة، بأساتذتها وتلامذتها، وأكاد أقول بجدرانها وأحجارها، والذي كافح من أجلها وأعطاها من فكره وعرقه ووجدانه ـ ولا أقول من ماله إذ لم يكن ذا مال ـ مما جعل منها بوتقة من ذهب صنعت جيلاً من المتعلمين والمثقفين والاختصاصيين في مختلف المجالات العلمية ليس صاحبنا إلا رقماً في السلسلة الطويلة التي تنتظمهم. . . أقول إن المقام هنا ليس مقام التأريخ لسيرة هذا الرجل الفذ، ولا مقام التمجيد والتنويه بأياديه البيضاء على أبناء بلده، فهو يستحق بالفعل أن يؤرخ له كواحد من الشخصيات التي ساهمت بقسط وافر في صنع المغرب الحديث، وأن يخلد اسمه في سجل بناة هذا الوطن. وكاتب هذه السطور لا يستطيع أن يقوم بهذا العبء وحده، فالرجل أكبر كثيراً من أن تتحدث عنه ذاكرة فرد واحد ولا أن تفي بحقه معارف شخص واحد. . ولذلك فالتعريف به هنا سيكون مجرد لقطات من فيلم طويل يحكي قصة كفاح، ويعطي المثال في الكفاح، لقطات سريعة وباهتة سجلتها ذاكرة صاحبنا أيام كان طفلاً بين التاسعة والثانية عشرة من عمره، ثم صارت عناصر مندمجة في ذكرياته، لا بل عناصر مؤسسة لذاكرة «جديدة» مستقبلية، على أنقاض ذاكرته «القديمة» الطفولية.

يبدأ تاريخ هذا الرجل في ذاكرة صاحبنا بجملة من «اللقطات» ترجع إلى ما قبل بناء مدرسة النهضة المحمدية. ولعل أجدر هذه اللقطات بالتقديم تلك الصورة التي ما زالت عالقة بذهن صاحبنا منذ أن كان طفلاً في نحو الثامنة من عمره يتردد بمفرده، أحياناً، بين دار أهله لأمه ودار أهله لأبيه عبر أزقة مسقفة مظلمة تتخللها

بين حين وآخر فتحات للإضاءة، ولكنها غير كافية بالمرة. لقد كان المرور عبر هذه الأزقة يتطلب المعرفة بمواقع الحفر الموجودة فيها والمصطبات القائمة على جوانبها والتي ينام عليها نهاراً بعض الرجال، خصوصاً الكبار منهم، هروباً من حرارة الشمس أثناء الصيف أو من قسوة البرد القاري أثناء الشتاء. كما كان على المارة في هذه الأزقة المسقفة أن يعرفوا انعراجاتها والتواءاتها وتفرعاتها وإلا ضرب الواحد منهم رأسه على هذا الجدار أو ذاك وتاه تيهاً لا مخرج منه. وأكثر من ذلك فإن على المار في هذه الأزقة أن يكون عارفاً بـ «قوانين المرور» الخاصة بها حتى لا يصطدم مع غيره ممن يأتي في اتجاهه. إن عليه أن يفتح أذنيه جيداً ويعبئهما لالتقاط الحركة، أي حركة، ويميز بين حركة من يمشي خلفه وحركة من يمشي أمامه، في نفس الاتجاه أو في الاتجاه المعاكس. ثم إن عليه أن يعلن عن «وجوده» من حين لآخر إما بـ «حنحنة» وإما بترديد عبارات مألوفة مثل «استغفر الله» أو التمتمة بما يشبه قراءة القرآن. . ولا بد من أن نضيف هنا عنصراً آخر، يستحضره الأطفال والنساء خاصة، وهو أن المرور عبر هذه الأزقة المسقفة المظلمة يتطلب نوعاً من الخشوع ونوعاً من «الأدب» لأنها كانت مسكونة بـ «المسلمين» (الجن) وبالتالي لا ينبغي إزعاجهم ولا إساءة الأدب معهم.

كان منزل أخوال صاحبنا يقع في حي وسط المدينة (قصر زناكة)، بجوار المسجد الكبير كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل. أما منزل أهله لأبيه فكان في حي «أورتان» بمنطقة «أدريت» في الجانب الآخر في طرف المدينة. وقريباً منه، في اتجاه البساتين، كان منزل الحاج محمد فرج، فكانت الطريق التي يسلكها هذا الأخير عند ذهابه إلى المسجد الجامع ليؤم بالناس الصلوات الخمس هي نفس الطريق التي كان يسلكها صاحبنا في تنقلاته بين منزل أخواله ومنزل أبيه. إنها من نوع تلك الأزقة المسقفة المظلمة التي تحدثنا عنها. ولم يكن هناك طريق أخرى مفتوحة على السماء سوى الطريق الخارجية التي تمر على أطراف المدينة. . وكانت طويلة.

إن صاحبنا يتذكر جيداً ذلك «اللقاء» الأول الذي جمعه داخل هذه الأزقة المسقفة مع الحاج محمد فرج. فلقد غادر ذات صباح بيت أهله لأبيه قاصداً المسجد الكبير لأداء صلاة الصبح وليلتحق بعد ذلك بالمسيد لمراجعة القرآن. وما إن خرج من زقاق منزله ليدخل الزقاق الرئيسي حتى وجد نفسه وراء الحاج محمد، الذي كان هو الآخر ذاهباً إلى المسجد ليؤم بالناس صلاة الصبح. كان الحاج محمد طويلاً في غير إفراط، يرتدي في العادة برنساً أبيض يلقي بجناحه الأيمن على كتفه الأيسر،

ثانياً قلنسوته على رأسه.. كان يمشي، وهو يقرأ القرآن، بخطوات ثابتة متئدة.

ولشد ما كانت فرحة صاحبنا حين وجد نفسه ذلك الصباح الباكر وهو يمشي خلف هذا الرجل الذي كان نادراً ما يُرى خارج المسجد، والذي كانت صورته في الأذهان ـ أذهان الأطفال على الأقل ـ صورة ملاك. ومعلوم أن الأطفال لا يتصورون الأمور إلا مجسمة مشخصة. ويستطيع صاحبنا أن يؤكد أنه كان إذا سمع الناس يتحدثون عن الملائكة يتخيلها جميعاً على صورة واحدة هي صورة الحاج محمد ببُرْنُسه الأبيض وقوامه المستقيم وخطاه الثابتة وصمته الهادىء الذي يملأ النفس اطمئناناً. كاد صاحبنا يطير فرحاً وهو يمشي خلف هذا الرجل/ الملاك. ويستطيع الآن أن يجزم أنه، على الرغم من أن طفولته كانت خالية تماماً من المتاعب والمخاوف، لم يعش الطمأنينة بين جوانحه ولم يشعر بها تحيط به من كل جانب مثلما حصل له ذلك الصباح. وهل هناك من طمأنينة أعمق وأشمل من تلك التي يشعر بها الإنسان وهو يمشي وراء ملاك، وراء شخص تجمع النساء على القول إن «الجن» تنسحب من الأزقة التي يمر بها لتخلي له الطريق، وذلك بمجرد ما يفتح باب داره للخروج. يتذكر صاحبنا أن جدته من أمه حدثته يوماً حديثاً لا يذكر منه شيئاً سوى هذه العبارة: «إن من يرى النبي في منامه تفتح له الملائكة أبواب الجنة ليدخلها دون حساب ولا عقاب». ويتذكر صاحبنا أنه رأى في المنام، ليلة اليوم التالي، النبي (ص) على صورة شمس ناصعة البياض وبجانبه الحاج محمد بلباسه الأبيض على نفس الهيئة التي يكون عليها عندما يخطب في الناس خطبة الجمعة.

تلك هي صورة الحاج محمد كما احتفظت بها ذاكرة صاحبنا، عندما كان عمره لا يتجاوز تسع سنوات. وهناك ذكريات أخرى سمعية هذه المرة، تتردد فيها أصداء خصوم هذا الرجل في ذلك الوقت. إن صاحبنا ما زال يتذكر أنه بينما كان يلعب كعادته أمام أمه التي كانت منهمكة هي وجارتان لها في نسج بُرنس على منوال خشبي، فإذا بسمعه يلتقط هذه العبارة من حديث إحدى تلك النسوة: «إنه عقاب الأولياء»، معلقة بذلك على حادث انهيار سقف المسجد الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول. وكان الحاج محمد قد أمر، قبل ذلك الحادث، بهدم ضريح كان بجانب المسجد بهدف توسيع هذا الأخير. ولولا احترام الناس له وتقديرهم لعلمه وفضله لما قبلوا منه ذلك على الرغم من كل الدروس والأحاديث والخطب التي كان يندد فيها بزيارة الأضرحة والتماس العون من الأولياء. لقد كان يقول ويكرر القول إن ذلك ليس من الدين في شيء، بل هو بمثابة الشرك. وكان هذا الكلام يتناقض تماماً مع

ما كان عليه تصور الناس للدين يومئذ، وبالتالي مع سلوكهم الديني ذاته. لقد أحدثت هذه الأقوال زعزعة، بل انقلاباً، في أذهان الناس فكان منهم المؤيد المتحمس وكان منهم المستنكر المتحفظ.

ويتذكر صاحبنا أنه سمع ذات يوم جده لأمه ـ الذي كان محافظاً ـ يحكي كلاماً يرويه عن «عالم» منافس للحاج محمد يقول فيه إن دعوة هذا الأخير دعوة «وهابية». كان هذا العالم من الجيل القديم، وإليه يعزى تأسيس جماعة «الدليل» (قراء دليل الخبرات)، وكان يحظى بتقدير واحترام جد صاحبنا الذي كان من «أصحاب الدليل». ولم يكن هؤلاء متحمسين للحاج محمد فرج أو لآرائه السلفية النهضوية التي كانت تنتشر بسرعة، يستجيب لها الكهول والشباب مما قلص بسرعة من مكانة «أصحاب الدليل» الذين انتهى أمرهم إلى التوقف وإغلاق مقرهم.

ومن المؤاخذات التي كان يسجلها وينشرها ضده أمثال هؤلاء «المحافظين» كونه يخطب خطبة الجمعة بدون ورقة، وأنه لم يكن يحفظ القرآن كـ «الماء» إذ قد يحدث له ألا يستحضر الآيات بكاملها وهو يخطب يوم الجمعة فيكمل له بعض المستمعين، وكان هناك من يقول عنه إنه «يدخل ويخرج في الكلام» ويخلط أمور الدنيا بأمور الدين (= كان التقليد السائد أن تخصص خطبة الجمعة كلها للحديث عن الآخرة والاستعداد لها، بينما كان الحاج محمد يخصص القسم الأكبر منها لشؤون الإصلاح والنهضة)... غير أن هذه الانتقادات لم تكن تؤثر في شعبية الحاج محمد ولا في ثقة الناس به، خصوصاً وقد كانت السلطات الفرنسية تطلب منه أن يكتب خطبة الجمعة (حتى تتمكن من فرض رقابتها) ولكنه كان يرفض الرضوخ لهذا الطلب فيأتي دوماً إلى المنبر فارغ اليدين ليخاطب الناس مباشرة بكل جوارحه، بلسانه وبصره ويديه.

ومع أن صاحبنا لم يكن يستوعب تمام الاستيعاب معنى طلب السلطات الفرنسية من الحاج محمد كتابة خطبة الجمعة، عندما سمع الناس يتحدثون بذلك، ومع أنه كان يثق ثقة تامة في كل ما يقوله جده لأمه الذي يُعزّه ويجله، فإنه لم يتأثر قط بما سمعه من انتقادات في حق الحاج محمد. لقد كانت صورة هذا الأخير في مخيلة صاحبنا من تلك الصور الذهنية الثابتة التي لا تقبل الخدش ولا ينال منها التشويش.

هذه الصورة التي احتفظت بها ذاكرة صاحبنا تجد مصداقيتها لديه فيما ترامى إلى سمعه لاحقاً من أخبار وشهادات صادرة من رفاق الحاج محمد الذين عملوا معه

وعاشروه عن قرب. ويمكن تلخيص هذه المعلومات والأخبار في العبارات التالية:

كان الحاج محمد فرج من رجالات السلفية النهضوية بالمغرب، الذين مارسوا الوطنية والتحديث في الدين وباسم الدين، فجمعوا بين الإصلاح الديني والكفاح الوطني والتحديث الاجتماعي والثقافي في عملية واحدة. ولد الحاج محمد فرج في قصر زناكة بفجيج من عائلة متواضعة، ولكنها محترمة. وبعد أن حفظ القرآن ودرس «العلم» (بعض متون الفقه والنحو...) على قاضي فجيج يومئذ سافر إلى فاس حيث قضى سنة ونيف في القرويين عاد بعدها ليتولى منصب القضاء في فجيج، ثم ترك هذا المنصب وقصد مدينة «مشرية» بالجزائر، وهناك ربط علاقات برجال السلفية النهضوية الجزائرية المنضوين تحت لواء «جمعية العلماء الجزائريين المسلمين» التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس. وعندما أخذت السلطات الفرنسية هناك تمعن في مضايقته عاد إلى فجيج فنصّبه أهلها إماماً على مسجد زناكة الجامع، فكان يؤم بالناس الصلوات الخمس ويصلي بهم الجمعة ويدرس كل يوم بعد العصر الحديث والفقه والنحو والتفسير، وكان صاحبنا من الأطفال المواظبين على حضور دروسه بالمسجد بعد صلاة العصر وعمرهم يومئذ لا يتجاوز العاشرة. وكان يفسح لهم المجال في مجلسه على جانبه الأيمن في الغالب. أما وسط الصفوف الأولى فكان مخصصاً لمجموعة من حفظة القرآن من الشباب الذين كانوا يحضرون دروسه بانتظام، يتناوبون على قراءة المتن الذي يشرحه، ومن بين هؤلاء سيختار المعلمين لمدرسة النهضة المحمدية التي أنشأها.

وفي أثناء ذلك كان الحاج محمد يتردد على فاس حيث كانت له علاقات متينة مع شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، أبي الوطنية والسلفية النهضوية الحديثة بالمغرب. ومن اتصاله بالوطنيين، رجال حزب الاستقلال يومئذ (١٩٤٦) كانت فكرة فتح مدرسة وطنية حرة بفجيج. وبالفعل حصل على رخصة من وزارة المعارف في حكومة المخزن لفتح مدرسة باسم «مدرسة النهضة المحمدية» (نسبة إلى الملك محمد بن يوسف = محمد الخامس، ملك المغرب يومئذ).

كانت مدرسة النهضة المحمدية بفجيج، إذن، إحدى تلك المدارس التي أنشأتها الحركة الوطنية في مختلف جهات المغرب: مدارس حرة، بمعنى أنها لا تخضع للسلطات الفرنسية ولا تطبق برامجها، بل يشرف عليها رجال الحركة الوطنية. كانت هذه المدارس تتبع رسمياً (بل اسمياً فقط) وزارة المعارف في «حكومة» المخزن، التي لم تترك لها الحماية الفرنسية سوى الإشراف على الأوقاف والتعليم الديني (= القرويين

وفروعها) فكانت هذه المدارس الحرة العربية ملحقة بالتعليم الديني بوصفه تعليماً وطنياً محلياً. غير أن الحركة الوطنية جعلت منها مدارس عصرية معربة في أفق أن تصبح البديل الوطني العصري للتعليم الفرنسي بالمغرب.

ـ ٢ ـ

بدأ صاحبنا دراسته، كما ذكرنا، في المسيد أولاً، ثم قضى نحواً من سنتين في مدرسة رسمية فرنسية، ثم التحق بمدرسة النهضة المحمدية بمجرد أن فتحت أبوابها. وكان والده من بين أعضاء «لجنة الأربعين» التي كانت مكلفة بالسهر على بنائها، وكانوا من رجال الحركة الوطنية في البلد، أعني البارزين منهم المرافقين والملازمين للحاج محمد.

فتحت المدرسة أبوابها بمجرد ما حصل الحاج محمد على رخصة من الرباط، قبل اكتمال بناء حجراتها. لقد بدأت تعمل مؤقتاً في «دار الجماعة» التي كانت تتألف من صحن وعدة غرف، مع الاستعانة بغرف مسيد مجاور، وذلك في انتظار الانتهاء من تشييد بناية المدرسة. والحق أن فتح هذه المدرسة كان فتحاً جديداً في حياة هذا البلد، فتحاً أحدث انقلاباً، ليس فقط في نظام التعليم وطرقه ومناهجه، بل أيضاً في عقول الآباء والأمهات. لقد كانت وسيلة لنقل «الوطنية» ـ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان سياسية واجتماعية وثقافية ـ إلى الأسر والبيوت. كان الآباء فخورين بكون أبنائهم يتعلمون العلوم العصرية باللغة العربية وعلى أيدي رجال وطنيين، آملين، بل متأكدين بأن أبناءهم سيصبحون، حينما يكبرون، «رجال المستقبل» بكل ما تنطوي عليه هذه العبارة من معان، وفي مقدمتها امتلاك السلطة. على أن ما يثير الانتباه بصورة خاصة في هذا المجال هو أن الآباء الفجيجيين المعروفين بسلوكهم المحافظ سمحوا لبناتهم بالالتحاق بهذه المدرسة، حيث بدأن يدرسن مع البنين في أقسام مشتركة وبدون حجاب، وكن يتقدمن التلاميذ الذين يصطفون مثنى مثنى لقراءة الأناشيد الوطنية جهراً كل صباح قبل دخولهم إلى أقسامهم.

لقد قبل الآباء هذا التطور ما دام الحاج محمد الذي يثقون فيه ويكبرون نضاله وتضحياته هو المشرف والقائد لهذه المستجدات. أما النساء فلعل ما كان يشد انتباههن ويثير تعجبهن هو استغناء الأطفال في المدرسة عن الألواح الخشبية

واستعمال الورق والدفاتر والكتب. وكانت كتب القراءة أكثر إثارة للاستغراب لما كانت تشتمل عليه من صور توضيحية، خاصة صور الحيوانات. إن صاحبنا يتذكر جيداً كيف كانت جدته لأبيه تتعجب مما كانت تراه في تلك الكتب من صور وما كانت تسمعه من مضامين نصوصها. كانت تقول لحفيدها، مستغربة ومازحة في الوقت نفسه: «سبحان الله.. لقد اعتدنا أن يقرأ الناس العلم، وأنتم تقرأون حكايات القطة والفأر والذئب والثعلب.. إنها والله لعلامة من علامات قيام الساعة». أما أصحاب الكتاتيب القرآنية فقد كانت ردود فعلهم السلبية أكثر جدية وأشد استنكاراً. والواقع أنه قامت قيامتهم فعلاً عند افتتاح المدرسة، فلقد تركهم الأطفال وحدهم في مسايدهم إلا ما كان من أفراد يعدون بالأصابع. وكان أبلغ تعبير عن هذا الانقلاب الذي حصل في نظام التعليم ومضمونه بالبلد ما علق به المرحوم «السي محمد خلوف» عميد أصحاب المسايد آنذاك، وصاحب المسيد المجاور للمسجد الكبير إذ قال واصفاً حال مسيده بعد أن تركه التحاق الأطفال بالمدرسة الجديدة شبه فارغ: «لقد رُفع القرآن يوم فتحت هذه المدرسة».

ولم تكن العجائز وأصحاب الكتاتيب القرآنية هم وحدهم الذين لم يستسيغوا «المدرسة» وما يدرس فيها. لقد كان هناك «أصحاب الجماعة» أنفسهم أولئك الذين كانوا على علاقة بالسلطات الفرنسية في البلد مما جعل منهم خصوماً سياسيين للحاج محمد ورفاقه الوطنيين. كان من بين أفراد تلك «الجماعة» من كان يتعامل مع سلطات الحماية، جواسيس ومخبرين، ينقلون إليها أخبار الوطنيين. وقد أطلق عليهم الحاج محمد وأصحابه اسم «المنافقين»، تشبيهاً لهم بـ «المنافقين» الذين ورد ذكرهم في القرآن والذين كانوا بـ «المدينة» أيام بعثة الرسول (ﷺ) يظهرون الإسلام ويبطنون غيره ويكيدون للمسلمين، هم وحلفاؤهم من خصوم الدعوة المحمدية. ولما كان نشاط الوطنيين في تلك الفترة مركزاً كله حول تشييد البناية الجديدة للمدرسة فقد تجندت السلطة الفرنسية وحلفاؤها «المنافقون» لوضع العراقيل أمام هذا المشروع. غير أن جهودهم باءت بالفشل أمام تضامن السكان واشتراكهم الجماعي والتطوعي في العمل والبناء ليل نهار، يتقدمهم الحاج محمد فرج الذي كان يساهم بنفسه في الأشغال: يعجن الطوب ويحمل الأحجار... الخ.

وهكذا لم يمض سوى عام أو نحوه حتى استقبلت المدرسة تلاميذها في بنايتها الجديدة. ولم تمض سوى سنتين حتى تخرج فيها (سنة ١٩٤٩) أول فوج يحمل الشهادة الابتدائية، وكان من بينهم صاحبنا. وقد عينت «وزارة المعارف» في حكومة

المخزن ـ وبتنسيق مع قادة الحركة الوطنية بدون شك ـ لجنة لإجراء امتحانات هذه الشهادة في هذه المدينة النائية، لجنة تتألف من السادة الأساتذة: مولاي مصطفى العلوي الذي كان مدير المدرسة الوطنية بمكناس، ومحمد العربي الأسفي الذي كان يعمل معه أستاذاً في نفس المدرسة، ومحمد التسولي مدير المدرسة الوطنية الحرة ببركنت (عين بني مطهر جنوب وجدة) وبلحسيني العلوي مدير المدرسة الوطنية الحرة بآزرو. وكان هؤلاء جميعاً من رجالات الحركة الوطنية البارزين، ويدل مجيئهم إلى فجيج، كأعضاء في لجنة الشهادة الابتدائية مكلفين بتصحيح الأوراق وإعلان النتيجة، على المكانة التي كانت للحاج محمد فرج في قلب الحركة الوطنية المغربية، كما يدل على الأهمية التي كانت توليها هذه الحركة لمدينة فجيج المعروفة بنضالها ضد الاستعمار الفرنسي الذي حاول اقتحامها مراراً ـ من الجزائر ـ قبل فرض حمايته على المغرب، فلم يستطع.

ذلك عن الانقلاب الذي أحدثه الحاج محمد في فجيج بتشييده لهذه المدرسة. غير أن صورة هذا الانقلاب كما عرضناها ستبقى ناقصة إذا لم نتحدث عن ذلك التحول الذي كان يجري داخل المدرسة نفسها، في أشخاص معلميها وتلامذتها. لقد تحدثنا عن الحاج محمد وتكوينه العلمي فأشرنا إلى دراسته على قاضي فجيج أولاً ثم قضائه سنة أو سنتين بالقرويين بفاس. غير أن الدراسة على فقيه أو في معهد علمي كالقرويين ليست هي التي كونت الشخصية العلمية لهذا الرجل، فالواقع أنه كون نفسه بنفسه: لقد كان عصامياً بكل ما في الكلمة من معنى. كان لا يغادر المنزل إلا إلى المسجد للصلاة أو التدريس، أما ما بين ذلك من أوقات، وحتى ساعة متأخرة من الليل، فقد استغرقته مطالعاته التي وسع نطاقها بعد افتتاح المدرسة وأصبحت تشمل التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والحساب، فضلاً عن النحو والفقه والتفسير والحديث والبلاغة. لقد كان عالماً علَّم نفسه، متفتح الذهن، حداثياً في تفكيره وسلوكه إلى درجة تثير الإعجاب والاستغراب معاً. لقد بدأ إماماً محدثاً في مسجد فانتهى إلى رجل تحديث وحداثة دون أن يشعر بتناقض في شخصيته.

وبما أنه كان إماماً ومديراً لمدرسة فقد كان قدوة في المجالين كليهما، مجال الحياة العامة ومجال الحياة المدرسية. ففي المجال الأول استطاع أن يؤثر في الناس، رجالاً ونساء، فتخلوا عن معتقداتهم المرتبطة بالطرقية وسلوكياتها وفي الاعتقاد في الخرافات والجن، وغدا التفسير العلمي الموضوعي للظواهر ينتشر ويتعمم، وتحرر الدين والشعائر الدينية من البدع والطقوس التي ليست من جوهره ولا من سننه.

وامتدت آثار هذا التحديث إلى المرأة التي كان محكوماً عليها بالأمية المطلقة، إذ لم يكن هناك من قبل أي مجال لتعليمها، فالكتاتيب القرآنية كانت مسدودة في وجهها. وأكثر من ذلك نظم الحاج محمد برنامجاً لمحاربة الأمية في صفوف الكبار، فكان ذلك نوعاً من الانقلاب على صعيد المجتمع كله: لقد كانت «مجامع» القيل والقال هي مجال اللقاء الوحيد ـ تقريباً ـ بين الرجال، وها هي دروس «محاربة الأمية» تزاحمها، بل وتحاربها، بالدفتر والقلم... وأكثر من ذلك وأهم أصبحت الجرائد الوطنية التي كان الحاج محمد يستوردها خفية من الرباط (جريدة **العلم** خاصة) ومن الجزائر (جريدة **البصائر**) وسائل لتكوين مزدوج: تكوين تعليمي وتكوين وطني. لقد كان الكبار يتعلمون مبادىء القراءة والكتابة في دروس محو الأمية ويتعلمون المطالعة والفهم في الجرائد الوطنية. وكاتب هذه السطور ما زال يتذكر جيداً كيف أن والده، الذي كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، قد صار مُدمناً على قراءة الجرائد الوطنية، يفهم ما بين السطور قبل ما تقوله السطور، دون أن يعرف قاعدة نحوية بله أن يطبقها. كان هو وأمثاله يقرأون الجرائد قراءة «لانحوية»، ومع ذلك لم يكونوا يخطئون في فهم المعنى لأن قراءتهم كانت قراءة «وطنية» لجرائد وطنية. إن عصامية الحاج محمد قد أثمرت عصاميات أخرى في صفوف صحابته من رجال الحركة الوطنية.

على أن عصامية معلمي المدرسة كانت، بحق، نادرة المثال. كان الشباب الذين تولوا التدريس في مدرسة النهضة المحمدية ـ وبعضهم كان كهلاً ـ من أولئك الذين كانوا يداومون الحضور إلى دروس الحاج محمد بالمسجد: حفظوا القرآن، كلاً أو بعضاً، ودرسوا بعض المتون أو أجزاء منها، مثل الآجرومية وابن عاشر وألفية ابن مالك ومختصر خليل... وعند افتتاح المدرسة نظم لهم الحاج محمد دروساً خاصة (تكوين المكونين). لقد كانت شخصية هذا الرجل ذات أثر عميق في نفوسهم وسلوكهم في مختلف المجالات، وفي مجال «العصامية» خاصة. كانوا يدرسون ليلاً ما سيُدرِّسون لتلامذتهم نهاراً. عتادهم بضع نسخ من كتب، بعضها مستنسخ باليد، ونسخة واحدة من قاموس **المنجد** يتداولونها بالتناوب. كانوا جميعاً، عند افتتاح المدرسة، دون مستوى الشهادة الابتدائية، ولكنهم، مع التدريس، فاقوا هذا المستوى. وقد برهنوا على ذلك عندما حصل تلامذتهم على تلك الشهادة بجدارة واقتدار بشهادة لجنة من العلماء، منهم من كان يحمل أعلى شهادة علمية في ذلك الوقت: «شهادة العالمية» من جامعة القرويين.

ولم يكن أولئك المعلمون مجرد مدرسين لـ «العلم» بل كانوا يغرسون في تلامذتهم أثناء التدريس الروح الوطنية المغربية ويجعلون أسماء زعمائها حاضرة، بتلقائية أو بتخطيط، ليس في دروس التاريخ والتربية الوطنية وحسب، بل وفي الدروس الأخرى أيضاً، كالنحو مثلاً. وإن صاحبنا ليذكر جيداً أن المعلم الذي كان يدرسهم النحو في الثالث الابتدائي قال لهم بالأمازيغية وهو يشرح إعراب الفاعل:

«إذا سألكم أحد كيف يعرب الفاعل فقولوا دائماً الفاعل مرفوع، حتى ولو كان الذي يسألكم هو الزعيم علال الفاسي». وكان ذكر علال الفاسي ينطوي على معنى، ويذكر صاحبنا جيداً أنه هو وزملاءه فهموا ذلك المعنى في حينه، وكان منهم من تبسَّمْ... أما مدرس المحفوظات والنصوص الأدبية فلم يكن يكتفي باختيار القصائد ذات النزعة الوطنية بل لقد اكتسب القدرة على قرض الشعر وكان يقرأ على التلاميذ بعض القصائد التي كان ينظمها في المناسبات الوطنية. وقد استطاع هذا العصامي، على طريقة الحاج محمد، أن يرتقي بنفسه ليصبح أستاذاً للغة والأدب في المدارس الثانوية بالدار البيضاء، بعد أن اجتاز بنجاح مختلف الامتحانات التأهيلية الضرورية.

وإلى جانب ذلك كله كان هؤلاء المعلمون العصاميون، الذين لم يعرفوا في حياتهم سوى المسيد وحلقة المسجد، يبذلون قصارى جهدهم في التزام النظام في تدريسهم والتقيد ببرنامج الدروس وعناصرها كما هي مسطرة في تعليمات وزارة المعارف، وذلك إلى درجة «الزائد على الحد» أحياناً. وفي هذا الصدد يذكر صاحبنا أن مدرس الإنشاء، في الرابع الابتدائي، كان يحرص على تتبع البرنامج المقرر تتبعاً حرفياً كما هو موزع، على الأسابيع والشهور، على ورقة معلقة على الجدار قريباً من مكتب الأستاذ. ففي أول حصة للإنشاء كان الموضوع المقرر للواجب الأسبوعي هو: القلم. فطلب المعلم من التلاميذ أن يكتبوا إنشاء بعنوان «القلم» ففعلوا. وفي الأسبوع الموالي طلب منهم أن يكتبوا موضوعاً بعنوان: «لونه»، وفي الذي يليه كان الموضوع المطلوب: «طوله». وبطبيعة الحال احتار التلاميذ وتخبطوا وشكوا حالهم إلى الأستاذ الذي أكد لهم أن ذلك مكتوب في البرنامج. وبعد أخذ ورد تبين لهم وللأستاذ أن الأمر يتعلق بموضوع واحد هو «القلم»، وأن ما هو منصوص عليه بعده بين قوسين هو عناصره المطلوب التركيز عليها. ومنذ ذلك الوقت استقام درس الإنشاء، وتعلم التلاميذ وتعلم الأستاذ كيف يميزون في البرنامج المقرر بين الموضوع وعناصره.

أما معلم الحساب فقد كان يتميز بوداعة وتفان نادري المثال. لقد كان من قصر «الوداغير»، فكان عليه أن يقطع على رجليه، رغم ضعف بنيته، عدة كيلومترات كل يوم، تقريباً، قبل أن يصل إلى المدرسة. لقد درس في المدارس الفرنسية وحصل على الشهادة الابتدائية ثم درس في القسم التكميلي، ثم «تخصص» في تدريس الحساب في مدرسة النهضة المحمدية. كان يشرح القواعد بالعربية والأمازيغية ويدرب التلاميذ على بعض التطبيقات على السبورة ثم يملي عليهم عدداً هائلاً من التمارين كان يترجمها ترجمة فورية من الفرنسية. وكان الوقت الذي تستغرقه الترجمة والإملاء كافياً لصاحبنا ولآخرين لحل التمارين والمسائل الحسابية بمجرد انتهاء الأستاذ من إملائها فينوه بهم ويملي عليهم تمارين إضافية.

ولم يكن مدرس الفرنسية بأقل من زملائه في التفاني في أداء مهمته. لقد كان شديد الحرص إلى درجة الهوس على تعليم النطق السليم للتلاميذ، يُعنَى عناية خاصة بأداء الحرف والمقطع والكلمة أداء سليماً فصيحاً. وكان يبذل في ذلك وقتاً ومجهوداً مع بعض التلاميذ الذين لم يكونوا قد تدربوا على تعديل مخارج الحروف التي اعتادوا عليها بالأمازيغية، وقتاً ومجهوداً لا يقدر على بذلهما إلا من رزق صبر أيوب. وبالفعل، كان هذا الرجل صبوراً وديعاً، بريئاً براءة الأطفال. وقد انتهت به الأقدار إلى أن التحق بعمالة الدار البيضاء خطاطاً في قسم جوازات السفر حيث قضى نحو ربع قرن راضياً بمرتب زهيد، مستور الحال، طيب السريرة عزيز النفس.

أما الحاج محمد فرج مدير المدرسة فكان يدرس التاريخ والجغرافيا والبلاغة لقسم الشهادة وللقسم التكميلي الذي أنشأه بعدها، وكانت له قدرة فائقة على التبليغ، يستعمل وسائل البيان والإيضاح الكلامية منها والحسية المادية. ولا يزال صاحبنا يذكر كيف أن بعض التلاميذ لم يستوعبوا درس الجغرافيا، الذي كان حول النظام الشمسي وتعاقب الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول الشمس، إذ عسر عليهم فهم كيف أن تعاقب الليل والنهار يرجع إلى دوران الأرض حول الشمس وليس العكس، أي خلافاً لما تدل عليه المشاهدة العامية ولما اعتاد الناس اعتقاده، فما كان من الحاج محمد إلا أن أوقف الدرس وبعث تلميذاً لإحضار خذروف ومصباح يعمل بالبطارية. ولما أحضر التلميذ ما طلب منه دعا الحاج محمد التلاميذ إلى الدرس من جديد وأغلق باب حجرة الدرس ونوافذها ودعاهم ليتَحلَّقوا حوله، فقذف الخذروف بخيط على الأرض، فأخذت تدور، ثم سلط عليها ضوء المصباح عبر قناة من قصب، فارتسم الضوء على جانب الخذروف المقابل للمصباح وبقي الجانب

الآخر مظلماً، فكان ذلك أبلغ بيان لهذه الظاهرة الطبيعية، ظاهرة تعاقب الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول الشمس. أما القسم التكميلي فقد كان الحاج محمد يتولى تدريسه البلاغة والألفية ومختصر خليل ونصوصاً أخرى، هذا إلى جانب عمله كمدير للمدرسة وعميد للحركة الوطنية في المدينة.

كان هناك إلى جانب المعلمين الذين أشرنا إليهم معلم آخر كان يأتي من مدينة وجدة، بين آونة وأخرى. كان من طلاب القرويين وعلى معرفة بالشعر والأدب. وكان «عصرياً» في هندامه وسلوكه وقد شد التلاميذ إليه بطريقته في الإلقاء والقراءة: إلقاء الدرس وقراءة الشعر. ثم استقدم الحاج محمد أستاذاً آخر من خريجي القرويين، وكان أديباً شاعراً درّس للتلاميذ في قسم الشهادة والقسم التكميلي «عيون» الشعر العربي، من معلقات شعراء الجاهلية إلى قصائد للمتنبي... وشوقي... وكان هو الآخر «عصرياً» في إلقائه وطريقة شرحه للنصوص. وقد مكث سنوات في فجيج ساهم خلالها في تكوين الأجيال الأولى من التلاميذ فيها، في اللغة والأدب العربي بخاصة.

ومن الشخصيات التي زارت المدرسة وتركت انطباعاً خاصاً لدى تلامذتها الأستاذ أحمد بنسودة، الذي كان يومذاك أحد العناصر القيادية في حزب الشورى والاستقلال، المنافس لحزب الاستقلال. إن صاحبنا لا يزال يتذكر هو وزملاؤه كيف دخل عليهم ذات صباح في زي عصري بدون طربوش. كان رشيق القوام رخيم الصوت وقد وجد التلاميذ في حصة التلاوة وكانوا يقرأون بلهجتهم «القروية» ولم يكونوا قد اعتادوا قبل ذلك اللهجة «الحضرية». أخذ الأستاذ أحمد بنسودة مكان المعلم وطفق يدرب التلاميذ على القراءة «العصرية» للنصوص، بما تتميز به من تغيير وتيرة الإصاتة بحسب المعنى. وكان أكثر ما شد انتباه التلاميذ طريقته في نطق حرف الراء (ممزوجة بالغين على طريقة أهل فاس)، ولا زال صاحبنا يتذكر كيف أن التلاميذ بقوا لعدة أيام يحاولون تقليد طريقة نطقه لكلمة «فراشة» التي تكررت في الدرس مراراً. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي استمعوا فيها إلى هذا النوع من النطق بحرف «الراء». وقد حاول أحدهم تقليد الأستاذ أحمد بنسودة فنطق الراء غيناً كاملة واضحة فصارت الفراشة المسكينة «فغاشة»، وتحمل التلميذ وزر هذا التقليد لبعض الوقت، إذ صار زملاؤه ينادونه بهذا الاسم الغريب. أما طريقته في النطق بالجملة التعجبية والاستفهامية فذلك ما لم يستطع التلاميذ تقليد هذا الزعيم الوطني فيها...

- ٣ -

تحدثنا عن عصامية مدير المدرسة ومعلميها في مجال التحصيل والتدريس. غير أن الصورة ستبقى ناقصة إذا نحن لم نشر إلى أنه كان على هؤلاء المعلمين أن يواصلوا «العمل» الذي كان يتطلبه العيش آنذاك في تلك الواحة، والذي كانوا يقومون به قبل افتتاح المدرسة وبعده، مثلهم في ذلك مثل جميع الرجال، شباباً وكهولاً - وشيوخاً أحياناً - لتحصيل لقمة العيش. ذلك أن هؤلاء المعلمين كانوا يعملون في المدرسة متطوعين إلا ما كان من دريهمات رمزية يمدهم بها الحاج محمد مما كانت لجنة الأربعين تجمعه من تبرعات محدودة جداً. أما التلاميذ فلم يكونوا يؤدون أية رسوم أو واجبات.

كان اقتصاد المدينة يقوم على نوع من الاكتفاء الذاتي في المواد الغذائية الأساسية. كان لكل أسرة بستان واحد أو أكثر في ضواحي المدينة، تتراوح مساحة الواحد ما بين ٥٠٠ متر مربع و٤٠٠٠ متر مربع كحد أقصى. كانت هذه البساتين تزرع قمحاً وشعيراً وبرسيماً للحيوانات مع مساحة للخضر المستهلكة منزلياً، وعلى جوانب البستان أصناف من النخيل المثمر. لم يكن أهل البلد يستعملون الحيوانات في الحرث، بل كانوا يقلبون الأرض بأيديهم بواسطة المناقيش وبطريقة تعاونية (اليوم يحرث الرجل وأصدقاؤه وجيرانه في بستان أحدهم وغداً أو بعد غد ينتقلون إلى بستان غيره). كانت الغراسة في هذه البساتين تتطلب عناية خاصة: سقي المزروعات دورياً، من ماء تزادرت المرتفع الثمن، وبالتالي السقي بمقدار والحرص الشديد على تجنب ضياع الماء، كما كان لا بد من تتبع الأعشاب الضارة وانتزاعها من جذورها وإطعام الحيوانات بها وكان لا بد من تغذية المزروعات بالسماد، ولم يكن هناك فوسفات أو ما يشبه الفوسفات وإنما هو روث الحيوانات المنزلية وما تجمع في المراحيض...

وإضافة إلى أشغال البستنة هذه كان لا بد من الاحتطاب من حين لآخر من الوديان ومواطن العرعار والدفلى في البادية، إذ لم يكن الحطب الذي يجمع من نخيل البساتين يكفي. كان الوقود المستعمل في المنزل صباح مساء هو الحطب، ولا شيء غير الحطب. فكان على الشباب إذن أن يحتطب مرة أو مرتين في الشهر من أماكن بعيدة: يخرجون في مجموعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مع منتصف الليل أو بعده بقليل، راكبين دوابهم (الحمير والبغال أساساً) ليعودوا في المساء مع غروب

الشمس وقد حمّلوا دوابهم من الحطب المصفوف والمشدود بالحبال ما تقدر على حمله. وكان الحطب يخزن لفصل الشتاء خاصة، حين يكون الاحتطاب صعباً وشاقاً بسبب البرد القارس الذي تعرفه الصحراء في هذا الفصل. وإلى جانب أشغال البستنة والاحتطاب كانت هناك أشغال موسمية تتطلب مغالبة الزمن فيها، مثل الحصاد ودرس الحبوب وجني غلة التمر، وهي أشغال تتطلب تعاون شبان الحي ورجاله، يوم مع هذا ويوم مع ذاك. لم تكن هناك آلات، بل كانت جميع الأعمال تتم يدوياً فكان لا بد من التعاون والتكافل.

كانت الأشغال التي ذكرنا واجبة على كل فرد صغيراً كان أو كبيراً. وكان معظمها يتم في الصباح الباكر مما يترك الوقت لمن هم في حاجة إليه. ولم يكن معلمو المدرسة وحدهم يقومون بنصيبهم من هذه الأعمال، بل لقد كان على تلاميذهم أيضاً أن يساهموا فيها بنصيب، خاصة في ساعات الفراغ وأيام العطل. والمساهمة في «الإنتاج» كل حسب طاقته، كانت واجباً على الفرد منذ نعومة أظفاره: الولد مع أبيه أو اخوته يعمل في البستان ويحتطب الخ. . . والبنت في البيت مع أمها تغزل أو تجلب الماء من السواقي وتساهم في إعداد الطعام.

كان صاحبنا وزملاؤه، تلاميذ الفوج الأول، من «الشباب المخضرم» الذي مارس الأعمال المذكورة كلها ـ بدون استثناء ـ خلال مرحلة المسيد ومرحلة المدرسة. كان الواحد منهم، بمقدار ما يكبر في جسمه وسنه، تكبر الأعمال التي كان عليه أن يقوم بها مساهمة في «الإنتاج» وتحقيق الاكتفاء الذاتي للعائلة. كان صاحبنا، زمن طفولته الأولى، يرافق جده لأمه إلى البستان مرافقة «سياحية»، إذ لم يكن يطلب منه القيام بشيء ذي بال لصغر سنه، ولكن ما إن انتقل إلى منزل أهله من أبيه في السابعة من عمره حتى بدأ يرافق جده أو عمه إلى البستان للمساهمة في سقي الزرع وقص البرسيم وانتزاع الأعشاب ونقل «السماد» إلى البستان في زنبيل على الحمار وذره على الزرع فضلاً عن المساهمة في الحصاد وجني التمر عند حلول موسميهما.

لم يكن الأطفال يرتاحون إلى جميع هذه الأعمال، فلقد كان منها ما يبعث على الضجر مع التعب والمشقة مثل «الحصر» حين سقي الزرع أيام البرد القارس في فصل الشتاء. كانت مساحة البساتين تقسم إلى مستطيلات، في نحو متر واحد عرضاً وثلاثة أمتار طولاً، (تسمى «إيمونن، ج. أيمون أو «أكمون» بالجيم المصرية)، تفصل بينها سواقي متوازية تسقيها من جهة العرض. وبما أن استعمال الماء كان

بمقدار، لندرته وارتفاع ثمنه، فلقد كان السقي يتطلب تعاون شخصين: أحدهما يشرف على دخول الماء إلى «الكمون» والثاني «يحصر»، أي يقف داخل «الكمون»، على بعد متر أو نحوه من نهايته، حافي القدمين ينتظر وصول الماء، حتى إذا أحس به في رجليه صاح: «احصر»، فيحصر الشخص الأول الماء عن ذلك «الكمون» ويصرفه إلى التالي فينتقل «الحاصر» إليه بدوره، تاركاً الماء في «الكمون» السابق ينساب بقوة الدفع التي تذهب به إلى نهايته وهكذا. . . كانت عملية «الحصر» هذه من مهمة الأطفال، في الغالب، وكانت أكره شغل عند صاحبنا خصوصاً أيام البرد القارس. فالسقي يكون عادة في الصباح الباكر قبل شمس الضحى حتى لا يتبخر الماء. والزرع في ذلك الوقت يكون في برودة الثلج مع صقيع في الغالب، والماء نفسه بالغ البرودة لأنه من الصهريج العاري، والمهمة تقتضي أن يكون «الحاصر» حافي القدمين، وعاري الساقين إلى الركبة تقريباً حسب ارتفاع الزرع، لذلك كانت الأقدام تصاب بشقوق مؤلمة تسمى «إدرا» ولم يكن ينفع معها دواء لتكرار سبب الداء. . .

كانت مهمة «الحصر» من الأعمال الأولى التي يبدأ بها الطفل حياته العملية في مساعدة الأب أو الجد في أشغال البستنة، حتى إذا بلغ العاشرة أو نحوها استقل ببعض الأشغال وكان ذلك حال صاحبنا. وهكذا، فما إن بلغ العاشرة من عمره حتى بدأ يستقل ببعض الأشغال ويتولى تزويد المنزل بالحطب من الوديان وسهول الأعشاب الصحراوية رفقة بعض أبناء الحي من أصدقائه في المدرسة. كانوا أربعة أو خمسة يراجعون دروسهم معاً في منزل أحدهم بالتناوب، وفي منزل صاحبنا غالباً، ويقومون بـ «رحلات» جماعية للاحتطاب، كل على دابته، بين الفينة والأخرى. وباختصار كانت واجباتهم صنفان: واجبات فكرية نحو المدرسة، وواجبات يدوية نحو المنزل. لم يكن العمل الفكري عندهم مفصولاً عن العمل اليدوي ولا كان يعفي صاحبه منه.

ـ ٤ ـ

لقد تحدثنا عن «العمل اليدوي» من أجل المنزل، فلننقل كلمة عن «العمل الفكري» في المنزل من أجل المدرسة. كان صاحبنا وأصدقاؤه الأربعة يراجعون دروسهم سوياً كما ذكرنا. وبما أن المدينة لم تكن مزودة بالكهرباء فلقد كان عليهم أن يقرأوا ليلاً على ضوء قنديل الزيت أو مصباح الكاربون، وأحياناً لم يكن يتوفر

لديهم غير الشمع، وهي جميعاً وسائل للإنارة من النوع «البدوي» القديم الذي لا يستقيم ضوءه إلا ليقع فيه عطب فينطفىء. فكان صاحبنا وأصدقاؤه يستعملون في أوقات العطب مصابيح صغيرة تشتغل بالبطاريات.

وبما أنهم لم يكونوا يتوفرون على ما يكفي من النقود للحصول على ما يحتاجون إليه من البطاريات فقد خطر لصاحبنا وأحد أصدقائه أن يعملا على «اختراع» المادة التي تشحن بها البطارية. وهكذا قضيا ساعات طوال لمدة شهور في «البحث والتجربة» يطبخون الملح والفحم ومواد أخرى أملاً في اكتشاف سر البطارية. غير أن نتائج «تجاربهم» لم تكن بأحسن حظاً من تجارب الكيميائيين القدماء، الذين كانوا يطمحون إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. غير أن صديق صاحبنا استمر في تجاربه، يستأنفها من حين لآخر، إلى أن توصل في نهاية الأمر إلى بعث نوع من الحياة في البطاريات الميتة، ولكن بطريقة بدائية غير عملية.

ومن التجارب التي أنفق فيها صاحبنا وصديقه وقتاً طويلاً خلال العطل المدرسية خاصة، تلك التي كانا يهدفان من ورائها إلى «اكتشاف» النفط بالحفر في مناطق في الجبل، كان الأطفال يشمون فيها رائحة النفط. لقد قضيا أياماً وليالي في «طبخ» و «تقطير» التراب «النفطي» الذي كانوا يأتون به إلى منازلهم، ولكن دون جدوى. غير أنهما تمكنا أخيراً من الحصول على مسحوق لزج كان إذا مزج بالفحم العادي ـ المصنوع من الحطب ـ يعطي حرارة متوهجة أشبه بحرارة الفحم الحجري. غير أن ما كانا يحرقانه من فحم وحطب من أجل الحصول على هذا المسحوق كان يكلفهم غالياً.

كانت هذه الأنشطة «الاستكشافية» تدخل ـ في تصور صاحبنا وصديقه ـ ضمن تطبيقات «دروس الأشياء» التي كان التلاميذ يتلقونها في المدرسة أو يطلعون عليها في الكتب التي نادراً ما كانت تقع عليها أيديهم. فلقد كانت المدينة بقصورها السبعة خالية من المكتبات، إذ لم تكن الكتب مما يباع في هذا البلد آنذاك. ولكن الحاج محمد، مدير المدرسة، أحضر معه عند عودته ذات مرة من إحدى سفراته إلى الرباط وفاس كمية من الكتب باعها للمعلمين والتلاميذ. ويذكر صاحبنا جيداً كيف أنه وقف واجماً أمام مكتب المدير والتلاميذ يشترون الكتب، فالتفت إليه الحاج محمد وقال له: «وأنت؟ ألا تشتري كتاباً وأبوك يبذر الأموال في وجدة، ذات اليمين وذات الشمال؟»

شعر صاحبنا بنوع من الحرج والإهانة. كان أبوه في وجدة فعلاً. ولم يكن يجرؤ على طلب النقود من جده لأمه ولا من جده لأبيه. أما الأول فلم يكن من المتحمسين للمدرسة ولا للحاج محمد كما ذكرنا، وأما الثاني فلم يكن أحد في العائلة يجرؤ على طلب النقود منه، وهكذا «اضطر» صاحبنا إلى أن يأخذ ورقة من فئة ألف فرنك مما كان جده لأمه يوفره من إرساليات ابنه من الجزائر. ذهب صاحبنا إلى المدير بالنقود واشترى بهما كتابين، أحدهما علمي لا يذكر عنوانه، والثاني هو كتاب **الأخلاق للمدارس الثانوية** من تأليف أحمد أمين وأمين مرسي قنديل (طبعة ١٩٤٥). ومن غريب الأمور أن يكون هذا الكتاب، الذي هو أول كتاب اقتناه صاحبنا، هو ثاني كتابين، لا غير، بقيا عنده إلى اليوم من مكتبته الأولى التي اضطر إلى بيعها للاستعانة بثمنها في توفير سعر التذكرة على الباخرة إلى سورية التي التحق بها للدراسة الجامعية كما سنذكر فيما بعد. أما الكتاب الثاني فهو نسخة مصرية من **كليلة ودمنة** بتحقيق محمد المرصفي (وما زال الكتابان يحملان على بعض صفحاتهما الطابع الذي كان صاحبنا يضعه على ما يقتنيه من كتب، وكان قد صنعه له أحد صانعي الطوابع في الدار البيضاء سنة ١٩٥٢: على محيط الطابع من أعلى عبارة «خزانة كتب» ثم «محمد العابد الجابري» في الأسفل. أما وسطه فقد كان دائرة نقشت فيها عبارة «اقرأ ما دمت حياً»).

كتاب **الأخلاق** يدفع ثمنه من فلوس أخذها من غير إذن؟

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي مد فيها صاحبنا يده إلى النقود أو غيرها من دون إذن. وما زال يتذكر كيف أن هذا الكتاب كان يبعث في نفسه نوعاً من وخز الضمير كلما وقعت عليه عيناه. ومع أنه كان يداوم القراءة فيه محاولاً استيعاب مضمونه فلقد كان يشعر إزاءه، كلما مد يده إليه، بنوع من التناقض الوجداني، شبيه بذلك الذي ينتاب المرء إزاء شيء عزيز عليه ويشعر في الوقت نفسه بنوع من الرغبة التي يعبر عنها بـ «ليته ما كان...». وعلى كل حال فلقد عاش صاحبنا أياماً معذب الضمير: كيف سمح لنفسه أن يأخذ النقود بدون إذن؟ إنه إذن سارق؟ ولكن هل من يأخذ من نقود أبيه أو جده يعد سارقاً حقاً؟ ثم هل كان يليق به أن يتلقى «إهانة» المدير من دون أن يبرهن له على أنه لا يستحقها؟ وهكذا لم يهدأ له بال إلا عندما علم ـ سماعاً أو قراءة، لا يتذكر بالضبط ـ أن أخذ الكتب بغير إذن أصحابها، بغرض الانتفاع بها، لا يعد سرقة وإن أخذ الابن من مال أهله بغير إذنهم ليس سرقة.

ولم يكن هذا القلق بل هذا الخوف من أن يكون قد ارتكب جريمة «السرقة» راجعاً فقط إلى كونه قد تعلم منذ الصغر أن الذي يسرق أو يخالف أوامر والديه يرتكب معصية، بل أيضاً لأنه قد ترسخ في وعيه منذ الصبا من خلال أحاديث جدته، التي كان يستمع إليها بانتباه أثناء طفولته الأولى أن «العاصي» يكوى يوم القيامة بـ «سفود» (قضيب من حديد) يحمى في النار حتى يحمر ويتوهج. وكان يتصور، لمدة طويلة، أن معنى عبارة «شُواظ من نار» الواردة في القرآن هو هذا «السفود» الذي يحمى في النار والذي يكون أشد حرارة وأكثر إيلاماً من القضبان الحديدية التي تكوى بها الجمال فترسل صراخاً ترتج له الجدران ويتردد صداه بعيداً في الجبال والوديان.

ثلاثة كتب، أو أربعة على الأكثر، إضافة إلى كتاب التلاوة وكتاب الجغرافيا المقررين على قسم الشهادة الابتدائية هو كل ما تداولته يد صاحبنا في المرحلة الابتدائية. فلم يكن هناك قصص للأطفال ولا كتب إضافية مقررة ولا خزانة عامة ولا مكتبات تبيع الكتب أو تعيرها. ولم تكن هناك إذاعة ولا أجهزة راديو. وصاحبنا متأكد من أنه لم يسمع الإذاعة لأول مرة إلا عندما قدم إلى وجدة سنة ١٩٤٧. وإذن فلم تكن هناك وسائل تثقيف إضافية، ولذلك كان التلاميذ يجدون من الوقت ما يكفي لقراءة وإعادة قراءة ما يعطى لهم في المدرسة من دروس أو ما يقع بين أيديهم من نصوص. ويذكر صاحبنا أنه خلال هذه المرحلة، مرحلة الشهادة الابتدائية والقسم التكميلي، كان هو وزملاؤه يحفظون معظم سور القرآن وبعض الأحاديث وقصائد أو أبيات من شعراء العصر الجاهلي والعصر العباسي والعصر الحديث، إضافة إلى أجزاء من ألفية ابن مالك ومختصر خليل.

ويذكر صاحبنا ـ ولعل هذا ما كان ينفرد به، على الأقل كما كان يخيل إليه ـ أنه كان كثير الكتابة في منزله، لقد سود أكواماً من الأوراق والدفاتر. وإذا كان لا يستطيع الآن تذكر الدوافع التي كانت تدفعه إلى الكتابة بنهم، ولا أن يفسر تلك الميول نحو الكتابة، فإنه يتذكر جيداً أنه كان يكتب موضوعات في الإنشاء يختارها بنفسه ويكتب «مذكرات»، و «مقالات»، ويحاول قرض الشعر مستعيناً بقاموس المنجد للحصول على القافية المطلوبة. ولكنه لا يتذكر أنه كان يتطلع إلى أن يصبح كاتباً عندما يكبر. إن مثل هذه التطلعات لم تظهر عنده إلا في مرحلة لاحقة، عندما كان في المرحلة الثانوية يتمنى أن يصبح في المستقبل مختصاً في التحليل النفسي، على الرغم من أنه لم تكن لديه آنذاك فكرة واضحة عن هذا «العلم».

وفي المقابل يتذكر أنه كان يقضي ساعات طويلة محاولاً قراءة وفهم ما كانت دار جده لأمه تتوفر عليه من مخطوطات، ولكن دون جدوى. إنه لم يكن يستطيع أن يتبين فيها أي شيء إذ كان كثير منها مكتوباً بدون نقط وبكلام لا ينتمي إلى الفقه ولا إلى النحو ولا إلى أي علم من العلوم التي كان يدرسها في المدرسة. وأشد ما كان يثير دهشته وحيرته تلك الجداول التي كانت تتخلل صفحات هذه المخطوطات على شكل مربعات شبيهة بمربعات «الكلمات المتقاطعة» التي تنشرها الصحف اليوم، وفي كل مربع حرف أو رقم. ولم يدرك صاحبنا أن الأمر يتعلق بكتب في «السحر والعزائم» إلا في مرحلة لاحقة.

فعلاً، لقد كان لجده لأمه أخوان، أحدهما كان يعتبر «ضالاً»، نوعاً ما، لأنه كان يدخن السجائر ولم يكن يحفظ القرآن ولا كان يعمل في البستان. لقد كان يقضي كل وقته مع بعض أصدقائه في «مجمع» صغير خاص بهم. . أما الثاني فقد كان لا يغادر المنزل إلا نادراً، يقضي النهار كله في غرفته بأرضية المنزل تتردد عليه النساء، بعضهن منفردات وبعضهن معهن أولادهن الصغار. لقد كن يأتينه لـ «يكتب» لهن «حروزاً» أي تمائم. هذه تريده لنفسها كي تنجب، وهذه تريده لابنها ليشفى من مرض، وثالثة تريده كي يزيل عنها ما تعانيه من «كراهية» زوجها، أي إعراضه عنها الخ. . . ولم تكن النساء يدفعن نقوداً مقابل هذا النوع من «العلاج»، فالنقود كانت نادرة التداول، وإنما كن يضعن في مكان مجاور، قريباً من زوجة الفقيه ما تيسر من «البروك»: وعاء من السمن أو نحو مُدّين من الحبوب أو التمر. هذه الممارسات لم تكن تعجب جد صاحبنا لأمه. لقد كان يعتبرها عملاً لا يليق بفقيه مثله يحفظ القرآن ويعبد الله ويتوكل عليه وحده. وإذا ما انتابه قلق أو غضب أو ملل التجأ إلى ضريح جده سيدي عبد الجبار حيث يقضي أياماً في خلوة تامة عند أولاد عمومته هناك. يعود بعدها منشرح الصدر عادي المزاج.

— ٥ —

هناك حادثة بقي مشهدها ماثلاً في ذاكرة صاحبنا يثبت حضوره فيها بين الفينة والأخرى. كان الوقت ليلاً بعد العشاء بنحو ساعة أو ساعتين، وكان يومها في منزل أهله لأمه، وكانت زوجة خاله نائمة في غرفتها التي تقع في زاوية دهليز واسع نسبياً، وكانت وحدها لأن زوجها كان مسافراً. أما جدته لأمه التي فقدت بصرها منذ وقت طويل فكانت جالسة على فراش نومها في الجانب الآخر من

الدهليز تجتر أرَقها كالعادة. كانت قليلاً ما تنام مستلقية على الأرض بل تنام جالسة جامعة ساقيها الواحد عكس اتجاه الآخر واضعة يديها على ركبتيها. . . وكان في الجانب المقابل لها زوجها ـ جد صاحبنا لأمه ـ الذي لم تكن تكلمه ولم يكن يكلمها إلاّ نادراً، إذ كانا في خصومة دائمة، فكانا إذا اضطر أحدهما لقول شيء للآخر فعل ذلك بواسطة صاحبنا: «قل لجدك. . .»، «قل لجدتك. . .».

كان جد صاحبنا يعاني من مرض طال أمده لم ينفع فيه علاج: لا الأعشاب الصحراوية، ولا حتى دواء الطبيب الفرنسي الذي كان رئيساً لمستوصف بمركز المدينة والذي كان يأتي خصيصاً إلى جد صاحبنا لأن المرض الرئيسي في المستوصف كان قريباً له. كان الولد يلازم جده في هذه الفترة التي ستقع فيها الواقعة التي نحن بصددها، فكان يقوم له بدور الممرض، لأنه كان لا يقوى على النهوض، ولا كان يطمئن لأحد غيره، فكان صاحبنا يجلس بجانبه عند عودته من المدرسة يحفظ دروسه ويقوم بواجباته المدرسية. . .

في تلك الليلة إذن، وبينما كان صاحبنا مستلقياً على الفراش ويده اليسرى مشتبكة بإحدى يدي جده، بينما يده اليمنى تمسك بكتاب الجغرافيا (جغرافيا المغرب لأقسام الشهادة الابتدائية) يراجع فيه على ضوء مصباح زيتي معلق على الجدار قريباً منه، إذا بجده يرسل شخيراً لفت انتباهه لقوته وغرابته، ولكنه استمر في المطالعة معتقداً أن جده قد استغرق في النوم، متجنباً القيام بأية حركة حتى لا يعكر عليه صفو نومه. . . ومرت بضع دقائق ساد فيها هدوء غير مألوف لم يقطعه إلا صوت جدته: «محمد. . حرك جدك قليلاً».

أراد صاحبنا أن يتحاشى إزعاج جده فلم يسحب يده اليسرى من تحت يده بل ألقى بالكتاب جانباً واستدار بهدوء ليضع يده اليمنى على كتف جده، ثم أخذ يحركه برفق. . ولكن لا حراك. سحب يده اليسرى من تحت يد جده. . ولكن لا حراك. عندها أجاب صاحبنا جدته بنغمة فيها نوع من الاستغراب الممزوج بالقلق: «إنه لا يتحرك. .» فردت عليه: «لقد عرفت ذلك من شخيره. . إنه مات». ثم انطلقت في النحيب، تبكي. . . تبكي حظها وتبكي زوجها. تبكي بكاء يتخلله كلام إلى صاحبنا تطلب منه أن يفعل كذا، أو كذا. . أن ينام الآن. . لتوقظه عند الفجر ليذهب لإخبار أمه (التي كانت عند زوجها في حي آخر) وإخبار أفراد آخرين من العائلة.

أما صاحبنا فلا يتذكر أنه بكى في ذلك الوقت ولا يستطيع أن يستعيد الآن

في وجدانه ما كان يعتريه من شعور آنذاك.. كل ما يتذكر هو أنه غطى جثة جده كما طلبت منه جدته وأخذ كتابه وأوراقه ووضعها جانباً.. ثم لا شيء بعد ذلك. وفي الصباح الباكر بعثته أمه وجدته لإخبار العائلة ينتقل من منزل إلى منزل، في قصر زناكة أولاً، ثم صعد إلى قصر «المعيز» لإخبار الأقارب من حفدة سيدي عبد الجبار. وعند رجوعه عرج على السوق، في الحي الإداري، واشترى نحو ثلاثة كيلو من اللحم كما طلبت منه أمه وجدته ذلك. وضع اللحم في حجر عباءته ولفها عليه وقفل راجعاً. وعندما نزل عقبة «أزرو» الهابطة إلى زناكة التقى بعدد من الرجال كانوا عائدين من بساتينهم، فكان كل منهم يسأله أين كان، وأين هو ذاهب، وماذا حدث؟.. لقد كانوا يعرفونه وكان يعرفهم، والناس في كل قصر يعرف بعضهم بعضاً... كان كل منهم يعبّر، كل على طريقته، عن أسفه على وفاة الحاج محمد أولحاج، وكان منهم من أجهش بالبكاء... وحينئذ فقط تنبه صاحبنا إلى أنه لا يبكي، ولا دموع في عينيه، فبللهما بلعابه... وعاد إلى المنزل. أما ما جرى بعد ذلك فلا تسعفه ذاكرته بشيء محدد.

* * *

لا شك أن قارىء هذه السطور يعتريه شيء من الانفعال، شيء من الشعور بالمأساة أو بما يشبه المأساة: طفل في الثالثة عشرة من عمره يراجع دروسه ليلاً، على ضوء قنديل مستلقياً على الفراش بجانب جده المريض ويده مشتبكة مع يده... ثم يأتي الموت بكل هدوء، بكل مكر الهدوء، ليختطف روح جده دون أن يستطيع هذا الأخير حراكاً ولا دفاعاً سوى شخير كشخير النائم، يودع به الحياة. لا، إن ذلك الطفل يشعر الآن، أو يتخيل، أن جده شد على يده بقوة، إشارة وداع، قبل أن يغادر الحياة... تماماً كما فعل أبوه، ساعة قبيل وفاته في مستشفى الدار البيضاء، بعد ذلك باثنتين وثلاثين سنة (١٩٨١).

كانت وفاة أبيه في ظروف غير «طبيعية»، وبسرعة غادرة، على اثر عملية جراحية، وفي جو «خال» من المأساة. وهل تعرف المستشفيات معنى المأساة مقترناً بالموت؟ أليس الموت فيها مجرد وضع علامة على ورقة، علامة تسمح، بل تأمر بنقل «المريض» من سرير إلى آخر ليستمر العمل «طبيعياً» كالعادة؟ أليس الموت شأناً عادياً تماماً في المستشفى؟

أجل إن الوضع يختلف تماماً. لقد كان معنى المأساة هو الغالب على واقعة وفاة

جده لأمه. ولم يكن الموت، كموت، هو عين المأساة. كلا، إن قلب المأساة كان في المشهد الذي حدث فيه. فعلاوة على الطفل ودروس الجغرافيا والاستعداد لامتحان الشهادة الابتدائية، كانت هناك على مقربة من مكان «الواقعة» التي وقعت تحت جنح الظلام، على مرأى من قنديل زيت يستهلك دموعه في صمت مريب، امرأة جالسة مسنة فاقدة البصر، تبكي زوجها الذي قضت معه ما يزيد عن ستين حولاً، والذي لم تعد تكلمه منذ سنوات، تبكيه صراخاً ونحيباً ورثاء وكأنها تنتقم من ذلك الصمت المتبادل الذي كان هو الشيء الوحيد الذي يصل بينهما في السنين الأخيرة. إن خصومة كبار السن تكون عادة كبيرة مثلهم، لا تعرف «خط الرجعة». ولِمَ «خط الرجعة» وخط الحياة قريب من نهايته..؟ بالفعل لقد بلغ خط حياتها، هي الأخرى، نهايته المحتومة بعد أقل من سنة، فالتحقت به صامتة وفي هدوء..

وعلى مسافة نحو كيلومتر من ذلك المشهد، الذي تحالف فيه الموت والخصومة والعناد على براءة طفل غارق في «الجغرافيا»، بعيداً عن «التاريخ»، كانت ترقد زوجة مع زوجها، في بيت مظلم، تعاني في يقظتها ومنامها من قسوة حماتها وفراق ابنها، وأيضاً من حب زوج طيب إلى أقصى حد، ولكنه في ذات الوقت ضعيف كل الضعف أمام أمه. زوجة كانت هي الأخرى مشدودة إلى زوجها متفهمة وضعيته فرضخت للأمر الواقع وأوصت ابنها ألا يزورها، خوفاً من حماتها وتجنباً لخلق المشاكل لزوجها، إلا مرة أو مرتين في الشهر، زيارة خفية خاطفة.

ولقارىء هذه السطور أن يفترض أن الكاتب يستعيد هنا نفس البطانة الوجدانية التي كانت تؤطر هذه الأحداث في ذاكرته عند وقوعها أو بعد ذلك بقليل.. غير أن صاحبنا يشعر تحت ضغط الرغبة في جعل شهادته أقرب ما يمكن إلى الواقع، يشعر أنه لا يستطيع أن يشهد بـ «الصحة» لهذا الافتراض. إنه يحس أنه سيكون أكثر إخلاصاً للحقيقة إذا هو نسب انفعالاته، وهو يكتب عن وفاة جده وسوء حظ أمه، إلى «الحاضر»، إلى لحظة الكتابة المندمجة مع استرجاع الذكرى في حيز زمني واحد. إنه يكاد يجزم أن الأمر يتعلق بانفعال «بعدي». غير أنه يشعر في الوقت نفسه أنه انفعال كان موجوداً منذ زمن الذكرى مقموعاً بصورة ما، فجاء «الحفر» في الذاكرة ليحرره، فانبعث ليسد ثغرة في الذكرى.

الفصل الرابع

- ١ -

كانت مدينة فجيج، في القرون الوسطى، إحدى البوابات الرئيسية التي يطل منها المغرب على الصحراء الكبرى. وكانت ترتبط بالطرق التجارية العالمية عبر شريط من الواحات تمتد جنوباً إلى بلاد السودان (مالي والسنغال حالياً) وشرقاً إلى مصر: طريق تمتد من فجيج إلى سجلماسة (تافيلالت) غرباً ثم إلى تامبوكتو ووسط غرب افريقية جنوباً، وطريق تتجه إلى توات على الجنوب حيث تتوزع الطرق نحو الشرق إلى فرعين: أحدهما يتجه إلى ورغلة ثم إلى تونس، والآخر إلى غدامس فطرابلس فمصر... كان ذلك في العصر الوسيط قبل تحول الطرق التجارية، عالمياً، عقب الاكتشافات الجغرافية الكبرى وهيمنة الملاحة الأوروبية على «ما وراء البحار».

ومع أن دور فجيج قد تضاءل بعد ذلك، مثلها مثل البوابات الصحراوية الأخرى، فإنها بقيت منفتحة على المراكز القريبة منها مثل تافيلالت غرباً وتوات جنوباً، إضافة إلى بوعرفة ووجدة وغيرهما من المدن المغربية شمالاً. ولم تبدأ هذه المدينة بالانكماش على نفسها إلا بعد احتلال فرنسا للجزائر ومد سيطرتها على جميع الفضاء الصحراوي المحيط بفجيج، شرقاً وجنوباً وغرباً. وهكذا حاصر الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومنذ الثلاثينات من القرن الماضي، مدينة فجيج من الشرق والجنوب والغرب، مقتطعاً منها امتداداتها إلى بشار والقنادسة وتوات...

وعبثاً حاولت السلطات الفرنسية في الجزائر الاستيلاء على مدينة فجيج في مستهل هذا القرن، حينما كانت تستعد لاحتلال المغرب. لقد قاوم الفجيجيون الهجمات الفرنسية مقاومة باسلة فردوا قوات الاحتلال على أعقابها. وعندما فرضت

فرنسا حمايتها على المغرب سنة ١٩١٢ حفظت لفجيج انتماءها للمغرب ولكن مع فرض حدود تطوقها وتفصلها عن الأراضي التي ضمتها فرنسا إلى مستعمرتها التي كانت تعتبرها أرضاً فرنسية (= الجزائر)، تاركة، في نفس الوقت، لأهالي فجيج نوعاً من حرية التنقل عبر هذه الحدود للحرث في «المعذر» ولخدمة واستغلال حقول النخيل، سواء على وادي زوزفانة شرقاً وجنوباً أو على وادي الملياس غرباً، الشيء الذي حُرموا منه بعد استقلال المغرب وقيام الثورة الجزائرية، إلى اليوم.

انكمشت مدينة فجيج إذن على نفسها منذ تحول الطرق التجارية في القرن السادس عشر وازدادت عزلتها بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠. غير أنها إذا كانت قد فقدت امتداداتها الوسيطية (نسبة إلى القرون الوسطى) فإنها بدأت مع فرض فرنسا حمايتها على المغرب سنة ١٩١٢ تنفتح تدريجياً على العالم الحديث وبالخصوص من خلال خطوط السكة الحديدية التي أقامتها السلطات الفرنسية في كل من الجزائر والمغرب، وبالأخص الخط الذي يربط بين وهران شمالاً وبشار جنوباً بالجزائر والذي يرتبط بالخط الذي يصل بشار ببوعرفة ثم بوجدة شمالاً. كان خط وهران ـ بشار يمر بمحاذاة خط الحدود الذي فرضته فرنسا بين المغرب والجزائر، وكانت محطة القطار بقرية بني ونيف المتصلة بحقول نخيل مدينة فجيج على الجنوب هي أقرب المنافذ التي تتصل بها هذه المدينة مع العالم الخارجي، مع بشار وعين الصفراء ومشرية وتلمسان ووهران بالجزائر، تماماً مثلما كانت قرية بوعرفة هي النقطة الرئيسية بل الوحيدة التي تصل فجيج بالمدن المغربية: وجدة شمالاً وبوذنيب ثم تافيلالت غرباً.

غير أن هذا الوضع الاستراتيجي الذي أضفته خطوط سكة الحديد على مدينة فجيج لم يكن له أثر يذكر على الحياة فيها، لا اقتصادياً ولا اجتماعياً ولا ثقافياً. فالخط الذي يمر جنوباً بمحاذاتها في قلب قرية بني ونيف كان يربط بشار والقنادسة ـ وهما مركزان معدنيان غنيان ـ بمدينة وهران، عاصمة الغرب الجزائري، تماماً مثلما أن الخط الذي يمر ببوعرفة كان يربط مناجم بشار بمناجم بوعرفة فجرادة بوجدة، عاصمة المغرب الشرقي. وبما أن مدينة فجيج نفسها لم تكن مركزاً منجمياً فلقد تركتها السلطات الفرنسية تجتر وضعيتها القديمة كواحة معزولة محاصرة مقصوصة الجناحين (جناح بشار والقنادسة غرباً وجناح توات وما يليها جنوباً وشرقاً).

شيء واحد استفادته مدينة فجيج من هذا الوضع الاستراتيجي الميت هو انفتاحها التدريجي على العالم الخارجي من خلال هجرة أبنائها للعمل في الجزائر، إما في مزارع المعمرين وإما في قطاع البناء والسدود والمناجم. هذا إضافة إلى تردد

الكثير من تجارها على المدن المغربية كوجدة ـ وأحياناً فاس ـ لاستيراد ما تحتاجه المدينة من بضائع للاستهلاك المحلي، غير أن هذا الانفتاح الذي بدأ في أواخر العشرينات لم يأخذ في التوسع إلا مع نهاية الثلاثينات، وهو ما يتزامن مع مرحلة الطفولة الأولى لجيل صاحبنا. ومع ذلك فهو يستطيع أن يجزم، اعتماداً على معطيات ذاكرته وحدها، أن عدد أبناء قصر زناكة بفجيج ـ مسقط رأسه ـ الذين كانوا زمن طفولته الأولى في علاقة ما مع «الخارج» لم يكن يتعدى العشرة أو نحوها. لقد كان هذا القصر ـ زناكة ـ ينفرد، أو يكاد، بالاتصال مع المدن الجزائرية بهدف العمل وأحياناً بهدف التجارة، بينما كان قصر الوداغير يحتكر، أو يكاد (هو وقصر أولاد سليمان وقصر المعيز) الاتصال التجاري مع مدن المغرب، ووجدة بصورة خاصة.

ومع أن صاحبنا كان عضواً في جماعة أطفال «الرباط» كما ذكرنا، فإن فكرة «الرباط» لم تكن تعني في ذهن صاحبنا وأصدقائه شيئاً آخر غير تلك المباني والطرقات التي كانوا يشيدونها بالتراب والحجر، كما يشيد أطفال الشواطىء دوراً ومباني بالرمل والماء. أما اسم «بغداد» الذي أطلقه أهل زناكة على السهل الذي كانت توجد «الرباط» في بداياته فلم يكن يعني بالنسبة لأهل زناكة عموماً، صغاراً وكباراً، غير تلك الأرض المسطحة المفروشة بالحصى والممتدة شرق قصر زناكة والتي يشقها طريق أهل هذا القصر إلى وادي زوزفانة حيث حقول نخيلهم. على أنه كان لسهل «بغداد» وظيفة أخرى، موسمية هذه المرة، إذ كان يتحول إلى ميدان لمباريات كرة العصا ومصارعات «الباقباق» (ينقسم المتصارعون إلى فريقين يمسك كل اثنين منهم بيدي صاحبه بصورة تمكنهما من مصارعة الخصم بواسطة الضربات الانقضاضية بالأرجل). وكانت هاتان اللعبتان تتطلبان ميداناً فسيحاً فارغاً، وكانتا تشكلان قوام المصارعة الرياضية بالمدينة.

كانت هذه الرياضات، مثلها مثل الألعاب الجماعية الأخرى التي تحدثنا عنها في فصل سابق، تجري بين أبناء القصر الواحد، بين شباب «إزناين» وشباب «ادريت» بقصر زناكة، فلم تكن هناك مباريات بين القصور كلها، ولا بين أي منها والعالم الخارجي. كان الاكتفاء الذاتي ـ وإن شئت قلت الانكماش ـ هو سيد الموقف في كل شيء. لقد كان من الصعب تصور عالم آخر غير عالم فجيج ومحيطها المباشر. لم تكن هناك إذاعة ولا ذكر لها ولا شبكة هواتف. أما الحافلة الوحيدة التي كانت تنقل الناس إلى بوعرفة فوجدة والتي كانت محطتها في قصر الوداغير فنادراً ما كان أطفال قصر زناكة على علاقة بها، فلم يكونوا يعرفون عنها شيئاً سوى أنها تحضر

وتغيب مثلها مثل القطار الذي كان يمر ببني ونيف. وبالجملة فالحافلة والقطار كانا بالنسبة لوعي الأطفال دون العاشرة من أبناء جيل صاحبنا عبارة عن كائنات تحضر وتغيب كالزوابع والفيضانات وأصحاب الجمال من «العرب» الذين كانوا يأتون بالملح وخشب العرعار والأقط (جبن يابس): بضاعة يبيعونها في ساحة «تاشرافت» التي تحيط بها المنازل والأزقة على شكل هلال من الغرب والشمال والشرق، بينما تحدها من الجنوب المقبرة و «دار الجماعة»، يفصلهما عن بعضهما الطريق الذاهب إلى مقر «الديوانة» (الجمارك) فحقول النخيل بتاغيت ومنها إلى بني ونيف. وكانت هذه الطريق في الأصل جزءاً من مجرى وادي «إيبوشليقن» الذي يشق طريقه من الشمال الغربي بمحاذاة قصر زناكة إلى تاغيت على الجنوب الغربي.

كان هذا الوادي يابساً لا يفيض إلا نادراً. وكان سكان زناكة قد أقاموا سداً من التراب والأحجار تصرف مياهه، حين العواصف الرعدية التي تشهدها المنطقة من حين لآخر، إلى الجنوب خارج المنازل والبساتين. ولكن قد يحدث أن يتآكل السد بفعل الرياح ومرور البهائم، فإذا هبت عاصفة رعدية مباغتة وفجرت عيون السماء تفجيراً، رأيت شباب زناكة وكهولها في حالة تعبئة عامة. فمياه الوادي تهجم بعنف وقوة لتشق طريقها عبر أزقة قصر زناكة خاصة حي «إدريت» الذي يمتد على ضفاف الوادي. وإذا تمكنت المياه الغاضبة الهوجاء من تحطيم «القناطر»، فإنه الطوفان. مياه الوادي تسوق معها أعجاز النخل وتقتلع الأشجار فضلاً عن أشياء أخرى يُلقي بها أهل المدينة خارج مدينتهم لكونها فقدت كل وظيفة أو فائدة. وربما كان اسم هذا الوادي مشتقاً من اسم هذه الأشياء التي يلقى بها في المزابل أو ما في معناها والتي تسمى بالأمازيغية «إيشليقن» (القطع الممزقة من صوف أو غيره).

كان فيضان هذا الوادي من الحوادث النادرة، ولا يذكر صاحبنا أكثر من مشهدين لهذا الفيضان خلال طفولته الأولى. وأبرزهما ذلك المشهد الذي ارتبط في ذهنه بعمود «الدبيش» (التليفون) الذي كان منصوباً فوق أرض بستان من بساتين أهل أمه يقع في منطقة «فتوحة» الواقعة بين «الديوانة» و «بغداد». كان وادي «إيبوشليقن» يمر أمام مقر الديوانة تحت قنطرة. وكان للديوانة خط تليفون، لعله الخط الوحيد بقصر زناكة يومئذ. كان رجال الديوانة أجانب عن فجيج، جزائريين أو فرنسيين، يقومون بدوريات، ضد التهريب، على الحدود مع الجزائر. وعندما فاض الوادي، في المرة التي يتذكرها صاحبنا بوضوح، كانت المياه غزيرة وعنيفة هدمت القنطرة وأسقطت عمود التليفون المنصوب بالقرب منها أمام مقر الديوانة.

كان لسقوط عمود التليفون والأسلاك المعلقة عليه وقع خاص في نفس صاحبنا. إنه لا يزال يذكر ما انتابه آنذاك من قلق على خاله الذي كان يعمل في قطاع السدود بالجزائر. لقد كان ـ وعمره يومذاك حوالى السابعة ـ يصحب جده لأمه إلى بستانه بـ «فتوحة»، وكانت تلك من المناسبات التي تتيح له «العيش» مع خاله خارج فجيج وقصورها وجبالها: ذلك أنه، طوال الوقت الذي يمكث فيه جده في الحقل، لم يكن يفارق عمود التليفون المنصوب على الطريق جنب الحقل. كان يعانق عمود التليفون واضعاً أذنه عليه ثم يدق عليه بحجر فيسمع رنيناً، هو رنين الأسلاك بفعل الاهتزاز. كان يتنصت لهذا الرنين و «يتكلم» من خلاله مع خاله المقيم بالجزائر: كان يسأله عما يفعل وعن موعد عودته ويطلعه على أخبار الأهل والدار. كان يسأل ويتولى بنفسه الجواب على أسئلته، نيابة عن خاله بـ «توسط» رنين عمود التليفون وأسلاكه.

غير أنه في تلك المرة التي فاض فيها وادي «إيبوشليقن» واقتلع العمود المنصوب أمام الديوانة وتقطعت الأسلاك لم يعد صاحبنا يسمع نفس الرنين عند معانقته للعمود المنتصب أمام حقل جده. لقد تصور أن خفوت الرنين وانقطاعه راجع إلى غياب خاله عن مكانه أو إلى إعراضه عن الحديث إليه أو إلى مكروه أصابه. . . ومن هنا ذلك القلق الذي ملأ عليه كيانه فاندفع يجري إلى جده الذي كان منهمكاً في تنقية الزرع من الأعشاب وصاح قائلاً: «خالي لا يجيب، خالي لا يجيب. . ماذا أصابه»؟

يذكر صاحبنا جيداً ابتسامة جده لأمه التي اتسع مداها حتى برزت أسنانه ناصعة البياض وسط الشعر الكثيف الذي يغطي وجهه. لقد كانت لحيته عريضة كثيفة ولم يكن يحلق وجهه بل يقتصر فقط على قص شاربيه قصاً خفيفاً غير غافل عن مشط لحيته يومياً، وخضبها بالحناء أحياناً. قال الجد لحفيده: «لا تقلق. . ألم تر أسلاك «الدبيش» مقطعة ملقاة على الأرض قريباً من قنطرة «الديوانة». . . ؟ إنهم سيصلحونها غداً أو بعد غد، وسيعود كل شيء كما كان».

كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة التي كانت ـ إلى ذلك الحين ـ تمكن صاحبنا من «الاتصال» بالعالم الخارجي.

ـ ٢ ـ

بعد هذا الاتصال الوهمي بالعالم الخارجي يأتي الاتصال الفعلي. ويرجح صاحبنا أن ذلك كان في حوالى العاشرة من عمره. دليله أن سفره الأول إلى بوعرفة كان قبل افتتاح مدرسة النهضة المحمدية سنة ١٩٤٦. كان والده يتاجر في المواد الغذائية بين وجدة وفجيج وكانت بوعرفة مركزاً لتجارته. كانت تجارة ناجحة إذ كانت السلع تنقل على القطار من وجدة إلى بوعرفة وتشغل أحياناً عدة عربات، ومن بوعرفة توزع على المراكز الأخرى. وكانت ظروف الحرب العالمية الثانية ووقوع المنطقة على الحدود قد جعلا عنصر «التهريب» يلعب دوراً أساسياً في التجارة. وإذا أضفنا إلى ذلك أن يد والده كانت مبسوطة جداً وأنها طالت رجال السلطة الفرنسية بالمنطقة أنفسهم، استطعنا أن نقدر إلى أي مدى كانت تجارته ناجحة.

وعلى كل، فإن صاحبنا ما زال يذكر أنه جلس ذات يوم جنب والده القادم من السفر ينتظر أن يفتح حقيبته ليطلعه على ما اشتراه له من ثياب، وإذا بالحقيبة ـ وكانت متوسطة من النوع الخاص باللباس ـ لم يكن فيها شيء آخر غير الأوراق النقدية التي كانت مضغوطة فيها بصورة جعلت عدداً منها ينفلت عند فتح الحقيبة. كانت الجدة ـ والدة أبيه ـ جالسة أمام ابنها القادم من السفر. فلما رأت المشهد سارعت إلى جمع الأوراق وهي تتمتم: «باسم الله ما شاء الله» وبكلام آخر لم يكن صاحبنا يعرف له معنى، ولكنه يستطيع الآن أن يجزم أنه كان تعويذة من ذلك النوع الذي يقرأ لدرء «العين»، عين الحساد والفضوليين.

جلس صاحبنا مشدوهاً ينظر إلى أبيه وكأنه يسأله: «وأين الثياب الجديدة؟ أين الحلوى؟». وينظر إلى جدته التي كانت تطوف حول المكان منحنية تجمع الأوراق المالية، مستغرقة في أدعيتها وتعاويذها منادية على ابنتها طالبة المجمرة و «الفاسوخ» لـ «تبخر» البيت دفعاً للحساد من الإنس والجن. ومع أنه كان قد اعتاد على هذا النوع من «الباخور»، الذي كان يحلو له أن يتتبع خطى جدته وهي تقوم به ليراقب عين «الفاسوخ» وقد انفقأت وسط الرماد، فإنه هذه المرة شعر وكأن أحداً لم يهتم بوجوده. ولكي يكسر هذا الصمت الذي اقترن لديه بنوع من الإهمال له وقف وارتمى على أبيه يقبله دافعاً برجليه الحقيبة وما حولها من أوراق مالية وكأنه أدرك للمرة الأولى أن «الفلوس» تنافسه على أبيه. ويبدو أن الأب فهم «الرسالة» فاحتضن ابنه وربت على كتفيه وظهره وكلمه كلاماً فهم منه ما معناه: «جئت على استعجال

هذه المرة، ولذلك لم أشتر لك شيئاً، سأسافر غداً وسأحملك معي إلى بوعرفة لتختار من الحانوت ما تشاء».

لا يذكر صاحبنا كيف كان شعوره بعد ذلك ولا «الأحلام» التي شغلته في اليقظة أو في المنام، ولكنه يذكر جيداً أنه في الصباح وقف إلى جانب عمه الأصغر الذي كان شاباً في نحو العشرين من عمره وهو يسرج الحمار الذي سيحمل الأب وابنه إلى محطة الحافلة بقصر الوداغير. كان العم بادي «الغضب» هذه المرة أكثر من العادة، فلقد كان من أولئك الذين تغلب عليهم الجدية في كل شيء حتى عندما يبتسمون، وكان هو المساعد لأبيه ـ جد صاحبنا ـ في أمور البستنة وغيرها من الأعمال في المنزل، وذلك على العكس من أخيه الأكبر ـ والد صاحبنا ـ الذي كان متفرغاً لتجارته يساعده فيها أخوه الأوسط الذي كان يحظى بعناية واهتمام من والدته ـ جدة صاحبنا ـ عناية زائدة، وذلك إلى درجة أن الجميع كان يتهمها بأنها تحابيه وتتركه على هواه. لقد كان ابنها المدلل، وكانت تعلل اهتمامها الزائد به بكونه عليل الصحة ضعيف البنية. . ومع ذلك فلم يكن هذا المبرر ليقنع أحداً، فالمحاباة كانت واضحة. وعلى كل، فغضب العم الأصغر لم يكن له هذه المرة علاقة بهذه «المحاباة». لقد سمعه صاحبنا يتمتم وهو يسرج الحمار بكلام فهم منه أنه كان على موعد مع أصدقائه من أبناء الحي للاحتطاب، وأن سفر أخيه، والد صاحبنا، سيجعله يتخلف. . وكان التخلف عن الموعد في مثل هذه المناسبات من أكره الأمور إلى نفوس الشباب. فلقد كان الخروج للاحتطاب من الأعمال التي يحقق الشاب فيها ذاته خصوصاً والمناسبة تسمح بالتباهي بالدابة وسرعتها وبحزمة الحطب وإتقان وضعها.

كان حمار العائلة عزيزاً على عمه فكان يهتم به اهتماماً زائداً. كان أشهب اللون جميل المنظر رشيق القوام هادىء الطبع ـ على العكس تماماً من حمار خاله ـ وكان مربطه داخل الدار، فكان واحداً من الأسرة مثله مثل النعاج الثلاثة وصغيراتها التي كانت حظيرتها في الجانب الآخر من صحن المنزل. وفوق مربط الحمار وحظيرة النعاج أقيمت «سدة» (= سقف من العيدان يتوسط الأرض وسقف الغرفة) يختزن فيها الحطب الذي كان هذا العم يجلبه على حماره في رحلات أسبوعية أو نصف شهرية يقوم بها هو وأصحابه من شباب الحي إلى الوديان البعيدة يحتطبون مما فيها: شجر العرعار وغيره من النباتات الصحراوية الصالحة كوقود.

كانت الرحلة الواحدة تستغرق معظم اليوم، إذ يخرج الشباب في منتصف

الليل أو بعده بقليل ومعهم «العوين» أي زادهم: ركوة ماء وشيء من التمر وقليل من الأقط إن وجد. يأكلونه في وجبة مشتركة عندما يتجمعون للاستراحة عند الزوال وقبل أن يبدأوا في ترتيب ما احتطبوا في رزم يربطونها بالحبال على ظهور دوابهم. وكجميع الأعمال التي يقوم بها بنو البشر والتي تكون عرضة للاحظات وتعاليق الناس فإن الحَطُوبة (وبالأمازيغية: ماسان)، أي حمولة الدابة من الحطب، كانت من الأشياء التي تنطق بمدى مهارة المحتطب وكفاءته. لقد كان تنسيق عيدان الحطب أو أكوام النبات اليابس على ظهر الدابة يتطلب مهارة خاصة. ولا شيء كان يجلب المتاعب والشعور بالحرج والدونية للمحتطب من انفراط عقد الحطوبة المنضوض على ظهر دابته. فإذا حصل ذلك في الطريق قبل دخول المدينة تسبب في تأخر رجوع الجماعة المحتطبة التي تحرص عادة على العودة قبل مغيب الشمس، فكانت تصب جام غضبها، وإن بصمت، على صاحب الحَطُوبة المتفككة، إذ كان عليهم أن يساعدوه وينتظروه. أما إذا تفككت الحمولة داخل المدينة بسبب اصطدام عيدانها بجدران الأزقة الصغيرة فإن الحرج يكون أشد وأكبر، إذ يتعطل المرور ويصير خبر «الحادثة» على كل لسان...

لم يذهب العم إلى الاحتطاب هذه المرة بل رافق أخاه وابن هذا الأخير إلى محطة الحافلة. ولا يتذكر صاحبنا كيف قضى الطريق على الحافلة مع والده من فجيج إلى بوعرفة. ولا شك أنه قضى معظم الوقت في الحافلة نائماً أو مستنداً على أبيه، فلقد كان يصاب بالدوار، مع ما يصحب ذلك من إفراغ ما في البطن عن طريق الفم بمجرد ركوب السيارة. ولم يكن ذلك بسبب حركتها فقط، بل أيضاً، ولربما كان هذا هو السبب الحقيقي، بفعل رائحة البنزين. إنه يتذكر جيداً أنه ذهب يوماً إلى محطة الحافلة مع بعض أقاربه الذي كان مسافراً. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها حافلة الركاب، بل ولربما السيارة على العموم...

المهم هنا هو أنه ما إن أدار السائق محرك الحافلة حتى انبعث منها دخان كثيف مصحوب برائحة بنزين قوية لم يتحملها صاحبنا، فأخذ يتقيأ إلى درجة الاختناق... ومن ذلك اليوم ارتبطت في ذاكرته وجميع حواسه رائحة البنزين بالشعور بالرغبة في التقيؤ. وما زال يذكر أنه عانى الأمرين عندما بعثه الشهيد المهدي إلى «طريق الوحدة» صيف سنة ١٩٥٧ على سيارة جيب، ومعلوم أن «الطريق إلى طريق الوحدة» صعب وملتو يتسبب في «الدوار» حتى لمن ليس له استعداد لذلك.

ومع أن الشخص الذي كان يقود «الجيب» كان طبيباً فإنه لم يأبه بما كان يعانيه

صاحبنا، بل واصل طريقه وكأن الأمور طبيعية تماماً، مما أثار استغراب صاحبنا، خصوصاً و «الطبيب» كان يتصرف دونما قلق أو امتعاض أو اهتمام. لقد كان صاحبنا يعتقد أن الطبيب ـ بما هو طبيب ـ سيتوقف وسيعمل على معالجة هذه الحالة المرضية. غير أنه لم يفعل ولم يهتم. ولم يتخلص صاحبنا من هذا «الضعف» إزاء السيارة ورائحة البنزين إلا عندما صار يمتلك سيارة ويقودها بنفسه، فحينئذ زال «الضعف»، ربما لأنه صار سيد الموقف، وربما لأن نتائج موقف الضعف ذاك خطيرة جداً مع قيادة السيارة، ولذلك كان تجاوزه أمراً يفرض نفسه. . .

أما موقف الطبيب وعدم اكتراثه بما كان يعاني فلم يتمكن من فهمه وتفهمه إلا في مرحلة متقدمة من عمره عندما اضطرته أحواله الصحية لدخول المستشفى والخضوع لعملية جراحية في كليته مرتين. حينذاك اكتشف أن الأطباء لهم تصور خاص لـ «الطبيعي» وغير «الطبيعي»، غير التصور الذي لمطلق الناس. . وقد تأكد لديه هذا التصور «الطبي» حينما صار يحتك أكثر بالطب والأطباء من خلال أولاده أنفسهم. . لقد تأكد لديه فعلاً أن كثيراً من رجال الطب يعامل المرضى من وجهة نظر طبية محض. فما يجد تفسيره طبياً فهو عندهم «طبيعي». أما الجانب «الإنساني» فغائب. إن المريض في اصطلاحهم «موضوع» و «حالة» ليس غير. وربما يجد سلوكهم هذا تفسيره في كون العلم، والطب منه، يعتبر أن التزام «الحياد» وعدم الاستسلام للعاطفة شرط ضروري للمهنة. غير أنه يبقى، مع ذلك الجانب الإنساني وكذلك الجانب النفسي بوصفهما ميداناً للعلاج كذلك.

وعلى كل حال فلم يكن صاحبنا يفكر في هذه الأمور ولا بهذا المنطق عندما ركب الحافلة مع أبيه في اتجاه بوعرفة. لقد كان «صغيراً»، فعلاً، عن مثل هذه الأشياء وبالتالي فكل ما يمكن أن ننتظره منه هو نوع انطباعه إزاء هذا العالم الجديد الذي انتقل إليه لأول مرة: عالم قرية بوعرفة الذي كان بالنسبة له أول عالم خارجي حقيقي يتصل به، بعد «العالم الوهمي» الذي كان ينقله إليه رنين عمود التليفون كما ذكرنا في فصل سابق.

والحق أن صاحبنا يتذكر جيداً أنه انتابه نوع من الذهول عندما وصل بوعرفة، فلقد كانت مبانيها وأزقتها تختلف تماماً عن مباني وأزقة قصور فجيج. لم تكن أبنيتها من الطين والطوب وخشب النخل ولا كانت أزقتها ضيقة مسقفة، جزئياً أو كلياً، كما هو الحال في فجيج، بل لقد كانت مبانيها من الحجارة والجير والاسمنت،

وكانت شوارعها واسعة عارية. أما دكاكينها فكانت مصفوفة على جانبي الطريق الرئيسية شأن القرى الحديثة.

بالفعل كانت بوعرفة قرية حديثة تقع على سفح جبلين يقع خلفهما، في شعاب ضيقة، منجم معدني تربطه بمنجم جرادة شمالاً ومنجم بشار جنوباً سكة الحديد التي كانت محطتها بجانب المنجم وعلى بعد بضع كيلومترات من مركز بوعرفة. كان والد صاحبنا يتخذ من بوعرفة مركزاً لتجارته كما أسلفنا، فكانت له عدة دكاكين بالشراكة مع بعض أبناء عمه، وكان أخوه الأوسط يتولى النيابة عنه هناك.

كان أكثر ما شد صاحبنا في دكاكين والده تلك الأكياس المملوءة بالمواد الغذائية المصفوفة وسط دكان أبيه، فهو لم يسبق له أن شاهد من قبل مثل هذه الكمية ولا هذه الأنواع من المواد الغذائية. وكان أكثر ما يشده إليه تلك الأكياس التي كانت مملوءة بما كان يسميه الناس يومئذ بـ «سكر البون»، وكان يوزع بالبطائق (البون) على الناس بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية. لقد كان صاحبنا يعرف السكر جيداً، سكر القالب المكسو بالورق الأبيض والأزرق، والذي كان جده لأبيه ماهراً كجميع المتقنين لإقامة الشاي (= إعداده بين الحضور) في كسره بواسطة ضربات متقنة وموزونة، إما بواسطة مطرقة خاصة بالسكر وإما بواسطة قاع كأس من كؤوس الشاي. وكسر السكر بكأس الشاي عملية تتطلب مهارة، ليس فقط محافظة على الكأس أن ينكسر، بل أيضاً لكي يكون الصوت، صوت الضرب على السكر، واضحاً وقوياً ينقل الرسالة إلى الجيران. . . وإذا كان صاحبنا قد اعتاد على الجلوس بجانب جده وهو يكسر قالب السكر بالكأس أو بالمطرقة ويحوله إلى قطع صغيرة يتسع لها عنق إبريق الشاي، فإنه هذه المرة ـ في بوعرفة ـ كان إزاء سكر من نوع آخر وفي شكل آخر: كان عبارة عن حبيبات، في حجم حبات الكسكس، وكان منه الأصفر والوردي. وكان صاحبنا يأخذه من الأكياس ليملأ به جيوبه، فضلاً عن فمه ويديه. كان السكر الأبيض شبه مفقود في ذلك الوقت بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، وكان نادراً حتى في مدينة فجيج التي لم يكن أهلها يستسيغون ذلك النوع من السكر الملون فكان بعضهم يستعيض عنه بالتمر. وما يزال صاحبنا يتذكر أن جدته لأبيه، التي كانت مولعة بشرب القهوة إلى درجة أنها كانت تشكو من وجع الرأس إذا لم تشربها في الأوقات التي اعتادت شربها فيها، كانت تنفر من السكر الملون وتفضل عليه وضع ثمرة في فمها قبل ارتشاف القهوة، فكانت عملية التحلية تتم في الفم، بمضغ أو بدون مضغ.

وتتشابك في ذاكرة صاحبنا ذكرى السكر الملون مع ذكرى «الروز» (الأرز) الذي كان يوزع على أهل فجيج سنوات الحرب العالمية الثانية. كان ذلك قبل سفر صاحبنا إلى بوعرفة إذ كان ما يزال في بيت أهله لأمه. إنه يتذكر جيداً كيف أنه فوجىء ذات يوم بشيء أبيض كالعجين كوجبة غذاء للأسرة قدمته لهم أمه في «القصعة» (صحن مصنوع من جذع الشجر) بدل الكسكس الذي كان الوجبة الغذائية الرئيسية. لقد نفر منه صاحبنا نفوراً شديداً لبياضه «المخيف» ولزوجته المقلقة للقلب. ولم يكن ذلك شعوراً خاصاً بصاحبنا وحده بل كان شعور جميع أفراد الأسرة بل أهل فجيج كلهم. لقد اقترن توزيع «الروز» في تلك الفترة على السكان بما يشبه المجاعة، فكانت ذكراه سيئة، حتى صار الناس يذكرون «عام الروز» مقترناً في أذهانهم بالضائقة الاقتصادية. لقد اعتاد سكان فجيج على الكسكس الذي يتفنّنون في إعداده من القمح الصلب أو من الشعير، كما اعتادوا على أصناف من الخبز يعدونها في منازلهم: الخبز بالخميرة، والبغرير، والثريد. وكان هذا الأخير يعد وجبة «أرستقراطية»، فكان ينحصر إعدادها في الغالب يوم عيد الأضحى، إذ كان يسقى بمرق لحم الخروف، خروف العيد. . . أما الأرز فلا وجود له. . وأنى له أن يوجد في واحة صحراوية.

على أن المادة الغذائية الأساسية التي كانت «أعدل الأشياء قسمة بين الناس» في فجيج هي بلا منازع: التمر، إذ لم تكن تخلو منه دار ولا طعام يوم. والعائلات الميسورة تأكله في الصباح مع اللبن كوجبة أولى يليها الكسكس أو الخبز مع المرق. لقد كان لكل عائلة تقريباً نصيبها من التمر تقطفه من بساتينها وحقولها. أما العائلات الفقيرة فكانت تنال منه حظها زمن جني الغلة في الخريف، إما في شكل هدايا وإعانات من الأقارب والجيران، وإما كحقها من الزكوات. وكان الجميع يخزن التمر في خوابٍ يضغط فيها ضغطاً قوياً حتى يتلبد ويخرج ما به من هواء مما يساعد على الاحتفاظ به مدة طويلة بدون فساد.

لم يكن في قرية بوعرفة نخيل. فهي مركز تجاري وملتقى طرق، ولكنها كانت تمتاز لقربها من «الدهرا»، سهل المراعي المشهورة بتندرارة، بتوافر «الأقط» فيها بكميات كبيرة، وكان يؤكل بمفرده أو مع التمر. هذا إضافة إلى «الترفاس» (الكمأة). ونستطيع أن نتصور مدى شغف الناس بهاتين المادتين إذا عرفنا أن الأقط كان في تلك الناحية بمثابة «الشكلاطة» لأبناء اليوم، وأن «الترفاس» كان بمثابة الجبن. . .

وبطبيعة الحال لم يكن يعرف أطفال ذلك الزمان، لا الشكلاطة ولا «الفنيد» والحلوى التي تعج بها الحياة المعاصرة. ومع ذلك ففقدان مادة بعينها لا يعني دائماً غياب ما يوازنها ويقوم مقامها عند الناس. لقد كان أطفال ذلك الزمان يجدون ما يقوم مقام الشكلاطة و «الفنيد» لدى أطفال اليوم فيما كانت تجود به الطبيعة من ثمار خاصة. كان هناك «النبق» الذي كان الأطفال يجنونه من شجر السدر في البادية وقريباً من كثبان الرمال مسلحين بعصي طويلة يضربون بها أغصان ذلك الشجر المليء شوكاً فيتساقط النبق على الأرض، ثم يأخذ الأطفال في جمعه بحذر زائد، ليس فقط اتقاء للأشواك الحادة التي يتميز بها هذا النبات بل أيضاً اتقاء للسع العقارب والزواحف التي لا تخلو من أجحارها مثل هذه الأماكن. وإضافة إلى النبق كان هناك في الجبال المطلة على بوعرفة مجال واسع لجني جذوع «ألامَن»، ذلك النبات القصير الذي يمكن القول عنه إنه كان يقوم لأطفال الأمس بتلك الناحية مقام الموز ـ أو «البنان» ـ لأطفال اليوم، نظراً للشبه بينهما، على الأقل من حيث إن كلاً منهما مغشى بغلاف وأن مادته بيضاء في حجم الموز تقريباً. ويذكر صاحبنا كيف أنه كان يقضي معظم النهار، خلال إقامته في بوعرفة في التجول مع أقرانه في الجبل بحثاً عن النبق و «ألامن»، وكان قد اعتاد على ذلك في مسقط رأسه فجيج.

هذا في النهار، أما في الليل فقد كان صاحبنا يأوي إلى المنزل الذي يسكنه عمه هو وبعض أصدقائه العزب. أما من كان منهم متزوجاً فقد ترك زوجته كالعادة في البلد: كانوا شباناً دون الثلاثين فيما يخيل اليوم لصاحبنا. وبما أنهم كانوا يخافون عليه، وكان في حدود العاشرة من عمره، أن يستيقظ ليلاً قبل رجوعهم من سهراتهم فلقد كانوا يحملونه معهم إلى الدكان حيث تبدأ سهراتهم، يلعبون الورق (الروندة) أو «الشيت»، حتى إذا نام الطفل تركوه هناك وأغلقوا باب الدكان بالمزالج والمفاتيح وقصدوا أماكن أخرى. وإذا كان صاحبنا لا يستطيع اليوم أن يستعيد كيف تعرف على مكان سهر عمه وأصدقائه فإنه يرى بوضوح كيف أنه استيقظ ذات ليلة ليجد نفسه وحيداً في الدكان بين أكياس السكر الأصفر والأحمر و «غراري» (أكياس) الأقط وأنه أشعل المصباح وعمد إلى مزلاج الباب فرفعه وفتح القفل ثم خرج متجهاً وجهة ما، قادته إلى البيت الذي كان يسهر فيه عمه وأصدقاؤه ومعهم نسوة، وتتوسطهم صينية شاي يعلوها دخان كثيف من سجائرهم. . . ولشد ما كانت دهشة عمه عندما رآه واقفاً أمامهم كالشرطي الصغير فقفز من مكانه هو وصديق له وعادا بالطفل إلى المنزل حيث ناما هذه المرة حتى الصباح.

لم يتعرض صاحبنا لأي عقاب أو تأنيب بل على العكس مما قد يتوقعه القارىء، فلقد كان العم يفتخر أمام أصدقائه بكون ابن أخيه، هذا الطفل الصغير، استطاع بمفرده أن يفتح باب الدكان ثم يغلقه ليلحق به، في منتصف الليل، في المكان الفلاني، دون معين ولا مرشد، ودون أن يكون قد تعرف على ذلك المكان من قبل ولا أن يخاف من الليل وظلامه.. وعندما يتذكر صاحبنا اليوم هذه الحادثة لا يجد تفسيراً لهذا الذي كان يفتخر به عمه، والذي سمعه آنذاك يكرره على أصحابه، إلا في ذلك المفهوم الغامض الذي يدعوه الناس بـ «الغريزة». وإذا كان صغار الحيوانات تتعرف على أمهاتها ومكان وجودها بـ «الغريزة» وحدها، فيبدو أن صغار بني البشر الذين لم يفصلهم العقل بعد عن الحيوان فصلاً تاماً، تقودهم «الغريزة» التي تستيقظ عند الأمهات حينما يفتقدن أبناءهن. حقاً إن «الإنسان حيوان عاقل»، ولكن يبدو أنه ليس كذلك دوماً، إذ تقوم الغريزة فيه مكان العقل، ليس زمن الصبا وحسب بل وعلى عهد الكبر أيضاً.

ـ ٣ ـ

سافر صاحبنا مرة ثانية إلى بوعرفة في السنة الموالية، وكان مقامه فيها هذه المرة خالياً من «الجديد» الذي يفرض نفسه على الذاكرة. مشهد واحد احتفظت به ذاكرته من هذه الرحلة التي يبدو أنها كانت قصيرة ومقتضبة، وهو أنه سمع عمه الأصغر الذي كان ذاهباً به من مركز بوعرفة إلى محطة القطار على عربة يجرها حمار، يقول وكأنه يخاطب نفسه: «الصغار يذهبون لرؤية وجدة والكبار يبقون هنا».

كان هذا العم الكادح في الأسرة قد جاء به والد صاحبنا إلى بوعرفة ليساهم في أشغال البناء الخاصة بالدور التي كان يشيدها هناك كجزء من مشاريعه التجارية. ومع أن صاحبنا كان أصغر سناً من عمه هذا فإنه لم يكن «الأصغر» في العائلة، ليس فقط لأنه كان ابن الأخ الأكبر، الرجل الثاني في الأسرة الذي أصبح يقوم مقام الوالد للجميع، على الرغم من وجود الأب كمرجعية عليا، بل أيضاً لأن وضعية هذا الابن كطفل ينتمي من جهة أمه إلى عائلة «أخرى» تقوم بينها وبين «العائلة» قطيعة الطلاق.. إن وضعيته هذه تفرض على من يريد الاحتفاظ به من العائلتين أن يعامله معاملة خاصة: أن يتصرف معه لا كـ «صغير» يوضع في الرتبة الأخيرة، بل كـ «كبير» يوضع في مرتبة «الكبار» إن لم يكن فوقهم.

في هذا الإطار يدخل سفر صاحبنا إلى وجدة قبل عمه «الأصغر» الذي كان يكبره بما لا يقل عن عشر سنوات. وفي هذا الإطار كذلك كانت تقع صنوف الاسترضاء التي كان يعامل بها هذا الطفل من جميع أفراد العائلة، ومنها هذا الامتياز الذي خصه به أبوه: السفر إلى وجدة، عاصمة المنطقة. كان والد صاحبنا قد طلب من أخيه أن يبعث إليه ابنه إلى وجدة مع بعض المسافرين من معارفه. وإذا كان صاحبنا لا يذكر شيئاً غير العبارة المذكورة التي لا شك أنه أدرك معناها بالكامل، كما يدرك الأطفال عادة ما يعتقد الكبار أنهم لا يفهمونه، فإنه لا يستطيع أن يتهم ذاكرته بالزيادة أو بالنقصان بخصوص هذه العبارة: إنه يتذكر بكل وضوح أنه كان جالساً بجانب عمه على عربة يجرها حمار وهي تسير بهم بمحاذاة سكة الحديد على سفح الجبل. كما أن صاحبنا لم يشك، في تلك اللحظة ولا بعدها في عواطف عمه إزاءه. فلقد كان متعلقاً به كباقي أفراد الأسرة، يصحبه معه ويحدثه ويحاول أن ينقل إليه ما يطبع سلوكه وتفكيره من جدية واستقامة. ولذلك يستطيع صاحبنا أن يجزم اليوم بأن ردود فعل هذا العم الكادح الجاد المعروف بصفاء الطوية لم تكن تختلف عن رد فعل الواحد من بني الإنسان على «ظلم» صار مقبولاً لديهم ومفهوماً، يبتلعه الناس كما يبتلعون بدون لذة كثيراً مما يمضغون أثناء وجبة من الوجبات اليومية التي صار المضغ فيها عملية روتينية.

وعبثاً يحاول صاحبنا أن يتذكر شيئاً آخر من رحلته من بوعرفة إلى وجدة: إنه لا يتذكر القطار ومكوثه فيه ولا القريب أو الأقارب الذين سافر معهم ولا لحظة الوصول إلى وجدة، تماماً مثلما لا يتذكر أي شيء عن مجيئه إلى بوعرفة أو مقامه فيها إلى اللحظة التي سمع فيها تلك العبارة من عمه. وإنه لما يثير الدهشة والاستغراب أن تظل العبارة المذكورة، والمشهد الذي يؤطرها في ذاكرة صاحبنا لحظة تفوه عمه بها، عالقة بذهنه، منقوشة في ذاكرته كواقعة يتيمة ليس لها قبل ولا بعد. أليس هذا دليلاً على أننا لا نتذكر إلا ما كان له وقع خاص في نفوسنا؟ وهل كان التاريخ في جملته، تاريخ الأمم والدول شيئاً آخر غير ما كان له وقع في نفوس الناس وتردد صداه بصورة أو بأخرى في نفوس المؤرخين؟ وهل كان يمكن لأي مؤرخ كتابة «التاريخ» لو كان يريد أن يجعل منه سجلاً لجميع وقائع الحياة؟ حقاً إن الذكريات لا تعيش إلا مع النسيان، والتأريخ لا يستقيم بدون ما أهمله التاريخ.

يستطيع صاحبنا أن يؤرخ لزيارته الأولى لوجدة بكل ثقة المؤرخين في تأريخهم للأحداث التي عاصروها. ذلك أن أبرز ذكرى نقشت في ذاكرته نقشاً، لم تنل منها

السنون، هو ما يعرف عند أهل وجدة بـ «زازاة اليهود» (= فتنة اليهود) التي يتذكر صاحبنا مشاهد منها وكأنها حدثت قبل لحظات. جرت هذه الفتنة، كما عرف فيما بعد، بسبب إظهار يهود وجدة ابتهاجهم في ظروف الحرب العربية ـ الإسرائيلية سنة ١٩٤٧، وذلك بصورة استفزت شعور الوجديين الذين لا شك أنهم كانوا يتتبعون بانشغال زائد، عبر الإذاعات والجرائد، أخبار تلك الحرب. . .

ومع أن صاحبنا ـ الذي كان عمره ١١ سنة ـ لا يتذكر أنه كان يعرف شيئاً عن قضية فلسطين، فإنه يتذكر الآن أن عمه الأكبر، الذي كان قد انتقل من بوعرفة إلى وجدة وفتح دكاناً للخياطة، كان منشغلاً بتتبع الأخبار بواسطة جهاز راديو كان عنده في الدكان. وكانت المحطة الإذاعية المفضلة يومئذ عند أهل وجدة هي «راديو طنجة» الذي كان يذيع الأخبار بشيء من الموضوعية والحياد لكون مدينة طنجة لم تكن مستعمرة بل كانت تحت الإدارة الدولية وبالتالي فالإذاعة فيها لم تكن خاضعة للرقابة الفرنسية أو الاسبانية.

يتذكر صاحبنا إذن، وبكامل الوضوح، مشهد «الزازة» الذي حضره، لا متفرجاً، بل مقحماً فيه بفعل المصادفة: ها هو ذا خارج من منزل خالة أبيه، حيث كان يقيم. وها هو ذا يقترب من دكان عمه الذي يقع في أول «قيسارية التاج» بساحة «سيدي عبد الوهاب»، التي تحيط بها متاجر الكتان والثياب بكيفية خاصة، لتمتد هذه المتاجر إلى الأزقة المجاورة التي كانت تقع فيها متاجر الثياب والذهب لأصحابها من يهود المدينة. كانت الشمس ما تزال تنشر أشعتها الذهبية على جدران هذه الأزقة في سكون رتيب كالعادة. وفجأة يقف صاحبنا مشدوهاً، يلتفت يمنة ويسرة ويحاول أن يشق له طريقاً عبر هذه الجموع التي تتحرك في هرج ومرج. المتاجر تقفل أبوابها بسرعة، والأيدي تلوح، والحناجر تصيح، والأحجار تنهال على بعض المتاجر. . . ثم حريق ودخان. وها هو ذا عمه يجري نحوه لاهثاً. . . يمسكه بيده ويعود به مسرعاً دون أن ينبس ببنت شفة، ويدخله دكانه، الذي كان غير بعيد، ثم يغلق عليه الباب و[illegible] ثم ينتهي كل شيء. جلس صاحبنا على المقعد الذي اعتاد أن يجلس عليه في دكان عمه عندما يركب الأزرار أو يكوي القمصان. أما [illegible] وقف غير بعيد من دكانه، يراقب ويتفرج. لقد طوقت القوات الفرنسية منطقة الحادثة بسرعة وبدأت الكبسة «لارافل» (= الاعتقال بالجملة). . .

لا يذكر صاحبنا كم كان قد مضى على مقدمه إلى وجدة عندما وقعت هذه

الحادثة. ولكنه يرجح أن يكون ذلك بعد أسبوعين أو أكثر. دليله على هذا أن مشهد هذه «الزازة» لم يقترن في وعيه بأي شعور بالخوف من أن يضل الطريق وسط تلك الجموع الهائجة، وهذا يعني أنه كان قد تمرّن على الذهاب من منزل خالة أبيه إلى دكان عمه دون الاستعانة بأية علامة أو إشارة. لقد كان من قبل يضع حجارة بجانب كل زاوية عند منعطفات الطريق، متخذاً منها علامة ترشده، راسماً هكذا لنفسه معالم الطريق، طريق العودة. ولا يذكر صاحبنا كيف اهتدى إلى هذه الوسيلة في «رسم خط الرجعة» ولا من أوحى له بها. كل ما يذكره هو أن خالة أبيه وابنتها وأبناءها ظلوا لمدة طويلة «يتندرون» بهذه الطريقة، يحكونها للزوار. ولا يستطيع صاحبنا أن يجزم هل كان ذلك إعجاباً وتنويهاً مباشراً أو غير مباشر بـ «ذكاء» صاحبنا، أم أنه على العكس كان ذلك «التندر» من النوع الذي يخص به أهل المدينة أبناء القرى الذين يتخلل سلوكهم تصرفات تثير الضحك والاستغراب.

وعلى كل فإن معنى «المداعبة» هو الذي بقي حياً في ذاكرة صاحبنا. ومما يزكي هذا المعنى في نفسه هو أن ابن خالة أبيه قال له يوماً: «كيف تعمل للتعرف على طريق العودة لو كنت راكباً حماراً أو سائقاً لعربة يقودها حصان؟». كان عبد الرحمان ثاني أكبر أبناء خالة أبيه، معروفاً بسلامة الطوية وبجدية فريدة يعمرها انبساط وابتسامة دائمان مع تجنب الهزل. أما الكذب، حتى «الأبيض» منه، أما النفاق، حتى ما كان منه مجاملة، فلم يكن لهما مكان في سلوكه، لا مع نفسه ولا مع غيره، أقرباء كانوا أو بعداء، صغاراً كانوا أو كباراً. كان الجميع يأتمنه ويصدقه ويتفهم ردود فعله الاحتجاجية إزاء ما يعتبره الناس عادة جائزاً يقع خارج منطقة الممنوع مع أنه يدخل ـ رسمياً ـ في عداده. ومع أن صاحبنا كان مشدوداً إلى أصغر أبناء خالة أبيه الذي كان في مثل عمره فإنه كان أكثر ارتياحاً واطمئناناً إلى عبد الرحمان منه إلى أي شخص آخر من «الكبار». ولذلك كثيراً ما كان يستيقظ في الصباح الباكر ليصحبه في جولاته على الأحياء العصرية (التي يسكنها الفرنسيون) من المدينة.

كان عبد الرحمان يشتغل عند صاحب مخبزة عصرية ـ وهو فرنسي ـ وكان يوزع «البولانجي» (الخبز العصري) على منازل «المشتركين» من الجالية الفرنسية، على ظهر عربة خاصة لهذا الغرض يقودها حصان أسود يميل إلى الحمرة، مسرج بلجام أنيق ركبت فيه على الحزام الذي يمر بجانب عيني الحصان قطعتان سميكتان من الجلد، لم يكن صاحبنا يفهم وظيفتهما، تماماً مثلما لم يكن يفهم وظيفة النواقيس

المركبة على عنق الحصان والتي كانت تحدث أصواتاً رتيبة تتناغم مع وقع حوافره على الأرض. وكان يحلو لصاحبنا أن يجلس على مقعد «الحوذي» ويمسك اللجام بيده في الأوقات التي ينزل فيها ابن خالة أبيه ليوزع الخبز على الزبناء الذين كانوا يخرجون إلى باب منازلهم مع وصول العربة وكأنهم على موعد معها. كان هؤلاء فرنسيين في غالبيتهم، وكانوا يعرفون بالضبط الوقت الذي تصل فيه العربة، أو على الأصح كان عبد الرحمان يحرص على الحضور إليهم في الوقت المحدد. وقد عرف صاحبنا من ابن خالة أبيه أن نواقيس الحصان التي تسمع من بعيد هي التي كانت تنبههم إلى قرب وصول العربة.

كانت الجولة، جولة توزيع الخبز، تنتهي مع طلوع الشمس قبل الضحى. ولم يكن صاحبنا يرافق ابن خالة أبيه إلى بناية المخبزة حيث كان يعود بالعربة والحصان ـ فصاحب المخبزة لا يقبل مثل هذا التصرف ـ ولذلك كان ينزل في الطريق قريباً من المنزل ليلتحق به عبد الرحمان على رجليه. وكان هذا الأخير يقضي بقية نهاره مع أبيه في الدكان يساعده، وكان صاحبنا يتردد من حين لآخر على هذا الدكان الذي كان مكتظاً بالمواد الغذائية التي كان كثير منها يثير فضوله وإعجابه واندهاشه، إذ لم يكن قد تعرف عليها من قبل، خصوصاً تلك التي تحفظ في علب من الزجاج الشفاف مثل الزبيب والبرقوق الأسود والزيتون وأصناف كثيرة من «الفنيد» ـ الحلوى ـ الزاهية ألوانه: أصفر، أخضر، أحمر... أضف إلى ذلك أكياس العدس وصنوف القطاني والدقيق مما لم يكن صاحبنا قد تعرف عليه من قبل. وحتى التمر الذي كان الغذاء الرئيسي في مسقط رأسه فجيج قد وجد منه في هذا الدكان أنواعاً لم يسبق له أن عرفها من قبل، خصوصاً ما كان يستورد من الجزائر. ويتذكر صاحبنا جيداً أن من المواد الغذائية التي لم يكن قد رآها من قبل والتي تعود عليها بسرعة في هذا «العالم الجديد»، عالم مدينة وجدة، عدداً من الفواكه والخضروات: من الموز إلى الملوخية والسفرجل والبطاطا، إلى البطيخ الأصفر (= الشمام) الشديد الحلاوة، هذا فضلاً عن أنواع من الكعك والحلوى المنزلية والحريرة والخبز.

أجل، لقد تعود صاحبنا على شرب الحساء في فجيج، حساء دقيق الشعير أو مكسوره، ويسمى «إيوزان» يؤكل عقب التمر، «كبساً» له في المعدة وتخفيفاً من وقع حلاوته على اللسان. وكان هذا النوع من الحساء ثخيناً وبدون مواد دهنية، وقد يكتفى فيه بالفلفل الحريف. هذا إضافة إلى حساء الطحين الذي يعد في الغالب بالشحم الملبس وبالفلفل كذلك. ولكن فرقاً شاسعاً بين هذا النوع القروي من الحساء

والحريرة الوجدية (والحضرية المغربية على العموم) التي تتزاحم فيها أصناف عديدة من التوابل والخضروات مع الحمص والعدس وقطع اللحم والبيض.

وكما يختلف حساء فجيج عن «الحريرة» المغربية يختلف البطيخ في تلك المدينة الصحراوية عنه في أماكن أخرى، خصوصاً مدينة بركان المشهورة ببطيخها الأصفر الشديد الحلاوة الذي كان هو السائد في عاصمة المغرب الشرقي. كان البطيخ في فجيج فاقد الحلاوة تماماً، وكان يؤكل عقب وجبة التمر مباشرة، إما ناضحاً «حرحراً» أو قثاء. وعندما أخذت جدة صاحبنا من أبيه تتردد عند أبنائها في وجدة، ثم في الدار البيضاء بعد ذلك، كانت تمتنع تماماً عن أكل البطيخ وتقول: «سر البطيخ أن يؤكل مع التمر، فكيف أجمع حلاوة التمر إلى حلاوة بطيخكم».

أما الخبز «خبز الفران» فقد كان هو الآخر من المعطيات الجديدة على صاحبنا. لقد عرف في مسقط رأسه ومنذ طفولته المبكرة الخبز «البولانجي» (= على الطريقة الأوروبية). فقد كان والده صاحب مخبزة تصنع هذا النوع من الخبز، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. غير أن «خبز الفران» كما تعرف عليه في وجدة كان خبزاً منزلياً يختلف تماماً عن الخبز المنزلي في مسقط رأسه. لقد كان أهل فجيج يعجنون الخبز ويطهونه، بعد أن يختمر، في مطاه عارية مصنوعة من الطين المتماسك كالفخار، فوق موقد يغذيه الحطب. ولم تكن طريقة إعداد «البغرير» و «الثريد» تختلف عن الخبز الخمير إلا بدرجة ليونة العجين ومدة الدلك... أما في وجدة فقد كان الخبز يعجن ويخمّر في المنزل ثم يرشم بعلامة خاصة ويوضع على ألواح يحملها الأطفال عادة على رؤوسهم ذاهبين به إلى فرن الحي حيث يطهى مع خبز الجيران. وكان صاحبنا يصر على أن يتولى هو حمل الخبز إلى الفرن، منفرداً أو مع أصغر أبناء خالة أبيه الذي كان في مثل سنه. لقد كان عالم الفرن عالماً خاصاً: تتجمع الصبية على باب الفرن ينتظرون دورهم صامتين أو متبادلين للأخبار والأحاديث، مشدودين إلى حركات «الفرنتشي» الفائقة السرعة: يدخل الخبز ويخرجه من الفرن بمهارة فائقة وحركات مثيرة للانتباه. ولعل أكثر ما كان يثير اندهاش صاحبنا هو أن «الفرنتشي» لم يكن يجد أية صعوبة في التعرف على خبز كل عائلة على حدة مهما بلغ عدد الخبزات وعدد الزبناء، وذلك رغم الضجيج وضيق المكان، وتشابه العلامات.

على أن الأكلة التي كانت تثير استغراب واندهاش صاحبنا أكثر من غيرها هي أكلة «اببوش» (الحلزون). كان صاحبنا يعرف هذا الحيوان في فجيج، لكنه كان يعتبره كعادة أهل البلد من الكائنات الحية التي لا تؤكل، ليس فقط لأن النفس

تعودت أن تعافها بل أيضاً لمنظرها وشكلها وطريقة عيشها، مثل الضفادع والحلزون والحشرات. . . كان ينفر إذن من وجبة «الببوش» ويبدي تقززه منه بينما كانت خالة أبيه وابنتها تردان عليه، في جو من الدعابة والضحك: «الببوش أفضل ألف مرة من الجراد الذي تأكلونه في الصحراء»، فكان صاحبنا يرد بعنف: «لا. لا. . . الجراد ألذ وأفضل ألف مرة. . » كيف لا يدافع صاحبنا عن الجراد وقد كان يخرج هو وأصدقاؤه يجمعونه في الصباح الباكر عند هجومه على المدينة ويأتون به في أكياس إلى منازلهم ـ كما يفعل الرجال كذلك ـ لتغليه النساء في الماء داخل قدور كبيرة، حتى إذا سلق كفاية وضع على أواني الطعام فتهافت الجميع عليه بنهم: تؤخذ الجرادة ويزال رأسها ومعه أحشاؤها فضلاً عن أجنحتها وسيقانها المشوكة. وقد لا يحتفظ الآكل إلا ببطنها الذي يمتد طويلاً إلى الوراء، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بأنثى الجراد إذ يحتوي هذا القسم من جسمها على عدد لا يحصى من بيضها الأصفر اللذيذ.

أهل الصحراء يُعيّرون أهل المدن بأكل الحلزون. . وأهل المدن يعيرون أهل الصحراء بأكل الجراد. . . فعلاً: «الناس فيما يعشقون مذاهب» كما يقول المثل. ولكن «مذاهب الناس» في هذه الأمور كما في غيرها ليست مجرد ميول ذاتية أو مزاجية، بل هي أساساً ثقافات، أو على الأقل تعبير عن مراتب أو تراتبات في الثقافة الواحدة. والحق أن الأذواق ليست ميولات فطرية، بل تصنعها المواد الغذائية المتوفرة. إن الحفر الأركيولوجي، أو أركيولوجيا الثقافة، يظهر أن البيئة وخصوصيتها الطبيعية الاقتصادية هي التي تقرر في إقبال أهل ناحية على أكل الحلزون والنفور من الجراد، واشمئزاز أهل ناحية أخرى من هذا وعشقهم لذاك. إن الجراد معطى صحراوي كما أن الحلزون معطى بحري، ومدينة فجيج هي إحدى بوابات الصحراء بينما مدينة وجدة على مسافة قريبة من البحر.

ومع ذكر البحر تقفز إلى وعي صاحبنا مفارقة كانت تثير استغرابه وتعجبه: كان كل شيء في وجدة يبدو له كبيراً جداً، أكثر من المعتاد. شيء واحد كان أصغر بما لا يقاس من مدلول الاسم الذي يطلق عليه. إنه ما يسميه الوجديون: «البحر»، وهو ذلك الحوض من الماء الموجود في حديقة صغيرة للزينة أمام بناية البريد. ومع أن صاحبنا لم يكن قد رأى البحر بعد، رأي العين، فإنه كان يتخيله أكبر كثيراً من صهاريج فجيج ومن «المرجة» التي يتجمع فيها ماء وادي زوزفانة في مكان السد

بـ «أترفيعة». . . فكيف يجوز تسمية هذا الحوض بحراً وأبعاده لا تتعدى بضعة أمتار طولاً ومثلها عرضاً وأقل من ذلك عمقاً؟

وباستثناء هذه المفارقة كانت مدينة وجدة تبدو لصاحبنا كبيرة ضخمة. فالشوارع طويلة عريضة والدكاكين كثيرة، والناس أكثر من أن يحصوا، والمتحركون والواقفون منهم أكثر من الجالسين. وذلك على عكس ما اعتاده في مسقط رأسه، حيث المارة قليلون. أما الأزقة المسقوفة فمنعدمة تماماً، وكذلك «مجامع» القيل والقال. فلم يكن الناس في وجدة يجلسون على جانبي الطريق، لا في «مجمع» ولا منفردين كما كان الشأن في فجيج. والشيء الذي شد انتباه صاحبنا في شوارع مدينة وجدة وساحاتها المركزية هو «المقاهي» التي كانت تعج بالناس، يشربون الشاي أو القهوة ويستمعون لأغانٍ يذيعها مكبر للصوت مركب على باب المقهى، إما نقلاً عن إذاعة وإما عن أسطوانة.

لقد كان ذلك من الأمور الجديدة تماماً على صاحبنا، إذ لم يكن في فجيج، زمن طفولته مقاه أو أغان أو مكبرات صوت. كان الناس يشربون الشاي في الدكاكين، اثنين أو ثلاثة لا أكثر. أما في وجدة فالأمر يختلف تماماً، فالصخب وحركات الراجلين والدواب والعربات والسيارات والموسيقى وأصوات المغنين والمغنيات المنبعثة من المقاهي، كل ذلك كان يقع على مسافة بعيدة جداً من هدوء مدينة فجيج ورتابة الحياة فيها فضلاً عن غياب الموسيقى والأغاني غياباً شبه تام إلا في المناسبات وخاصة الأعراس.

يتذكر صاحبنا جيداً أن أكثر الأغاني رواجاً يومئذ في وجدة أغاني محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان من جهة، وأغاني «الشيخ حماض» (= حماد) المغني الجزائري الذي كان على كل لسان، والذي تتميز أغانيه بصوت نايه الذي يشد الألباب إليه شداً. أما موسيقى «أعلوي» التي تؤدى صامتة بواسطة مزمار خاص يسمى «الغايطة» والتي كانت الموسيقى السائدة، إن لم تكن الوحيدة في فجيج، فلقد كانت هي الأخرى حاضرة ومنتشرة في وجدة. وكان يحلو لصاحبنا أن يقف مع الواقفين يستمع إليها في «الحلقات» التي كان يقيمها، خارج صور سيدي عبد الوهاب، أولئك الحَوّاؤون الذين يقدمون لجمهورهم ألعابهم وأعاجيبهم، بما في ذلك حمل الحيات والثعابين على الرقص على نغمات الناي أو المزمار. . .

ومع أن صلة صاحبنا بموسيقى «أعلوي» ترجع إلى طفولته الأولى إذ كان يقف

لسماعها كلما مر، وهو في طريقه إلى بستان أهله من أبيه، أمام منزل الشيخ «عبيد» منافس الشيخ «محمدين» في فجيج يومئذ على هذه الموسيقى، ومع أنه كان كجميع الأطفال يصنع من القصب العادي المعروف أو من قصب البصل هيكلاً لمزمار ومن قصب القمح «زمارة» تركب فيه فيصير كـ «الغايطة» فإن المزمار يبقى دائماً مجرد مزمار. . و «الغايطة» نفسها ليست سوى مزمار، لا أقل ولا أكثر. أما الموسيقى التي تعرف عليها صاحبنا في وجدة، لأول مرة، سواء في صورة أغان أو على شكل موسيقى صامتة فشيء آخر تماماً. . . إن عالم فجيج كان عالم الندرة والاكتفاء الذاتي. . . حتى في الموسيقى والغناء. أما عالم وجدة فقد كان يبدو لصاحبنا، في أول عهده به، عالم الكثرة اللامحدودة، عالم الاختلاط والصخب و «الحلقات» والحركة والتنوع. . . في الغناء والموسيقى كما في الأمور الأخرى.

ومع أن صاحبنا كان معروفاً بطبعه الهادىء فإنه، في وجدة وبالضبط في بيت خالة أبيه، كان يقوم من حين لآخر بـ «حماقات» من تلك التي يأتيها الأطفال للفت الانتباه إليهم وبيان شطارتهم. وهكذا فلكي يبرهن لهم ـ ربما ـ أن لديه هو الآخر القادم من فجيج الصغيرة ما يقدمه كـ «شطارة» لا يستطيع أهل المدن الكبيرة الإتيان بمثلها، كان يتخفى في أماكن لا تخطر لهم على بال ويصيح: «لو عرفتم أين أنا؟» فكانوا يجنون في البحث عنه إذ لم يكونوا يكتشفونه. . حتى إذا بدأ القلق يستولي عليهم وأخذت خالة أبيه تقول: «يا بردي ماذا سأقول لأبيه إن دخل الآن ولم يجد ابنه؟»، حينذاك فقط يفاجئهم بالصعود من البئر ـ وكان قد اعتاد النزول فيه شأن أطفال فجيج عموماً ـ أو يطل عليهم من وراء الجدار على السطح حيث يكون قد تدلى إلى جهة الجيران معلقاً على أطراف أصابعه، وأحياناً يخرج من مكان ما في المطبخ. . . هكذا كان ينتصر على «أهل المدن في عقر دارهم».

ـ ٤ ـ

كان والد صاحبنا يتردد على منزل خالته يومياً. ومن حين لآخر كان يصحبه معه، تارة إلى محطة الحافلة التي تربط بين وجدة وفجيج والتي كان القيّم عليها شريكاً له في بعض أعماله التجارية، وتارة يأخذه معه إلى دكان بسوق سيدي عبد الوهاب كان صاحبه صديقاً له، يبيع الجرائد. وكان والد صاحبنا من المداومين على قراءة جريدة **العلم** المغربية وجريدة **البصائر** الجزائرية. كان يقرأهما على طريقته الخاصة، بدون مراعاة لـ «أبسط قواعد النحو»، فكان يرفع المجرور وينصب الفاعل

ويكسر المفعول به بصورة تستفز الأذن، وذلك إلى درجة أن صاحبنا ما زال يتذكر كيف كان يتضايق من هذا النوع من القراءة، خصوصاً وكان قد أتقن مبادىء النحو في المدرسة بفجيج، إذ كان يومئذ في الصف الرابع الابتدائي.

ومن الأماكن التي اصطحبه والده معه إليها والتي بقيت ذكراها حية في ذهنه: «مكتبة الدرفوفي» (ممثل حزب الاستقلال آنذاك في وجدة وأحد الشخصيات المرموقة بالمدينة). لم يكن صاحبنا آنذاك يدرك مكانة هذا الرجل الوطني المناضل وخصوصية علاقة والده به، إذ كان والده من الأطر الحزبية النشطة بالمنطقة ـ كما سيعرف فيما بعد. ولذلك فإن ما بقي مقترناً باسم المرحوم الدرفوفي في ذهن صاحبنا هو ذلك الكم من الكتب المصفوفة على رفوف دكانه والذي لم يسبق له قط أن شاهد مثله. لقد اعتاد صاحبنا على مشاهدة بضعة كتب ـ ثلاثة إلى عشرة على الأكثر ـ في رف بمنزل أهله لأمه، أو في مكتبة مدير المدرسة.. ولكنه لم يشاهد قط من قبل هذا الكم من الكتب التي كانت تغطي جدران مكتبة الدرفوفي خصوصاً وقد كانت في حجم دكانين. لقد شد منظر هذه الكتب بصر صاحبنا شداً، رغم أنها لا شيء بالقياس إلى ما يشاهده الأطفال اليوم في المدارس والمكتبات والأكشاك وعلى قارعة الطريق. إن صاحبنا لم يكن يتوفر في مسقط رأسه إلا على كتاب التلاوة **(التلاوة المصورة اللبنانية)** وكتاب النحو **(النحو الواضح)** وآخر في الأشياء (لا يذكر اسمه) إضافة إلى كتاب **الأخلاق** لأحمد أمين والذي سبقت الإشارة إلى قصة اقتنائه له. ولذلك فهو لا يستطيع الآن أن يتبين حقيقة شعوره آنذاك وهو مشدود البصر إلى رفوف المكتبة، ولكنه يتذكر جيداً أن المرحوم الدرفوفي كان يبتسم له وهو يمد حزمة من الأوراق إلى والده أخرجها من بين كتب في أسفل رف، وأن والده دس تلك الأوراق بسرعة في حزامه تحت جلبابه بينما وضع بعضها داخل عمامته (قد عرف صاحبنا فيما بعد أنها كانت مناشير وطنية)، فعل ذلك وهو يقول لصاحبنا: «السي الدرفوفي صاحبي، وسيعطيك كل ما تحتاجه من الكتب عندما تنجح في الشهادة (الابتدائية). أما الآن فيكفي أن تقرأ هذا». وتسلم كتاباً من صاحب المكتبة لا يذكر اسمه ولا موضوعه.

هناك ذكرى أخرى لا يستطيع صاحبنا أن يتحدث عن زيارته الأولى لوجدة دون أن ينتصب مشهدها السمعي البصري أمامه انتصاباً يضايق غيره من المشاهد. إن العنصر الرئيسي في هذا المشهد هو تلك الجملة التي همس بها والده في أذنه وسط ظلام السينما وسكونها قائلاً: «انظر ما كان يفعل الإنكليز أولاد الحرام، في مصر».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها صاحبنا إلى السينما: اصطحبه معه والده ذات يوم بعد الظهر إلى سينما «كوليزيه». وكل ما يتذكره صاحبنا من هذه التجربة الفريدة هو تلك الجملة التي همس بها إليه والده حينما ظهر مشهد من «المشاهد الغرامية» في الفيلم (ممثل يقبل ممثلة في فمها قبلة طويلة).

لم يكن صاحبنا قد شاهد قبلة من هذا النوع. كانت القبل التي تعود عليها إما من نوع تقبيل رأس الوالدين أو كبار الأقارب عموماً، وإما من نوع تقبيل العائد من السفر على كتفه. أما تقبيل اليد فلم يكن يمارس قط عند أهل فجيج، ولا كذلك تقبيل الحنك. أما تقبيل الفم فكان أبعد شيء عن تصور صاحبنا. لقد اعتاد أن يرى الطيور تتلامس بمناقيرها، كما تفعل أنثى الطير في تغذية صغارها. أما تقبيل الفم، عند بني الإنسان، فذلك ما لم يسبق له قط أن شاهده وهو في الحادية عشرة من عمره. ومع ذلك كله فلقد أدرك، بنوع من الغموض والتردد، أن ما أشار إليه والده وما عناه بتلك الجملة التي همس بها في أذنه، لا بد أن يكون شيئاً من الأشياء التي تدخل في عداد «المحرمات»: فالمرأة (= الممثلة) شبه عارية والرجل يحيط بيديه على ظهرها ثم يضمها إليه ويقبلها في فمها وهي مسترخية راضية راغبة...

وإذا كان صاحبنا لا يتذكر بالضبط رد فعله أمام هذا المشهد، لكون الجملة التي همس بها والده في أذنه قد أيقظته من ذهوله، بسبب ما كان يرى، لينشدّ سمعه بل كيانه كله إلى «... الإنكليز أولاد الحرام»، فإنه يستطيع الآن أن يجزم بأن رد الفعل الطبيعي الذي كان يصدر منه ومن أبناء جيله أمام مثل هذه المشاهد، التي تكررت أمامهم بعد ذلك، ظل لسنوات، من النوع الذي يعبر بصورة تلقائية عن الاستهجان والإحساس بالحرج: إدارة الوجه يميناً أو شمالاً، أو الانحناء وتركيز النظر على الأرض، مع ما قد يصحب ذلك من عبارات معروفة مثل «أعوذ بالله...».

وعلى كل، فهو يتذكر بوضوح أن العبارة التي همس بها إليه والده بقيت ترنّ في أذنه، وأنه قَبِل بشيء من التردد أن يكون «الإنكليز»، فعلاً، هم الذين حملوا المصريين على مثل ذلك المشهد الذي أراد والده صرفه عنه، إذ إنه ما لبث أن تبين له ما تنطوي عليه تلك العبارة من تبرير. ومع ذلك فلقد كان عليه أن يصدق مضمون العبارة، في عالم ذاكرته، حينما تقدم به العمر قليلاً وأخذ يسمع من رجال الحركة الوطنية ومن معلميه في المدرسة، وعلى رأسهم الحاج محمد فرج، أن حجاب الفتيات وغيره من مظاهر «الانحطاط» كان من عمل «الفرنسيين» الذين أرادوا أن يبقوا على

المغرب متخلفاً مستعمراً. لقد كانت الحملة ضد الحجاب، ومن أجل السفور وضد زيارة الأضرحة وسلوكيات الشعوذة... الخ إحدى الأنشطة الرئيسية للحركة الوطنية يومئذ. ولا يستبعد أن يكون والده ـ الذي كان من أطر الحركة الوطنية كما أشرنا ـ يعتقد فعلاً أن المستعمرين الإنكليز في مصر كانوا وراء أنواع السلوك غير اللائق الذي يشاهده الناس في الأفلام المصرية، تماماً مثلما ساد الاعتقاد آنذاك في صفوف الجماهير الشعبية التي تؤطرها الحركة الوطنية بأن المستعمر الفرنسي هو المسؤول عن جميع مظاهر الانحطاط في الحياة المغربية!

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

لا يتذكر صاحبنا كم كانت مدة إقامته الأولى بوجدة، ولكن يخيل إليه أنها دامت قرابة شهرين، فقد عاد منها إلى مسقط رأسه فجيج وهو يتقن «العربية» (الدارجة الوجدية) بعد أن لم يكن يتكلم سوى الأمازيغية، شأنه شأن أهل فجيج عموماً. أما العربية الفصحى التي كان قد بدأ يتعلمها في المدرسة فقد كانت ـ ولا تزال ـ لغة القراءة والكتابة، وليس لغة البيت والشارع. وتزداد المسافة بينها وبين العربية الدارجة اتساعاً وعمقاً في نفس الطفل إذا كان لا يعرف غير الأمازيغية، نظراً لانقطاع الجسور بين هذه وتلك. فالأمازيغية لغة البيئة المحلية، لغة المحسوس الحاضر. . أما العربية الفصحى فهي لغة القرآن ـ الذي يقرأ ويتلى دون فهم في الغالب ـ ولغة «العلم» الذي يحفظ بدون فهم تقريباً، وأيضاً فهي لغة المجرد. أما «المحسوس» فغائب عنها أو مجهول لأنه ينتمي إلى بيئة أخرى ومحيط آخر (عرب الجزيرة العربية).

والحق أن اللغات الثلاث، الأمازيغية والدارجة العربية والعربية الفصحى، كانت ضرورية كلها للقدرة على التواصل والكلام في مجال مدرسي يقع في منطقة يتكلم أهلها الأمازيغية أصلاً. فهذه الأخيرة لغة البيئة المحلية والإحساسات الذاتية. ولا يستقيم الإفصاح عن مثلها في بيئة حضرية عصرية أو عن معاني تنتمي إليها، إلا بتوظيف مفردات من الدارجة العربية، تماماً مثلما يفعل العرب اليوم ـ وبالأمس كذلك ـ حينما يتحدثون حديثاً ينتمي إلى مجال الثقافة والفكر، فهم لا يستطيعون الاكتفاء بالدارجة وحدها، بل لا بد من اللجوء إلى كلمات من الفصحى، خصوصاً

عندما يتعلق الأمر بمفاهيم تحيل إلى المعاني المجردة.

وكل من يدعي أنه يستطيع الاكتفاء بالأمازيغية في البيئة الحضرية وعالم الفكر، فهو كمن يدعي الاكتفاء بالدارجة في حديثه إلى نفسه أو إلى الناس عن عالم اليوم وأشيائه المادية والفكرية. والذين لا يلجأون إلى العربية الفصحى من المتحدثين بالدارجة مثلهم مثل من لا يوظفون الدارجة والفصحى معاً من المتكلمين بالأمازيغية، هؤلاء وأولئك لا يستطيعون الكلام أبداً عن أشياء عصرنا المادية والمعنوية، اللهم إلا إذا خلطوا كلامهم بالفرنسية أو الإنكليزية أو الإسبانية أو غيرها.

هذا الواقع اللغوي الذي تطبعه الازدواجية اضطراراً كان يفرض نفسه بقوة على معلمي وتلامذة مدرسة النهضة المحمدية يوم كان صاحبنا تلميذاً فيها. ومع أن صاحبنا يذكر جيداً أنه كان قد تعلم العربية الدارجة من ابن خاله الثاني (وكان أخاً لأمه من جهة والدتها وحدها) الذي كان في مثل سنه والذي عاد مع أبيه وأمه إلى فجيج لقضاء بعض الوقت قادمين من غيليزان بالجزائر حيث كانوا يقيمون منذ مدة، فإن مدة أربعة أو خمسة أعوام التي كانت تفصل بين الحدثين، كانت كافية لتجعله ينسى جل ما تعلمه من «العربية». ومعلوم أن الأطفال يتعلمون اللغات بسرعة ولكنهم ينسونها أيضاً بسرعة إذا لم يستعملوها.

ويذكر صاحبنا في هذا الصدد أن أهله كانوا يحكون، باستغراب وتعجب، للأقارب والجيران، كيف أن ابنهم، هذا، نسي الأمازيغية وتعلم العربية، بينما حصل العكس مع ابن خاله، وذلك بعد مدة وجيزة من معاشرتهما أحدهما للآخر. لقد كانت ملازمة أحدهما للآخر طوال النهار في البيت وفي الشارع خلال تلك المدة كافية لتطويع لسانه وتحويله من الأمازيغية إلى العربية.

ومهما يكن فإن مسألة اللغة لم تكن تمثل لصاحبنا أية مشكلة، لا على صعيد التعلم ولا على صعيد مطاوعة اللسان لطريقة النطق والإصاتة. لقد حفظ ما يقرب من ثلثي القرآن في المسيد وهو في التاسعة من عمره، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة والمحادثة بالفرنسية ما بين الثامنة والعاشرة في المدرسة الفرنسية، وتعامل مع العربية الفصحى ـ إلى جانب الفرنسية كلغة ثانية ـ طوال المرحلة الابتدائية وما بعدها.. أما الأمازيغية فقد كانت لغة ـ الأم عنده، ولم تبدأ الدارجة المغربية تحتل مكانتها كلغة ـ أم ثانية ـ إن جاز التعبير ـ إلا في حدود الحادية عشرة من عمره حينما انتقل نهائياً

إلى وجدة حيث سيبدأ دراسته الإعدادية. ولا بد قبل استنطاق ذكرياته في هذه المرحلة من الإنصات أولاً إلى ما تحتفظ به ذاكرته عن زيارته الثانية إلى وجدة.

بعد عامين تقريباً، وبالضبط في بداية العطلة المدرسية الصيفية سنة ١٩٤٩، سافر صاحبنا مرة ثانية إلى وجدة إثر حصوله على الشهادة الابتدائية. لم يذهب به أبوه هذه المرة إلى بيت خالته كما كان الشأن في المرة السابقة، بل لقد فضل أن يسكن معه في منزله الصغير الذي كان قد اشتراه ويسكنه هو وأخوه الأوسط الذي كان خياطاً بوجدة كما ذكرنا قبل. كانت الدار صغيرة: غرفة واحدة ومطبخ وصحن صغير مفتوح على السماء. وكانت على مسافة ثلث ساعة، على الدراجة، من دكان عمه. كان صاحبنا يقضي جزءاً من نهاره في هذا البيت: يقوم بنظافته ويسهر على إعداد الطعام لعمه وصديق له كان يسكن معه، ولم يكن أي منهما متزوجاً: فعمه كان قد طلق زوجته الثالثة أو الرابعة في فجيج. وأما أبوه، الذي كان قد طلق زوجته الثانية أو الثالثة بعد أم صاحبنا، فكان قلما يأكل أو ينام في هذا المنزل في تلك الفترة. أما بقية نهار صاحبنا، خاصة بعد الظهر، فكان يقضيها مع عمه في دكان الخياطة يساعده في هذه المهنة التي سرعان ما صار يتعلمها: يركب الأزرار على القمصان والبذلات ويكويها أو يساعد في ذلك، وفي نفس الوقت يراقب كيف يفصل عمه الملابس ويتعلم على ماكينة الخياطة، التي كانت تدار بالرجل، عندما لا يكون عليها عمه أو أحد مساعديه، أو يقوم بسخرة إلى هذا المكان أو ذاك...

لم يكن مقام صاحبنا في وجدة هذه المرة غنياً بالأحداث، أو على الأصح لا تحتفظ له ذاكرته عنه بذكريات قابلة للحفر فيها، فلقد صارت وجدة عنده مألوفة، والإنسان لا يتذكر عادة اليومي المألوف وإنما يتذكر ما يستجد وما يثير الدهشة... مشهد واحد رئيس يتراءى أمامه الآن وسط فراغ مظلم، يحاكي الظلام الذي كان يحيط بالأنوار التي كانت تلألأ وسط المشهد نفسه الذي جرى في ليلة من ليالي ذلك الصيف.

كان حفلاً حضره جمع من أصدقاء والده وأقاربه. ولا يتذكر صاحبنا بالضبط كيف وصل إلى المنزل الذي أقيم فيه هذا الحفل ولا الشخص الذي قاده إليه. كل ما يمثل أمام عينيه من هذه الذكرى هو أن المنزل كان يقع في أطراف المدينة بجوار البساتين وكان غاصاً بالرجال، يعرف كثيرين منهم: بعضهم جالسون وفي أيديهم كؤوس الشاي وآخرون يذهبون ويجيئون، وأربعة أو خمسة يرقصون وسط الحفل على

موسيقى «أعلوي». . كانت هذه الموسيقى كافية وحدها ليفهم صاحبنا أن الأمر يتعلق بعرس.

فعلاً، لقد أخبره أحد أقارب والده، وكان قد لازمه منذ وصوله إلى الحفل أن الأمر يتعلق بعرس أبيه الذي «تزوج من هنا»، يعني من وجدة. كان هذا القريب يمرر إليه الكلمات بمقدار وكأنه يراقب ردود فعله. ولا يتذكر صاحبنا أنه صدر منه رد فعل خاص. إن كل ما يستطيع أن يستعيده الآن هو نوع من الشعور الحيادي، لا هو فرح ولا هو غضب، لا هو انشراح ولا هو كآبة. . ما يستطيع أن يتبينه في طيات هذا الشعور هو شيء من الاستغراب يمكن أن يعبر عنه اليوم من خلال التساؤلات التالية: لماذا لم يخبره أبوه أو عمه بمشروع الزواج هذا؟ لماذا يقاد إلى حفل العرس دون أن يعلم أين هو ذاهب؟ ولماذا هذا الخوف، منه أو عليه؟ ألم يسبق لأبيه أن تزوج وطلق على الأقل مرتين، وأمه ـ أم صاحبنا ـ مطلقة منه؟ ألم يكن عمه مزواجاً أيضاً؟ ألم تكن تأتي به عمته الصغرى من بيت أهله لأمه لحضور حفل زواج أبيه أو عمه يوم كان في مسقط رأسه طفلاً لا يفهم معنى الزواج؟ إن الزواج والطلاق بالنسبة له كانا من الأمور التي يفقدها التكرار كل سر وكل معنى.

وإذا كانت هذه التساؤلات تبدو اليوم مبررة ومشروعة فإنها كانت في البيئة التي نشأ فيها صاحبنا غير ذات موضوع. لقد كان «مشروع الزواج»، أياً كان، من الأمور التي يخفيها الآباء عن الأبناء، بل الكبار عن الصغار عموماً. إن الزواج وما يتعلق به كان ـ وما يزال إلى حد كبير ـ من الأمور التي تعامل معاملة الأسرار حتى ولو لم تكن فيها أسرار. . .

وعلى كل، فصاحبنا لا يتذكر أنه غادر ذلك المكان تلك الليلة. كل ما يتذكره هو أن ذلك المنزل الذي أقيم فيه حفل العرس صار منذ تلك الليلة منزل الأسرة. لقد كان أوسع كثيراً من المنزل الآخر ـ الذي يستطيع الآن أن يصفه بـ «منزل العزّب». كان هذا المنزل الجديد يقع على الطرف الجنوبي من المدينة، مجاوراً للبساتين والحقول، يشتمل على ثلاث غرف وصحن كبير وبئر. وكان الحي هادئاً لا يسمع فيه إلا نباح الكلاب، خاصة في الليل. ومع أنه كان بعيداً نسبياً عن مركز المدينة ـ نحو نصف ساعة على الدراجة ـ فإن صاحبنا كان يقوم بما يلزم من السخرة على دراجته دون ملل أو كلل. لقد كان هو المكلف بتموين المنزل بالخضر والمواد الغذائية اليومية. لقد كلفه أبوه بذلك، لا على سبيل التسخير واستعمال الأطفال، بل ثقة به وبكفاءته، وأيضاً «تعظيماً» لشأنه ـ ربما ـ أمام الزوجة الجديدة وإشعاره بأن هذا

الزواج لن يغير من الأمر شيئاً، وأن مكانته ستبقى هي هي. ذلك ما فهمه من عدة «مؤشرات» كانت عبارة عن رسائل بـ «الشفرة» العائلية: تارة تأتيه من أبيه وتارة يلتقطها من الزوجة نفسها التي أصبحت تعتبره ابناً لها رغم أن فارق السن بينهما لم يكن يرقى إلى هذا المستوى. وعلى كل، فوضعية هذا «الابن» لم تتغير، بل لقد تعززت أكثر. لقد أسند إليه أبوه مهمة الصرف والنفقة، إذ كان يزوده كل مرة بمبلغ من المال يصرف منه لأسابيع... وتلك مهمة كان يقوم بها عادة ـ على الأقل في عرف الفجيجيين ـ أبو الزوج وأمه.

لم يخطر ببال صاحبنا قط، حتى هذه اللحظة، أن يتساءل: لماذا لم يحضر والد أبيه ولا والدته حفل العرس؟ إن هذا السؤال كان من اللامفكر فيه تماماً، فالزواج خارج فجيج، أو من امرأة من غير بنات فجيج ونسائه، كان من الأمور التي لا يقدم عليها إلا أولئك الذين كانوا في ذلك الوقت في مثل حال من نصفهم اليوم بـ «المتحررين» أو «العصريين» أو «الحداثيين» أو ما في معنى هذه الأوصاف. ولم يكن أمثال هؤلاء كثيرين بين صفوف الفجيجيين في ذلك الوقت، إذ كانوا يعدون على الأصابع.

لقد بدأ سكان فجيج ينفتحون على العالم الخارجي من خلال العمل في المدن الجزائرية المجاورة التي نقل إليها الاستعمار الفرنسي بعض بنيات الحداثة الأوروبية. وكانت الأمهات يخشين على أبنائهن العاملين في الجزائر ـ من «الشرقيات» (نساء أهل الشرق = الجزائريات). وها هم أولاد عابد، الذين كانوا من بين القلائل الذين تفتحوا على العالم الخارجي من خلال التجارة مع وجدة يتزوجون بـ «الوجديات». وهذا أمر كان شديد الوقع على نفس جدة صاحبنا لأبيه. فلقد كانت تشتكي دائماً وبغضب، في أحاديثها مع صاحبنا ـ عندما صار يتردد على مدينة وجدة ـ من كون «يامنة»، أختها من أبيها التي نزل عندها صاحبنا بوجدة وعاشر أبناءها، قد اختطفت أمها الوجدية منها أباها: لقد كانتا أختين من جهة الأب فقط. ولم تكن جدة صاحبنا تعترف بهذه الأخوة الناقصة، لا بل «المغصوبة»... وأكثر من ذلك لا بد أن تكون هذه الأخت هي التي دبرت هذا الزواج لـ «تخطف» منها ابنها مثلما فعلت بأبيها.

لم يكن من الممكن إذن استدعاء هذه الأم لحضور حفل زواج ابنها، هذا الذي «خطفته» الوجديات اللائي سبق أن خطفن أباها.. أما أبوه الذي كان قد بدأ مرحلة الشيخوخة (في نحو السبعين) فلم يكن يُبدي شعوره إزاء مثل هذه الأمور. لقد كان محافظاً فعلاً، ولكن في غير تشدد ولا تشنج، لا يحضر حفلات الأعراس،

وبالخصوص عندما يتعلق الأمر بأولاده: لقد كان ذلك مما لا يليق بوقار الوالد.

هذا ويمكن أن نلاحظ في هذا المقام أن الأمهات الفجيجيات اللائي كن يكرهن، وبغضب، أن يتزوج أبناؤهن من الوجديات، لم يكن يحملن وحدهن مثل هذا الشعور العدائي لبنات ونساء المحيط الخارجي «المتحضر» المجاور لبيئتهن. لقد كانت الأمهات الوجديات أيضاً يكرهن، ويغضب كذلك، أن يتزوج أبناؤهن من «الغربيات»، من بنات تازة وفاس وما إليهما من المدن التي تشكل المحيط الخارجي «المتحضر» المجاور لمدينة وجدة. والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة لموقف الأمهات «الغربيات»، فاسيات ورباطيات الخ... موقفهن من زواج أبنائهن من «الأوروبيات». وسيكون من التفسيرات الساذجة السطحية النظر إلى هذه الظاهرة بوصفها تعبر عن رد فعل تحركه «الغيرة» أو ما في معناها من سلوكيات انكماشية وميكانيزمات الدفاع عن «الأنا» و «الهوية»، الدفاع الذي يقوم به الذي يشعر بالضعف أو بالتهديد إزاء «الآخر»...

إن الحفر الأركيولوجي يكشف عن أن الأمر يتعلق هنا بظاهرة تشي بوجود تراتب ثقافي ـ أو طبقات إن صح التعبير ـ في الثقافة الواحدة. إن اختلاف ثقافة «البادية» (التي تعني هنا كل ما هو خارج المدن، أعني خارج أحيائها الأرستقراطية التقليدية) عن ثقافة «المدينة» (ثقافة الأحياء الأرستقراطية تلك) ظاهرة ظلت ترافق تاريخ المغرب منذ أقدم العصور إلى الآن. وقد أولى ابن خلدون، كما هو معروف أهمية بالغة لهذا الاختلاف بين «البدو والحضر»، بين «خشونة البداوة ورقة الحضارة»، في تحليلاته البيئية الاجتماعية الاقتصادية الثقافية التي أطلق عليها اسم: «علم العمران». وبما أن التطور العام، الاجتماعي الاقتصادي السياسي الثقافي، في المغرب كما في بلدان العالم العربي والإسلامي وما يسمى بـ «العالم الثالث» عموماً، كان يتم، إلى حدود منتصف القرن الماضي، بخطى بطيئة مع مد وجزر، فلقد بقيت ثقافة «خشونة البداوة» وثقافة «رقة الحضارة» معطيين متمايزين متكافئين كتمايز وتكافؤ سفحي الجبل الواحد. وعندما بدأ المد الأوروبي الحداثي ينتشر ويتغلغل من خلال الاستعمار، وبدأ هذا الأخير يغرس بنيات الحضارة الحديثة في الأقطار المستعمرة مركزاً على «المناطق النافعة»، أخذ مركب ثقافي آخر، أوروبي «حداثي»، يترسب شيئاً فشيئاً فوق ثقافة «رقة الحضارة» وعلى هوامشها، ليتحول «الجبل» الثقافي ذو السفحين إلى ما يشبه مقطعاً جيولوجياً من طبقات ثلاث: مقطع ثقافة «خشونة البادية»، ومقطع ثقافة «رقة الحضارة»، ومقطع ثقافة «العصر الحديث».

وإذن فموقف الأمهات في فجيج من البنات الوجديات مثله مثل موقف الأمهات الوجديات من البنات الغربيات وموقف الأمهات في المدن الأرستقراطية المغربية من الزواج بالأجنبيات (الأوروبيات)، مواقف تعكس التراتب والطبقية في الثقافة المغربية، لا، بل عصوراً ثقافية متتابعة ومتدافعة، ليس على صعيد الواقع المعيشي وحسب بل أيضاً على صعيد الذكريات.

لنترك الواقع «الراهن» جانباً. . ولنعد إلى الذاكرة ومعطياتها.

ـ ٢ ـ

قبل سنة أو نحوها من زواج والد صاحبنا كانت تجارته قد تعرضت لنكسة خطيرة، لا بل لضربة قاضية. لقد كانت مساهمته في الحركة الوطنية، متنقلاً كإطار حزبي بين فجيج من جهة، ووجدة وبركان وأحفير من جهة ثانية، مصدر قلق للسلطات الفرنسية المحلية التي كانت قد دشنت آنذاك مسلسلاً من القمع العام الشامل في جميع أنحاء المغرب، فقامت بسلسلة من الملاحقات والمتابعات والنفي طالت معظم الأطر الوطنية النشطة.

في هذا الإطار تعرضت تجارة والد صاحبنا لضربة مميتة. فلقد اكتشفت عند شريكه بضائع «غير مرخص بها»: مواد غذائية وأثواب، من جنس البضائع التي كانت تشكل قوام التجارة في ظروف الحرب العالمية الثانية وبعدها، في هذه المدينة الحدودية. اعتقل شريك والد صاحبنا فاضطر هذا الأخير إلى صرف جميع ما كان بين يديه من أموال على المحامين وفي المحاكم والوسطاء ولدى رجال السلطة الفرنسية وذوي النفوذ فيها. . . وإذا كان قد تمكن بذلك من اتقاء الاعتقال والمحاكمة بتهمة «مخالفة القوانين التجارية» فإن السلطات الفرنسية لم تتردد في توجيه تهمة الانتماء لحزب الاستقلال إليه، وبالتالي نفيه إلى مسقط رأسه فجيج ـ التي عاد إليها هذه المرة مع زوجته الجديدة. لقد وضع تحت الإقامة الإجبارية وفرض عليه المثول يومياً في مكتب الحاكم الفرنسي لإثبات الحضور. وذلك ما فعلته سلطات الحماية الفرنسية مع معظم العناصر النشطة في الحركة الوطنية آنذاك. ولم يكن هذا النفي ليحول بينه وبين ممارسة النشاط الوطني في مسقط رأسه مع الوطنيين هناك، وفي مقدمتهم زعيم الحركة الحاج محمد فرج، مما جعل حاكم فجيج يعتقله ويودعه السجن بدون محاكمة، لا يغادره إلا ليعود إليه، طيلة ما يزيد عن سنة، لتقرر السلطات الفرنسية في النهاية

التخلص منه وإعادته إلى وجدة.

أما صاحبنا فقد قضى تلك المدة (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) مع والده في فجيج، وكان الحاج محمد مدير المدرسة قد فتح قسماً تكميلياً للتلاميذ الذين نجحوا في الشهادة الابتدائية، ومن بينهم صاحبنا. لم تكن الدراسة في هذا القسم منتظمة لعدم وجود الأساتذة فكان الحاج محمد، وبعض مساعديه من معلمي الابتدائي يتولون تدريس بعض المواد التراثية، الفقهية واللغوية والأدبية، إضافة إلى دروس في التاريخ القديم وحصص في الفرنسية والحساب. ومع أن صاحبنا يتذكر جيداً أن الدراسة كانت متقطعة غير منتظمة فإنه يدرك الآن، بناء على معطيات ذاكرته وحدها، أن تلك السنة لم تكن بالنسبة له مجرد سنة تكميلية، بل كانت في واقع الأمر سنة تأسيسية في حياته الثقافية.

إنه يدرك جيداً، ومنذ مدة ـ وهذا ما سبق التلميح إليه في فصل سابق ـ أنه إلى تلك السنة ترجع اللبنات الأولى في صرحه الثقافي، وبالتحديد على مستوى التعامل مع النصوص التراثية وبناء علاقة الألفة والمعاشرة معها من جهة، وعلى مستوى الكتابة واكتساب «الدربة» عليها وتحصيل ملكتها من جهة ثانية. إن عبارات ونصوصاً من مختصر خليل وألفية ابن مالك وقصائد امرىء القيس وزهير ابن أبي سلمى وغيرها لا زالت تفرض حضورها في «حافظة» صاحبنا منذ تلك السنة التكميلية، فينطق بها لسانه كلما استدعتها المناسبة. وباستثناء قصائد كان يستظهرها لشوقي وحافظ ابراهيم والبارودي فإن نصوص النثر العربي الحديث، نصوص المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين وجرجي زيدان الخ... كان بعضها ينسي الآخر في ذاكرة صاحبنا لأنها لم تكن نصوصاً لـ «الحفظ» بل مجالاً للمطالعة الحرة، ومع ذلك فما تزال آثارها، أمام عين ذاكرته، «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد». كما تتراءى أمام ناظريه الآن، ومرة أخرى، مشاهد من دفاتر وأوراق كان يسودها من إنشائه كل يوم في موضوعات لا يتذكر منها شيئاً سوى أنها محاولات كتابية في موضوعات شتى: مذكرات، وصف... نظم الشعر... الخ.

وإذا أضفنا إلى ذلك انكبابه كل يوم، إلى درجة الولوع الشديد، على الجبر والهندسة وتمارينهما، مرجعه فيهما كتابان اقتناهما في وجدة، واحد بالعربية لمؤلف لبناني (فاخوري) وآخر بالفرنسية لمؤلفه (لوبوسي)، استطعنا أن نكون فكرة عن برنامجه اليومي الذي كان يضبطه جدول «استعمال الزمن» معلق على جدار غرفة الضيوف في بيت أهله لأبيه، وكانت قد تحولت إلى مكتب خاص به. كانت معظم

خانات هذا الجدول مملوءة بما كان يقرره هو نفسه حسب ما كان في متناول يده من مراجع وكتب. لقد كان الحضور الأسبوعي إلى المدرسة، خلال تلك السنة التكميلية، محصوراً في بضع ساعات وبصورة متقطعة، مما ترك المجال واسعاً للعمل «العصامي»، خصوصاً في بيئة لم يكن فيها ما يستهلك وقت الفراغ غير اجترار اجتراراً في «مجامع» على حافتي الأزقة تعاد فيها نفس المرويات والمشاهدات والقيل والقال وما جد أو ندر من تشبيهات «تومزيا»، كما بينا سابقاً. وكان صاحبنا عزوفاً عن هذه المجالس لا يرتادها إلا نادراً، ربما بسبب طبعه «الانطوائي»، بعض الشيء، وربما بتأثير ما امتلأت به طفولته من «صحبة» كبار السن: جده لأمه وجدته لأبيه وخاله وعماته. ولا بد من أن نضيف إلى ذلك تأثير «الفكرة الوطنية» عليه: فلقد استقر في وعيه آنذاك بتأثير من معلميه ومدير المدرسة، ومن أبيه كذلك، «أن الاجتهاد في الدراسة والتحصيل واجب وطني، لأن الاستعمار إنما تغلب علينا بسبب الجهل السائد فينا».

ـ ٣ ـ

قررت السلطات الفرنسية إعادة والد صاحبنا إلى وجدة منفياً إليها بعد أن كان منفياً إلى فجيج كما ذكرنا. وهكذا سيلتحق صاحبنا بوالده وعمه من جديد في عاصمة الناحية، وجدة، ولكن لا ليقضي عطلة صيفية في منزل وضيافة خالة أبيه وأبنائها، أو في دكان عمه يتعلم الخياطة ويقوم بالسخرات الضرورية للمنزل والدكان، كما كان الشأن من قبل، بل لقد قدم هذه المرة إلى وجدة للالتحاق بالقسم الإعدادي الذي فتحته هناك إحدى المدارس الحرة الوطنية المعربة، التي كانت تنتمي إلى سلك المدارس الحرة التي أنشأتها الحركة الوطنية كبديل للتعليم الفرنسي الذي كرسته سلطات الحماية وجعلت منه «التعليم الرسمي». لم يكن «التعليم الحر» في ذلك الوقت تعليماً تجارياً كما هو الحال اليوم، بل كان «حراً» بمعنى أنه غير خاضع لتوجيهات السلطات الفرنسية، وأيضاً بمعنى أنه وطني يخدم الثقافة الوطنية والتفكير الحر، فضلاً عن أنه كان مجانياً أو شبه مجاني.

ثلاث ذكريات تلوح مشاهدها أمام ناظري صاحبنا الآن عن هذه المدرسة التي قضى فيها سنة دراسية واحدة (١٩٥٠ ـ ١٩٥١).

أما الأولى فتتعلق بالمدرسة ونظام الدراسة فيها وما كسبه منها. كان مدير

المدرسة ـ مدرسة التهذيب العربية بوجدة ـ من الرجال العاطفين على الحركة الوطنية، وكان جزائري الأصل، ومن قدماء الجنود في الجيش الفرنسي، فكان يدير مدرسته بأسلوب «عسكري» يحرص أشد الحرص على الانضباط والامتثال والنظام وعلى النظافة وحسن الهندام مع بساطته. كان التلاميذ صنفين: صنف يدرس طول النهار جميع المواد، وآخرون يلتحقون بالمدرسة مساء بعد خروجهم من المدارس الرسمية الفرنسية، ليحضروا دروس اللغة العربية والثقافة الوطنية. وكانت العربية لغة التدريس مع عناية بالفرنسية كلغة ثانية للتلاميذ المعربين.

لقد أبرزنا في الفقرة الماضية الدور التأسيسي الذي كان للسنة التكميلية التي قضاها صاحبنا في فجيج بعد الشهادة الابتدائية، ويستطيع أن يؤكد الآن أن السنة التي قضاها في إعدادية وجدة كانت مكملة للأولى معوضة لجوانب النقص فيها. كان الأساتذة في هذه المدرسة من نوع آخر ومستوى آخر. كان أستاذ الرياضيات والطبيعيات طبيباً متطوعاً تخرج حديثاً، وكان أستاذ اللغة العربية والآداب والتاريخ عصرياً في منهجيته، «حداثياً» في تفكيره. أما أستاذ اللغة الفرنسية فلم يكن يقل مستوى ولا تشدداً عن الأساتذة الفرنسيين في المدارس الرسمية. وهكذا فإذا كان صاحبنا قد اكتسب في السنة التكميلية في فجيج القدرة على التعامل مع النصوص التراثية من جهة، وتعود على العمل العصامي من جهة أخرى، فإنه يتذكر الآن أن أهم ما اكتسبه من إعدادية وجدة وأساتذتها المرموقين هو الانفتاح على الدرس المنظم، على المعارف العصرية والمنهجية الحديثة.

أما الذكرى الثانية التي تحتفظ بها ذاكرته عن مدرسة «التهذيب» بوجدة فهي ذكرى ذات طابع خاص. كان القسم (الصف) الذي التحق به صاحبنا لا يتجاوز عدد تلاميذه الثلاثين، من بينهم ست بنات. وكان عمر الجميع متقارباً في حدود الخامسة عشرة. كانوا إذن في سن المراهقة وعلى مشارف «البلوغ». كانت البنات يلبسن الجلباب المغربي المعروف، ولكن يكشفن عن وجوههن بمجرد وصولهن إلى المدرسة. وكن من العائلات الميسورة نسبياً. كن يجلسن على الكراسي الأمامية على الصف الأيمن. ولم يكن بينهن وبين البنين أي اتصال، فلم يكن يلتفتن إلى جهتهم ولا كُنّ يختلطن بهم خلال فترات الاستراحة، بل كنت ينتحين جانباً. ومع أن الأستاذ المرحوم مصطفى المشرفي ـ وكان هذا اسم المدير ـ كان معروفاً بشدته ومعاملته «العسكرية» للتلاميذ والأساتذة فقد كان صاحبنا يطمئن إليه إذ لم يكن في سلوكه ما يتناقض مع نظام المدرسة، هذا فضلاً عن أن والده كانت تجمعه بهذا المدير

رابطة العمل الوطني، وهي رابطة تعاطف وصداقة. لذلك تلقى صاحبنا بنوع من الاستغراب الأمر الذي بعث به المدير إليه وإلى صديقه الذي يجلس معه على نفس الطاولة يطلب منهما الحضور ـ ذات يوم ـ إلى مكتبه في فترة الاستراحة. لقد كان صاحبنا يعرف أن هذا النوع من «الاستدعاء» لم يكن من أجل شيء آخر غير العقاب. وعبثاً حاول هو وصديقه ـ وكان من مدينة بركان ـ التكهن بما سيقوله لهما المدير. لقد كانا متأكدين من أنهما لم يأتيا ما يستوجب العقاب: فعلاقتهما بالأساتذة طيبة مع حظوة وتقدير خاص، إذ كانا يحتلان المرتبة الأولى في التمارين والاختبارات، كما أن أياً منهما لم يكن قد ارتكب، لا داخل المدرسة ولا خارجها، ما يستوجب استدعاء المدير لهما...

وهكذا وقفا أمام باب مكتب المدير، ينتظران أن ينادي عليهما، يغمرهما شعور غامض: نوع من الاطمئنان مشوب بالحذر. غير أن هذا الاطمئنان قد تبخر بسرعة البرق بمجرد أن فتح المدير باب المكتب، فلقد بدا متجهماً يتطاير الغضب من عينيه ولحيته التي تملأ وجهه كله، وبجانبه، على طاولة خاصة، تلك العصا التي تنزل على راحة أكف التلاميذ كالسوط، كلما ارتكب أحدهم ما يستوجب «التهذيب». كان العقاب، إذا تولاه المدير بنفسه، في مستوى مرتبة «المدير»: فالضربات تتوالى بسرعة على اليدين بالتناوب لمدة لا يستطيع التلميذ المعاقب تقديرها، إذ كان عليه أن يحبس أنفاسه ويعض لسانه حتى لا يصرخ ولا ينبس ببنت شفة.

ومع أن صاحبنا كان «يرى» الضربات تنهال على يديه، والعصا ما تزال ممتدة كالأفعى على الطاولة، والمدير لم يواجههما بعد بما يستوجب العقاب، فإنه كان يحاول حمل نفسه على الاطمئنان إلى أن المدير سيتراجع لأنه سيكتشف عند استنطاقهما أنه لا شيء يستوجب عقابهما. غير أن هذا النوع من الصبر والمصابرة، الذي يحاول به الإنسان عادة مغالبة الخوف والقلق، سرعان ما أصبح غير ذي موضوع، فلقد رفع المدير العصا ودفع بالتلميذين إلى زاوية من المكتب وطلب منهما مد أيديهما.. وبدأت الضربات تنهال عليهما. ولم تتوقف العصا عن الصعود والهبوط إلا بعد أن فقدت الأيدي الإحساس بالألم، وصار التلميذان يمدانها بصورة تلقائية وبوتيرة واحدة تملأ امتداد ذلك الزمن الميت.

استرجع صاحبنا وعيه فجأة وعاد الزمن الحي، زمن التهمة الباطلة التي تعصف بالغفلة والهدوء وتسقط بالنفس في بحر من الدهشة والقلق. لقد قال لهما المدير، وهو يشير لهما بعصاه بالخروج من مكتبه: «إذا عاودتما مرة أخرى «الدسارة»

على البنات (= معاكستهن) بأرجلكما، من تحت الطاولة، فسأكسرها على رأسيكما وأطردكما بصفة نهائية». عادا إلى الفصل بسرعة يسابقان الخطى، وأكفهما تحت إبطيهما من خلاف، إذ لم يكونا يستطيعان تركهما مستلقيتين من شدة الألم. وما إن دخلا الفصل حتى لاحظ صاحبنا أن إحدى البنتين اللتين تجلسان على آخر مقاعد البنات على اليمين تنظر إليهما بابتسامة كلها تَشَفٍ وخبث، وعرف صاحبنا وصديقه أثناء الاستراحة الثانية أن تلك البنت قدمت شكوى إلى المدير تتهمهما بمعاكستها بالأرجل من وراء، خلال حصة من حصص مساء اليوم السابق.

كانت هذه الفتاة في نحو السادسة عشرة، تكبر زميلاتها بنحو سنة، وكانت ضيقة العينين، «بلقاء» البشرة، في غير ما مسحة من جمال، تحرص على الظهور بمظهر الفتاة «المثالية» إلى درجة يصعب معها اتهامها بالكذب أو بالرغبة في إيذاء الناس. لم يكن من عادة صاحبنا الجلوس في المقعد الرابع على اليمين وراء البنات، غير أنه كان قد جلس فيه فعلاً هو وصديقه في تلك الحصة التي ادعت الفتاة أنهما لكزاها خلالها بأرجلهما عمداً ومعاكسة. وبطبيعة الحال فالانضباط «العسكري» لا يسمح لهما بالاحتجاج لديها ولا حتى باستفسارها أو الاعتذار إليها بإفهامها أنه إذا كان قد حصل أن اصطدمت رجل أحدهما برجليها فإن ذلك سيكون قد حدث بصورة آلية وبدون قصد. لم يكن هناك سبيل للاستفسار ولا للاعتذار.. ولا لمعرفة لغز هذا الاتهام، غير أن الحقيقة لا يمكن طمسها، فأمام الناس دائماً ألف سبيل للتعرف عليها.

ـ ٤ ـ

يرتبط مشهد هذه الذكرى في ذهن صاحبنا بذكرى ثالثة، من نوع آخر، تقدم وقائعها تفسيراً للاتهام الذي وجهته تلك الفتاة المحترمة لصاحبنا وصديقه، تفسيراً لم يكن ليصدقه صاحبنا لولا أنه أتاه وبلغة تعلو مفرداتها على ميزان الصدق والكذب، اللذين توزن بهما لغة الكلام: لغة بصرية، لاسمعية، ترسلها عينان إلى أخريان إرسالاً متصلاً اتصال الخيط الذي تمسكه حمامتان بمنقاريهما... أو اتصال العمود الضوئي الذي كان يفسر به بعض الفلاسفة عملية الإبصار.

كان صاحبنا يجلس عادة وبتلقائية «بريئة» في المقعد الأمامي على الصف الذي يقع إلى يسار مقاعد البنات. وكان مكتب الأستاذ يقع إلى الأمام على اليمين، فكان

التلميذ الذي يجلس في المقعد الأمامي محاذياً للجدار، على اليسار، يلتقي ببصره، عندما يتجه صوب الأستاذ، بوجوه التلميذات، وأيضاً بأبصارهن، عندما يلتفتن إلى اليسار علانية أو خفية. كانت تربط صاحبنا بتلميذة كانت تجلس على المقعد الأمامي في صف البنات علاقة «التقاء النظر» من النوع الذي سنشرحه، وقد فهم منها، من خلال تجدد هذه العلاقة في اليوم التالي لتعرضه هو وصديقه لعقاب المدير، أن ما حمل تلك الفتاة، التي شكتهما إلى المدير، على الكذب عليهما هو الغيرة، فلقد كان موقعها، في آخر مقعد للبنات، يمكنها من مشاهدة عمود الاتصال الذي يربط بين عيني صاحبنا وعيني الفتاة التي في المقعد الأمامي.

وما يشغل وعي صاحبنا الآن، وقبل الآن منذ أصبح قادراً على استبطان تجاربه والحفر في ذكرياته، هو كنه ذلك النوع من «الاتصال البصري» الذي كان يربطه بتلك الفتاة. إنه يتذكر الآن نظرية ديكارت في تفسير عملية الإبصار. ومع أن العلم قد أثبت خطأها إلا أنه يجدها أقرب إلى تفسير ذلك النوع من الاتصال، الذي يحس الآن أنه يفرض عليه شيئاً من بقايا بطانته الوجدانية. كان ديكارت يعتبر الشعاع الضوئي بمثابة عمود ضاغط ينقل الضوء من الجسم المشع إلى العين، وفاقاً مع نظريته العامة التي توحد بين المادة والامتداد، وبالتالي تنفي الفراغ وتقول بالاتصال. وهكذا يكون اتصال النظر بالنظر، والتقاء العين بالعين يجري، حسب هذه النظرية، عبر عمود ضاغط، تضغط به كل من العينين المتقابلتين على الأخرى: تلامسها وتنقل إليها ما تحمله الأعصاب المتصلة بها، وبلغة الأدباء والشعراء «ما يجيش في قلب صاحبها من أحاسيس ومشاعر»، فيتم الشعور بها في وجدان صاحب العين الأخرى وقد انتقلت إليه بدون توسط اللسان والأذن، بدون وساطة اللغة.

وما يستهوي صاحبنا في هذه النظرية الآن، وهو يحفر في مشهد هذه الذكرى، هو فكرة **«العمود الضاغط»**: ذلك لأنني إذا كنت لا أستطيع التأكد، بالحفر والاستبطان، من أن رؤيتي لهذه الشجرة التي أمامي تتم بفعل «ضغط» يمارسه على عيني شعاع الضوء الذي ينقل صورة تلك الشجرة إلي فإن تجربة التقاء عيني شخص بعيني شخص آخر وتركيز الواحد منهما النظر في عيني الآخر، أو انجذاب عينيه إلى عيني الآخر، تجعل فكرة «الضغط» مبررة تماماً. فالنظر في هذه الحالة هو فعلاً أشبه ما يكون بتبادل الضغط. ولا يزال صاحبنا يتذكر كيف كان هو وأصدقاؤه الصغار يقومون بمباريات «تركيز العين في العين»، والرابح في المباراة هو من يستطيع تركيز عينيه في عيني منافسه أطول مدة دون أن يرف له جفن. والخاسر

هو من يقوى عليه «ضغط» عين منافسه فيتحرك جفنه ويضطرب. وكان الصمود في هذه المباريات، في اعتقاد الأطفال، دليل الرجولة القوية. فالمرأة لا تواجه الرجل عادة في عينيه ـ في الظروف العادية ـ فلا تحدق فيهما بل تنحني ببصرها وتغض من طرفها، علامة على أنوثتها وتعبيراً عن ضعفها ـ على الأقل كما يعتقد «الرجال».

ويستطيع صاحبنا الآن، وهو يستعيد في ذاكرته ذلك «العمود» الذي كان يربط بين عينيه وعيني تلك الفتاة، لفترات من الوقت كانت تستغرق أحياناً المدة التي يقضيها الأستاذ في شرح الدرس، يستطيع أن يؤكد أن ما كان ينساب عبر ذلك «العمود»، وفي الاتجاهين معاً، لم يكن ضغطاً ولا ما يشبه الضغط، بل كان بالعكس من ذلك انجذاباً متبادلاً متصلاً. لم يكن أي منهما يحاول إلحاق الهزيمة بالآخر، بل بالعكس كان كل واحد يطرد الرمش والإعياء من عيني الآخر، وكأن انجذاب العين إلى العين، في مثل هذه «التجربة الاتصالية»، يحررهما تحريراً كاملاً من كل علاقة مع جفنيهما.

وأهم من ذلك، وأبلغ، ما كان ينساب عبر ذلك «العمود»: فلم يكن صورة العينين، لا شكلهما ولا حجمهما ولا أهدابهما ولا حتى «إنسان العين» فيهما... إن ما كان ينساب فيه كان شيئاً آخر تماماً، كان أشبه بتيار دافىء يربط وجداناً بوجدان، ولنقل قلباً بقلب، باعتبار أن الوجدان في هذه «التجربة الاتصالية» يبدو وكأن مركزه القلب أو كأن ثقله يقع كله على القلب فيزداد خفقانه، ولكن لا كما يحدث للخائف أو لمن ينتظر عزيزاً تأخر عن موعد وصوله أو من يسمع اسمه ضمن أسماء الفائزين في امتحان مصيري... لا، إن خفقان القلب في هذه «التجربة الاتصالية» التي تتم باندماج النظر في النظر، بين الفتاة والفتى، خفقان من نوع خاص: خفقان متصل ممتد هادىء دافىء تتقلص فيه حركة القلب إلى درجة الصفر. إنه ذوبان.. لا بل هو «الفناء» الذي تتحدث عنه الصوفية.

لم يسبق لصاحبنا من قبل أن خاض تجربة من تجارب الحب، فلقد كان ما يزال في بداية المراهقة. ومع أن هذه أول «تجربة اتصالية» له من هذا النوع، فإنه إذ يحاول اليوم استرجاعها كاملة مع ما كان يلفها ويسري فيها من شحنات وجدانية، ويؤطرها من معطيات اجتماعية وعائلية، يجد نفسه غير قادر على كبح عناده والاعتراف بالتالي بأنها كانت فعلاً تجربة حب، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بـ «حب معلق»، لا يشكل مشروعاً ولا يتجه نحو غاية أو يتطلع إلى مستقبل. لقد كانت هناك عوامل يستعيد الآن بكل وضوح دورها في صرفه عن إعطاء معنى «الحب» لهذه التجربة يوم كان

يعيشها. إنه يتذكر جيداً أنه كان يعي تماماً أن نظام المدرسة الصارم لم يكن يسمح له بتجاوز تجربة اتصال العينين تحت حماية الاستقطاب الذي يمارسه شرح الأستاذ للدرس. لم يكن هناك أمل في إمكانية الانتقال من لغة العينين إلى كلام اللسان، فكيف بالأحرى إلى ما بعد ذلك. إن نظام المدرسة كان من الصرامة بحيث لم يكن يسمح بالوقوف ولا بالكلام مع أية فتاة. أما خارج المدرسة فالأمر أصعب..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يقرأ بوضوح في عينيها مثل هذا الشعور. كان يقرأ وجدانها مثلما كان يشعر أنها تقرأ وجدانه. كانت أصابع يمنى كل منهما، وبالخصوص السبابة والوسطى، ترسم من حين لآخر، لا علامة النصر، بل علامة الاتحاد والاتصال، ثم تتلاشى هذه العلامة باسترخاء الإصبعين تعبيراً عن اليأس. وإذن فهذا الاتصال الذي كان يعمر الحاضر ويستبد به كان بلا أفق.. كان اليأس يحاصره من كل جانب حتى غدا هذا اليأس نفسه جزءاً من «التجربة»، يأساً معترفاً به، أفقده الاستسلام الطيع له كل مرارة اليأس، فصار محايداً، لا هو حلو ولا هو مر. إن منطق «ليس في الإمكان أبدع مما كان» هو وحده الذي كان سائداً في هذه التجربة. ولذلك كان كل أملها محصوراً في حاضرها.

ليس هذا وحسب، بل لقد كان هناك عامل ثالث قلص من مجال هذا «الإمكان» في وجدان صاحبنا، ولا شك أنه فعل الشيء نفسه في وجدانها هي. كان عم صاحبنا قد تعرف على والد هذه الفتاة، إذ كان من كبار زبنائه يخيط عنده قمصانه ويتبادل معه التحية، وأحياناً الحديث، كلما مر أمام الدكان ذاهباً إلى المسجد أو راجعاً منه. بل لقد كان ذلك طريقه أيضاً إلى داره. كان الاتصال بينهما إذن يتم يومياً، مما فسح المجال لقيام نوع من الصداقة بينهما قوامه الثقة والاحترام المتبادلين.. ومع الأيام تبلور لدى عم صاحبنا مشروع طلب يد ابنة صديقه هذا. ولا يعرف صاحبنا بالضبط كيف علم عمه بكون صديقه هذا له بنت في سن الزواج.. غير أنه لا يستبعد أن يكون قد اكتشف ذلك يوماً عند مرورها أمام دكانه مرتدية جلبابها الأحمر، الذي كان ملفتاً للنظر حقاً.. لقد سمع صاحبنا عمه ذات يوم يتحدث إلى مساعده عن «ذات الجلباب الأحمر».

ومع أن صاحبنا كان يستبعد بينه وبين نفسه أن تقبل المعنية بالأمر الزواج من عمه، أولاً بسبب فارق السن، ثم لكونه كان متزوجاً وطلق، وأيضاً لأن المعنية بالأمر كانت، في تقدير صاحبنا، راغبة في إتمام الدراسة وأنها لن تقبل الزواج قبل البكالوريا ـ تماماً مثلما كان يفكر... لنفسه.. ولها.. ـ مع ذلك كله فإنه كان

يشعر أن مجرد تفكير عمه فيها يكفي ليضطر إلى صرف النظر عن أي مشروع مستقبلي ينقل ذلك «الاتصال البصري» إلى مستوى آخر من «الاتصال». وهل يعقل أن ينافس عمه عليها، حتى ولو على مستوى الحلم؟

انتهت السنة الدراسية، وانقطع الاتصال بين العينين. فلقد انتقل صاحبنا في السنة الموالية إلى الدار البيضاء حيث سيتابع دراسته الإعدادية... وتمر مدة يقدرها صاحبنا الآن ما بين سبعة إلى عشرة أعوام، كاد خلالها أن ينسى تلك التجربة تحت ضغط المسار الجديد الذي دخل فيه. ومع أنه لا يستطيع أن يدعي أن ذكرى تلك التجربة كانت قد غابت تماماً عن وجدانه، ولا أنها كانت تستقر فيه استقراراً، فإنه يستطيع أن يؤكد، بالمقابل، أن مشروع زواج عمه بها قد مات في المهد. أما أخبارها هي فقد انقطعت عنه تماماً، مثلما أنه لا بد أن تكون أخباره قد انقطعت عنها أيضاً. هذا إذا جاز استعمال كلمة «أخبار» في هذا المقام... وعلى كل حال فيبدو أن لأرسطو «الحق» في تأكيده أن ما حدث مرة لا بد أن يحدث مرة أخرى ولو في شكل جديد، طبقاً للتصور الدوري للزمن الذي كان سائداً لدى اليونان. ذلك أن الأقدار أبت إلا أن ترتب لقاء بينهما، ولكن فقط على مستوى «اتصال العينين»، هذه المرة أيضاً. كان صاحبنا يراجع دروسه ذات مساء في حديقة لارميطاج بالدار البيضاء، كما كان قد تعود أن يفعل. وفجأة تبين من بعيد مجموعة من الفتيات بلباسهن الأبيض ـ ممرضات ـ يغادرن الحديقة مصطفات، مثنى مثنى.. وما إن اتجه ببصره نحو صف هاتيك الفتيات حتى شدته إليها شداً قوياً فتاة في وسط الصف كانت هي الأخرى تنظر إليه بنفس الطريقة التي كان ينظر بها.. ترك صاحبنا مقعده في الحديقة ومشى في اتجاه الفتيات، وإذا بدهشة عارمة تعم كيانه عندما اكتشف أن الفتاة التي تنظر إليه هي نفسها... فتاة وجدة. اتصلت أعينهما من جديد، وتبسمت تبسم الذي يفاجأ بما ينتزع منه الفرح، وأحس هو أيضاً بمثل ذلك، ورآها تحرك شفتيها بكلمة لم يسمعها لأنه كان هو أيضاً يحرك شفتيه بكلام لا يسمع... ولم يقله، لأنه لم يكن في الحقيقة يدري ما يقول. ومشى صف الفتيات وهو في وسطه لا تستطيع خرق نظامه، ولا هو يستطيع الاقتراب منه. إن النظام والانضباط قد فرضا عليهما هنا أيضاً ألا يجاوز «الاتصال» مستوى النظر.

انصرف صف الفتيات الممرضات... وعاد صاحبنا أدراجه. وعبثاً حاول بعد ذلك الترصد والانتظار في الحديقة، لفرصة أخرى تجود بها المصادفة. ولكن يبدو أن زمانهما المشترك لا يدور أكثر من دورة واحدة، وأن الرياح قررت، بصفة نهائية، أن تجري في اتجاه آخر...

بعد هذا الاستطراد الذي فرض نفسه على سياق العرض نعود إلى وجدة، إلى ذكرى أخرى من جنس آخر جرت وقائعها، بل «واقعتها» ـ خلال تلك السنة، سنة ١٩٥١. إنها ذكرى وفاة أم صاحبنا. كانت المرحومة قد انتقلت بدورها من فجيج إلى وجدة لتعيش هناك مع أخويها اللذين كانا قد استقرا بها: أخوها من أبيها وأمها الذي تقاعد عن العمل في الجزائر ورحل إلى وجدة ليوظف ما وفره من مال في مقهى يكسب منها قوت عياله، وأخوها من أمها فقط، وكان قد غادر الجزائر قبل سنوات ثم رحل إلى وجدة ليستقر فيها نهائياً يغالب الزمن لكسب الضروري من العيش...

كانت أم صاحبنا قد حصلت في نهاية الأمر على الطلاق من زوجها، بعد أن تداعت صحتها وبرهن زوجها لنفسه، قبل غيره، أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ليدرأ عن زوجته بعض ما كانت تلاقيه و «تكابده» من أمه. وبما أنه لم يكن قد بقي لها في فجيج من تلجأ إليه من الأقربين فقد رحلت هي الأخرى إلى وجدة لتعيش مع أخويها، قريباً من ابنها، الذي كان يدرس في المدينة نفسها يسكن مع أبيه وعمه، ولتعاني في نفس الوقت من مرض تحملته بصمت وصبر، فهي أصلاً لا تشكو ولا تشتكي حتى ولو بلغ بها المصاب ما بلغ. لقد كانت تحرص على التظاهر بالصحة والقدرة كلما زارها ابنها، ولذلك فوجىء بوفاتها. إنه يتذكر، وبانفعال في «الحاضر»، أن وفاة أمه لم ترافقها في وجدانه حين وقوعها أية انفعالات خاصة. لقد كان يعرف أن أمه تعاني من مرض، ولكنه لم يكن يعرف عنه شيئاً، ويستطيع الآن أن يتخيل أنه كان من ذلك النوع الذي يسكن الأجسام بسبب معاناة النفوس.

كان صاحبنا قد اعتاد منذ مدة العيش مع أهله لأبيه، وبالتالي لم يكن يزور أمه في بيت خاله إلا لماماً، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع ولدقائق معدودات. فهي على كل حال «ضيفة» في بيت أخيها وزوجته وأولاده. ومع أن المرأة لا تعتبر ضيفاً عند أي من أقاربها ـ في عرف الفجيجيين ـ بل تعتبر واحدة من الأسرة، فإن صاحبنا كان يشعر أنه من غير المناسب الانضمام إليها والإثقال على خاله. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يشعر في هذه المرحلة من حياته ـ أو أنه يخيل إليه أنه يتذكر الآن أنه لم يكن يشعر ـ بأي انشداد خاص نحوها. إن السنوات التي قضتها عند زوجها في خوف وهلع من أن يزورها ابنها بمحضر حماتها قد خلقت نوعاً من المسافة بين الولد

وأمه: مسافة كان يقبلها ويعترف بها كحق لأمه التي كان يعلم أنها بقيت من أجله بدون زواج إلى أن بلغ السابعة من عمره.. مسافة اعتاد عليها وعوضها بالاقتراب أكثر فأكثر من أبيه وجدته (لأبيه)، وبالاستغراق في دراسته.

فعلاً، كان مستغرقاً في الدرس مرة أخرى ـ كما كان الحال عند وفاة جده لأمه قبل سنتين ـ حينما وقعت «الواقعة» الثانية في غيابه هذه المرة. كانت الساعة حوالى الرابعة بعد الظهر، وكان جالساً في الفصل يستمع إلى الأستاذ (في السنة الأولى من الإعدادي عام ١٩٥١) حينما دق المدير على باب الفصل وفتح الباب ونادى صاحبنا باسمه بهدوء وجدية قائلاً: «فلان.. تعال، أبوك يريدك».. خرج التلميذ من الفصل، وإذا بأبيه وراء الباب يباغته بالقول: «محمد.. تعال... لقد توفيت أمك قبل قليل... اذهب إلى منزل خالك». وصل صاحبنا إلى منزل خاله فوجد الحاضرين منهمكين في تشييع الجنازة... وعاد من المقبرة بعد دفن أمه قبيل غروب الشمس... عاد إلى المدرسة، فقد كانت الدروس تستمر إلى ما بعد المغرب. غير أن المدير والأستاذ نصحاه بالذهاب إلى المنزل للاستراحة هذا المساء.. عاد إلى المنزل في حالة ذهول لا يدري أين كان ولا أين هو، غير أنه لا بد أن يكون قد التحق في صباح اليوم التالي بالمدرسة كالعادة... لقد فاجأته وفاة والدته مفاجأة وجد نفسه معها في موقف شبيه بموقف من يباغته حيوان مفترس مخيف فيواجه الخطر بقوة وسرعة، دون تفكير ولربما دونما إحساس، إذ تتجند كل حواسه وجميع طاقة جسمه لمواجهة الخطر، بالقفز أو بالجري بقوة وسرعة خارقتين. حتى إذا نجا وزال الخطر بدأ حينئذ، في إدراك هول الموقف. وحينئذ فقط، يصفر، ويرتعد، وتخور قواه... ويستسلم لانفعال بعدي يفعل فيه فعله.

* * *

يستطيع صاحبنا أن يجزم، هنا أيضاً، بأن انفعاله حين كتابة هذه السطور ـ هذا الانفعال الذي يبذل جهده كي لا ينعكس على عباراته ـ هو أيضاً انفعال «بعدي». إنه يشعر وهو يكتب بنوع من الرغبة اليائسة في أن تكون وفاة أمه قد تأخرت إلى اليوم، ليقوم بما يفرضه الواجب، لا، بل ليعيش المناسبة بكل مشاعره وجوارحه. بل إنه في الحقيقة يحس برغبة دافقة في أن تكون أمه معه اليوم حية ترزق، ليقوم إزاءها بما يجب. لا، بل يريد أن يعوض لها تلك السنوات السبع التي امتنعت فيها عن الزواج من أجل أن تبقى بجانبه، وأن يجعلها تنسى نهائياً ما قاسته من ألم الفراق، فراق الأم لابنها، كرهاً وقسراً، يوم كانت في عنق زوج واقع كلياً

تحت سلطة أمه، زوج لم ترزق منه بمولود، تنشغل به بعض الانشغال عن مضايقات تلك الحماة القاسية. . .

رغبة يائسة تعبر عن شعور «بعدي»، شعور لم يعرفه صاحبنا في طفولته ولا في شبابه. إنه متأكد ـ اللهم إلا إذا كان هذا عناداً لاشعورياً منه ـ بأنه لم يشعر قط بأنه عانى أو يعاني وضعية مأساوية. بل بالعكس، لقد كان يشعر دائماً ـ أو هكذا يخيل إليه ـ أنه يعيش وضعية طبيعية تماماً، وضعية الحياة العائلية السوية التي تتشكل فيها «الأنا» بصورة عادية طبيعية. ومن دون شك فهو يستطيع الآن، وهو واثق من صدقه وصدق شعوره، أن يقول إن ما جعله لا يعي ذلك الجانب المأساوي في طفولته، يوم كان واقعاً حياً، هو تلك الرعاية التي كان يحظى بها من جانب أفراد العائلتين معاً، عائلة أبيه وعائلة أمه. وإذا كان جده لأمه قد استأثر به في طفولته الأولى، قبل دخوله مدرسة النهضة المحمدية، فإن العناية الفائقة والاهتمام الزائد اللذين كانت توليهما إياه جدته لأبيه قد جعلته يشعر أنها قد عوضت جده لأمه. لقد كانت تحرص على إحاطته بكل حنانها وعطفها وحبها فلم تكن تترك أحداً من أبنائها وبناتها أو أياً كان يمسه بسوء، لا باللسان ولا بغير اللسان. وهو لا يملك إلا أن يجزم أنها كانت تحبه بالفعل وتؤثره على أبنائها وبناتها، وذلك إلى درجة أن محللاً نفسانياً يتحدث لغة «التعويض» قد يفسر سلوكها ذاك بكونه نوعاً من التعويض إزاء ما قد تكون قد قامت به من دور في «الماضي» في حادثة تطليق أبيه لأمه. على أن مسألة «التعويض» هذه تفقد هنا أهميتها ومبررها. فقد تم تجاوزها عندما صارت له تلك الجدة ـ منذ أن تزوجت أمه وهو في الثامنة من عمره ـ بمثابة الأم الثانية، وبقيت كذلك طيلة حياتها المديدة التي احتفظت فيها بكامل قواها الجسمية والعقلية، إلى أن فارقت الحياة عندما قاربت التسعين، وصاحبنا مشرف على الأربعين: أباً لثلاثة أولاد، بنتان وولد، التحق بهم ولد ثان قبيل وفاة والده، بعد ثلاثين سنة من وفاة أمه، وكأن المولود الجديد جاء ليعوض، مع اخوته، من قضى ومضى.

وإذا كان صاحبنا لا يستطيع أن ينكر أنه قد اختزن في نفسه ـ أو ذاكرته لا فرق ـ نوعاً من المعاناة التي غطت عليها وتجاوزتها وقائع أخرى من حياته، فإنه مع ذلك مطمئن تماماً إلى أنه لم يعان في طفولته أو شبابه مما يشعر به الآن من رغبة يائسة في أنه لو. . ولو. . وأكثر من ذلك فهو لا يملك إلا أن يصرح أنه اليوم يغبط نفسه وزوجته وأبناءه الأربعة حينما يجلسون جميعاً حول مائدة الطعام، عند كل وجبة، في جو عائلي حميم. ولا يستطيع أن ينكر أنه كلما حان موعد رجوع زوجته

من عملها وأبنائه من مدارسهم وجامعاتهم إلا ويأخذ القلق يحوم حوله، فيفسد عليه ما هو منهمك فيه من مطالعة أو كتابة، إلى أن يعود الجميع، الزوجة والأولاد إلى البيت. أما عندما يكون في سفر، وقد يحدث له أن ينسى كل شيء عن أسرته حين حضوره ندوة أو إلقائه محاضرة، فإنه ما أن يركب الطائرة في طريق العودة حتى يجد نفسه مشدوداً إلى لحظة الاستقبال، استقبال زوجته وأولاده له في المطار. حين ذاك فقط، عندما يراهم وراء الشباك في المطار ينتظرون خروجه من قسم الجمارك، يعود إليه ذلك الشعور بالغبطة: يغبط نفسه على أنه صار من جديد يتوسط زوجته وأبناءه.

وما دمنا قد استحضرنا، قبل، المحلل النفساني لتفسير سلوك جدته لأبيه إزاءه، حبها ورعايتها، فقد يكون من المفيد استحضاره هنا أيضاً. وسيكون هذا المحلل غير بعيد عن الصواب، في نظر صاحبنا، إذا هو قال عنه إنه مدفوع برغبة لاشعورية ليحقق لأولاده وأمهم ما كانت تفتقده أمه هو، وكان يفتقده معها: أن يكونا معاً وبحضور والده.

مشاعر وتمنيات.. ولكن لا شيء يضمن أن الرياح كانت ستجري بما تشتهيه ذكرياته في وضعها «الحاضر». ومن يدري فلعل الخير محصور فيما كان: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

استسلام..؟ أم واقعية..؟ أم مجرد تبرير..؟

إنها الحياة.. ولا مُشاحَّة في الأسماء.

الفصل السادس

ـ ١ ـ

مع انتهاء السنة الدراسية التي قضاها صاحبنا في السنة الأولى الإعدادية بمدرسة التهذيب بوجدة (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) كانت مدرسة النهضة المحمدية بفجيج قد أثمرت فوجها الثاني من حملة الشهادة الابتدائية. وبما أنه كان من المتعذر جداً فتح سلك إعدادي فيها لعدم وجود أساتذة فقد بات المتخرجون فيها الحاملون للشهادة الابتدائية مهددين بالضياع والعودة إلى الأمية، الشيء الذي يهدد مستقبل المدرسة نفسها. كان لا بد إذن من التفكير في حل لإنقاذ مستقبل المتخرجين من هذه المدرسة الوطنية التي قامت على التحدي: تحدي السلطات الاستعمارية ونظام تعليمها، وتحدي فقر البيئة الصحراوية القاسية، فقرها الاقتصادي والثقافي الذي ما كان يمكن الانتصار عليه لولا عزيمة الحاج محمد فرج وجماعة الأربعين الذين تجندوا للمشروع فعبأوا كل الإمكانات المتوفرة لإنجاحه.

كان لا بد إذن من مواصلة التحدي. ولكن كيف؟

إن كاتب هذه السطور لا يعرف بالضبط كيف تبلورت فكرة إرسال التلاميذ المتخرجين في مدرسة النهضة المحمدية بفجيج الحاملين للشهادة الابتدائية، إلى الدار البيضاء لمتابعة دراستهم الثانوية فيها. لقد كانت المدارس الوطنية الحرة، التي كانت منتشرة في المغرب من أقصاه إلى أقصاه مدارس ابتدائية في معظمها، ولم يكن يشتمل منها على المرحلة الإعدادية سوى أربع أو خمس في المغرب كله وبصورة تجريبية متقطعة، باستثناء «مدارس محمد الخامس» بالرباط التي توافرت لها الشروط الضرورية: دعم مباشر من قيادة الحركة الوطنية والملك محمد الخامس الذي تحمل

اسمه، وتوافر الأساتذة المتطوعين القادرين على تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية، وكان معظمهم من الأطباء والصيادلة والمهندسين الذين تخرجوا في المعاهد والجامعات الفرنسية وكانوا على معرفة، بهذه الدرجة أو تلك، باللغة العربية.

أما في الدار البيضاء، التي عرفت بعض مدارسها الابتدائية الوطنية الحرة أقساماً تكميلية تعثرت لضيق بناياتها التي كان معظمها في الأصل دوراً للسكنى إضافة إلى عدم توافرها على أساتذة أكفاء أو قارين، فقد قررت القيادة الوطنية فيها (= حزب الاستقلال) تجميع ما تبقى من تلامذة تلك الأقسام التكميلية في مدرسة «عبد الكريم الحلو» (وهي بناية مدرسية عصرية شيدها أحد الأثرياء الوطنيين من ماله الخاص، وحملت اسمه). وقد أرادت الحركة الوطنية بهذا المشروع حل مشكلة حاملي الشهادة الابتدائية الوطنية الحرة في الدار البيضاء والأقاليم المجاورة، فالتحقت بها مجموعات من حملة الشهادة الابتدائية، من أبي الجعد وبني ملال والجديدة وغيرها. وكانت أبرز مجموعة «إقليمية» فيها هي مجموعة التلامذة الفجيجيين الذين كان صاحبنا واحداً منهم.

من فجيج... إلى الدار البيضاء. مسافة ألف كيلومتر.. من واحة على تخوم الصحراء الكبرى إلى عاصمة المغرب الحديث، عاصمته الصناعية والتجارية... الخ، كيف؟ ولم لا وجدة أو فاس أو الرباط؟

يبدو أن قيادة الحركة الوطنية لم تكن قادرة في تلك الفترة ـ وهي التي كانت تعيش تحت الضغط والقمع ما بين سجون ومناف وأشكال أخرى من التعسف وخنق الأنفاس ـ على تبني مشروع للتعليم الإعدادي والثانوي قادر على استيعاب المتخرجين في مدارسها الابتدائية، دراسة وسكنى ومتطلبات أخرى. ولذلك اكتفت بإنشاء مرحلة إعدادية في الدار البيضاء تستقبل الطلبة من جهات مختلفة، على أن تتولى القيادات الوطنية المحلية، في تلك الجهات، النفقة والإشراف المادي على التلاميذ القادمين منها. وبما أن عدداً متزايداً من العمال والحرفيين الفجيجيين كان قد بدأ يستقر في الدار البيضاء، وكانوا جميعاً من شباب الحركة الوطنية، فقد قاموا بتوجيه من الحاج محمد فرج بتشكيل لجنة تسهر على إقامة التلاميذ، خريجي مدرسة النهضة المحمدية بفجيج، في الدار البيضاء لمتابعة دراستهم الإعدادية والثانوية في مدرسة عبد الكريم الحلو المذكورة.

لا يتذكر صاحبنا بالضبط السبب الذي جعله يتأخر أياماً في وجدة عند افتتاح

الموسم الدراسي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢. والغالب أن والده كان ينتظر أن تفتح المدرسة التي تابع فيها صاحبنا دراسته في السنة الإعدادية الأولى أبوابها للتأكد مما إذا كان مديرها سيواصل فتح أقسام المرحلة الإعدادية أم أنه سيتوقف عند السنة الأولى، خصوصاً وسلطات الحماية الفرنسية كانت قد دشنت سياسة قمعية جديدة فاعتقلت القادة الوطنيين وجميع العناصر النشطة، وضيقت الخناق على المشاريع الوطنية وفي مقدمتها التعليم الوطني الحر.

ومهما يكن، فقد التحق صاحبنا بالدار البيضاء ليجد مجموعة من رفاقه القدامى في مدرسة النهضة المحمدية بفجيج من جيله والجيل الذي جاء بعده يدرسون في ثانوية عبد الكريم الحلو، منهم من قُبل في السنة الثانية إعدادي، وكانوا قد قضوا سنة في القسم التكميلي بفجيج، والباقي التحق بالسنة الأولى. لم يجد صاحبنا صعوبة في الالتحاق بالسنة الإعدادية الثانية خصوصاً وكان قد اجتاز امتحانات نهاية السنة الإعدادية الأولى بوجدة بتفوق، علاوة على ما كان قد تلقاه بالقسم التكميلي بفجيج.

كان التدريس باللغة العربية، مع عناية باللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى. وكان معظم الأساتذة من رجال الحركة الوطنية، خصوصاً منهم الذين تولوا تدريس المواد الأدبية (اللغة العربية، الفقه، النحو والبلاغة، الأدب العربي، التاريخ والجغرافيا). وكان على رأس هؤلاء السي بوشتى الجامعي، الذي كان بحق الساهر على المشروع كله: مشروع إنشاء ثانوية عربية وطنية حرة بالدار البيضاء لحل مشكلة المتخرجين في المدارس الابتدائية الوطنية الحرة... أما أساتذة المواد العلمية فقد كانوا من العناصر الوطنية الذين تابعوا دراستهم في المدارس الفرنسية بالمغرب والتحقوا بجامعات فرنسا، وجلهم لم ينهوا مرحلة الإجازة (الليسانس) كاملة لسبب أو لآخر. لقد كانت معرفتهم باللغة العربية محدودة جداً، سواء على مستوى قواعد اللغة أو على مستوى المفاهيم والمصطلحات، مما جعلهم يضطرون إلى استعمال الفرنسية بصورة أو بأخرى.

وفي هذا الصدد يتذكر صاحبنا جيداً كيف أن أستاذ الرياضيات كان يكتب على السبورة النظرية الهندسية أو المعادلة الجبرية بالفرنسية ويطلب من التلاميذ ترجمتها معه إلى العربية. ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى تعرب هذا الأستاذ المقتدر، الذي كان يحظى بإعجاب وتقدير الجميع، فأصبح يملي بالعربية ويشرح بالعربية. وفي نهاية السنة قال للتلاميذ: «العربية لغة جيدة وسهلة لولا المثنى». والواقع أنه كان يعاني

من إعراب المثنى مع إن وأخواتها، خصوصاً في الهندسة حيث يكثر استعمال عبارات التثنية في الحديث عن خصائص الزوايا والمثلثات وغيرها من الأشكال الهندسية. ومهما يكن فإن هذه الصعوبات المهنية لم تكن تعني شيئاً على الإطلاق بالنسبة لهؤلاء الأساتذة الذين كان منهم متطوعون وآخرون يقنعون بمرتب زهيد ومتقطع: فالتلاميذ لم يكونوا يدفعون رسوماً والأساتذة كانوا يعتبرون العمل في هذه المدرسة ومثيلاتها واجباً وطنياً. ولذلك، فكما أن التحاقهم بهذه المدرسة كان تحدياً لمضايقات سلطات الحماية كان كذلك تحدياً للمشاكل المهنية، وفي مقدمتها التدريس باللغة العربية التي كان عليهم أن يتعلموها وهم أساتذة يدرسون. إنه جيل الرواد.. جيل التضحية من أجل الاستقلال الوطني والإعداد له.

ـ ٢ ـ

عندما التحق صاحبنا برفاقه وأصدقائه التلاميذ الفجيجيين في الدار البيضاء وجدهم «يسكنون» في دكاكين الخياطة التي كان يعمل فيها مستضيفوهم من أبناء مدينتهم الذين تكفلوا بالجانب «المادي» من مقامهم هناك.

كانت تلك الدكاكين ـ وتقع في حي «درب الشرفاء الطلبة» ـ تحتوي على «طابقين»: أرضية الدكان، و «سدة»، وهي عبارة عن سقف من الخشب يتوسط ارتفاع سقف الدكان. كانت ماكينات الخياطة تحتل الأرضية، بينما كانت «السدة» مخصصة لخزن البضاعة، وأيضاً للنوم إذا كان صاحب الدكان غير متزوج ولا بيت له. على هذه «السدات»، إذن، كان «يسكن» التلاميذ الفجيجيون في الشهور الأولى من التحاقهم بالدار البيضاء: فيها كانوا ينامون، وعليها أو على أرضيتها يهيئون أكلهم. أما غسل ملابسهم وتنشيفها فقد كان يتم في «العوينة» المجاورة، التي كانت تحتوي، إضافة إلى صنابير الماء، على أحواض لغسل الأواني والثياب، وأيضاً لملء الجرار الجلدية والحاويات الحديدية التي كان أصحابها يطوفون بها في الأزقة يبيعون «الماء الحلو» للمنازل التي لم تكن تتوفر على تجهيزات الشبكة العامة لتوزيع الماء.

كانت وضعية استثنائية فعلاً، تلك التي عاشها صاحبنا والطلبة الفجيجيون إخوانه، في الشهور الأولى من مقامهم في الدار البيضاء: ينامون مصطفين كالسردين «على السدات» أو بين ماكينات الخياطة، ويهيئون أكلهم في قدور جماعية متزودين بالخضر والخبز من «القريعة» القريبة منهم، وهي سوق شعبية للأشياء القديمة

والرخيصة. أما مذاكرة الدروس وإنجاز الواجبات المدرسية فكانوا يقومون بها في حديقة لارميطاج العمومية، في منتصف الطريق بين المدرسة وأماكن سكناهم، وهي مسافة كانوا يقطعونها على الأرجل، أو على الدراجات... ومع أن حالهم صارت أفضل عندما انتقلوا إلى شقة من ثلاث غرف (وكان عددهم نحو العشرين) فإن وضعيتهم الغذائية بقيت سيئة للغاية، وكان صاحبنا من أوائل ضحايا تلك الوضعية حيث أصيب باضطرابات معوية حادة سرعان ما صارت مزمنة.

كان المرحوم بوشتى الجامعي من أكثر القادة الوطنيين في الدار البيضاء اهتماماً بالتعليم الوطني الحر عامة والطلبة «الآفاقيين» خاصة، وفي مقدمتهم الطلبة الفجيجيين، بكيفية أخص. كان يتصل بهم في المدرسة ويسأل عن أحوالهم ويبذل جهده لحل مشاكلهم، سواء خلال السنة الأولى التي قضوها في مدرسة عبد الكريم الحلو أو في المدرسة المحمدية التي انتقل إليها التعليم الثانوي العربي الحر، وعندما تعرض صاحبنا لتلك الأزمة المعوية الحادة ذهب به السي بوشتى إلى أحد الأطباء الوطنيين الذي تولى علاجه ومراقبة حالته الصحية. ويتذكر صاحبنا جيداً ذلك الحديث الذي دار بين الطبيب والسي بوشتى والذي أكد فيه هذا الأخير على ضرورة حل مشكلة هؤلاء الطلبة قبل أن يسقطوا جميعاً فريسة للأمراض.

لم تمر سوى أسابيع حتى هيأ رجال الحركة الوطنية بالدار البيضاء وفي مقدمتهم السي بوشتى ومحمد بلمنصور ـ وكان منفياً من وجدة ـ داراً أكثر اتساعاً وتهوية لسكنى الطلبة الفجيجيين وآخرين من أبي الجعد وبني ملال. ثم رتبت لهم وجبات الأكل في مطعم خيري كانت قد أقامته محسنة لتقديم وجبات إضافية للتلاميذ الفقراء بأحد أحياء الدار البيضاء. لقد تحسنت وضعية الطلبة الفجيجيين إذن. غير أن اعتماد المطعم المذكور اعتماداً كلياً في وجباته الغذائية على القطاني (= اليابس من الفول والعدس والجلبانة) تسبب في أمراض معوية مزمنة للكثيرين منهم.

ومع ذلك، فلم تكن الوضعية المادية لهؤلاء الطلبة مما يشغل بالهم. لقد كانوا يعرفون الظروف الصعبة التي كانت تجتازها الحركة الوطنية على عهد الجنرال جوان والجنرال كيوم اللذين كانا من أكثر المقيمين العامين الفرنسيين في المغرب إمعاناً في قمع الحركة الوطنية وتضييق الخناق عليها. وهكذا لم يقترب صيف عام ١٩٥٣ حتى طالت حملة الاعتقال والنفي السي بوشتى وأساتذة آخرين فضلاً عن القادة الوطنيين على صعيد المغرب كله. وكان من نتيجة ذلك أن توقفت الدراسة الثانوية بالمدرسة المحمدية في وقت كان طلبتها يتهيأون لامتحان الدورة الأخيرة. وتفرق الطلبة

الفجيجيون شذر مذر. بعضهم سيسافر إلى المشرق العربي، وبكيفية خاصة إلى سورية لمتابعة دراستهم الثانوية، وبعضهم سيبقى في المغرب. وكان صاحبنا من هؤلاء. لقد كان والده منفياً إلى فجيج، وكانت وضعية أسرته المادية لا تتحمل النفقة عليه، لا في المغرب ولا خارجه.

ـ ٣ ـ

كانت أزمة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ عامة شاملة. لقد سجلت هاتان السنتان منعطفاً تاريخياً ومرحلة انتقالية ـ من عهد «الحجر والحماية» إلى «عهد الاستقلال والحرية» ـ بالنسبة للشعب المغربي كله. ولما كان الكفاح الوطني والنقلة النوعية التي حققها خلال هذه المرحلة ينتمي إلى ذاكرة «أخرى»، ذاكرة التجربة السياسية التي خاضها صاحبنا والتي ستكون موضوع جزء خاص من هذه الحفريات، فإن «الحفر» سيتركز هنا على الجوانب التي ترتبط مباشرة بالمسار الشخصي لكاتب هذه السطور. والحق أن المرحلة التي نتحدث عنها كانت أيضاً بالنسبة لمسار صاحبنا «منعطفاً تاريخياً» و «مرحلة انتقالية».

وإذا كانت هذه المرحلة التي تزامنت مع بلوغ صاحبنا الثامنة عشرة من عمره تسجل عادة، في العمر الطبيعي والزمن البيولوجي لبني البشر، الانتقال من مرحلة الطفولة والمراهقة إلى مرحلة الشباب والرجولة، وفي العمر الاجتماعي (والاقتصادي والفكري) الانتقال من «حجر» الارتباط بالأسرة إلى «حرية» الاستقلال عنها، فإن الأزمة السياسية العامة التي تميزت بها هذه المرحلة قد طبعت الجوانب المذكورة بطابعها، فتركت بصماتها في المسارات الشخصية لكثير من الناس في المغرب. وبالنسبة لصاحبنا كان وقع هذه الأزمة عليه مباشراً وعلى مستويات عديدة، احتفظت له ذاكرته عنها بالوقائع التالية:

قلنا لقد تميزت هذه المرحلة بالقمع المنهجي الشامل الذي مارسته السلطات الفرنسية على الحركة الوطنية المغربية والذي توجته بخلع ونفي محمد الخامس. كان نصيب صاحبنا من هذا القمع، نصيبه الأول زمنياً، أن أبعدت السلطات الفرنسية من جديد والده من وجدة، حيث كان يحاول استئناف نشاطه التجاري، إلى فجيج حيث فرض عليه نظام الإقامة الإجبارية. أما عمه الذي كان خياطاً في وجدة والذي انتقل إلى الدار البيضاء ليمارس نفس المهنة فلم يكن قد استقرت به الحال عندما

توقفت الدراسة في المدرسة المحمدية وانقطع حبلها بصاحبنا. وهكذا لم يكن أمامه من خيار سوى الانضمام إلى عمه الخياط والعمل معه مساعداً، خصوصاً عندما مكنهما عمه الأصغر ـ الذي كان يشتغل عاملاً مع إحدى الشركات الفرنسية ـ من مبلغ من المال للانطلاق به كرأس مال أولي. لم يكن صاحبنا، هذه المرة، يركب الأزرار ويكوي القمصان كما كان يفعل في دكان عمه بوجدة، بل لقد صار الآن مكلفاً بتسيير الدكان من الناحية المالية والتجارية بينما تولى عمه الناحية المهنية. كان صاحبنا يشتري القماش من متاجر الجملة بدرب عمر بالدار البيضاء، ثم يعود به سراويل أو بذلات يبيعها للتجار بالجملة في اللباس. . . وسيلته في التنقل: دراجة عادية يحملها من وراء بما استطاعت حمله من المخيطات.

كانت أياماً صعبة تلك التي قضاها صاحبنا خياطاً، ليس لأن المهنة كانت متعبة أو لأنه كان ينفر من العمل اليدوي، كلا. إن المشكلة التي واجهت صاحبنا والتي عانى منها كما يعاني الإنسان من أزمة حادة، نفسية وفكرية، هي مشكلة مستقبله: هل يترك الدراسة نهائياً ويتفرغ لميدان التجارة والمال، أم أنه يترك هذا الميدان ليتفرغ للدراسة؟ سؤال لم يكن الفصل فيه يتوقف على مجرد ميوله واختياره. المشكلة الحقيقية، التي كانت بؤرة الأزمة عنده يومئذ، هي ما بعد الاختيار. لقد كان يشك في نجاح مشروع الخياطة الذي انخرط فيه مع عمه، وفي نفس الوقت كان يحس بأن مسؤولية فشل المشروع ستكون أشد عليه ـ معنوياً وأخلاقياً ـ إذا هو تخلى وترك عمه وجده. وكان يشك أكثر في إمكانية متابعة دراسته: أين وكيف؟

وبينما كان صاحبنا يعاني من بحران من القلق النفسي والفكري جعله يقضي كل يوم ساعات في إحدى الحدائق العمومية ـ التي كان يتردد عليها من قبل للمراجعة والدرس ـ يسرح بخياله في خضم من الأفكار الفارغة الجامدة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويقضي ساعات طوالاً من الليل في أرق موجع وخانق، إذا به تقع عيناه ذات يوم في واجهة إحدى المكتبات التي كان يتردد عليها من حين لآخر، على كتاب بعنوان: **دع القلق وابدأ الحياة** (لمؤلف أمريكي اسمه: ديل كارنيجي ـ ترجمة مصرية). اشترى الكتاب وأخذ يقرأه ويعيد قراءته في الحديقة العمومية كل صباح لمدة أسبوعين أو أكثر حتى تشبع بالطريقة التي يقترحها المؤلف لحل المشاكل، فعزم على تطبيقها والالتزام الكامل والنهائي بما يقرره على ضوئها. إن صاحبنا يدين لهذا الكتاب، ليس فقط في التخلص من تلك الأزمة بل لربما أيضاً في معالجة «قلق الاختيار» كلما اعترض حياته ما يستوجب اتخاذ قرار حاسم.

كان القرار الحاسم الذي اتخذه صاحبنا هو ترك الخياطة ومواصلة الدراسة. وهكذا فما إن بدأت المدارس تفتح أبوابها في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٣ حتى قصد صاحبنا مدير «الثانوية الإسلامية» وهي الثانوية الرسمية التابعة للتعليم الفرنسي بالمغرب والخاصة بالمغاربة المسلمين وحدهم ـ بالدار البيضاء ـ بينما كانت «ثانوية اليوطي» مخصصة أساساً لأبناء الجالية الفرنسية. استقبل هذا المدير الفرنسي صاحبنا ذات صباح بوجه بشوش وأجرى معه محادثة بالفرنسية كان ينوي اختبار مستواه فيها، وذلك بعد أن اطلع على دفتره المدرسي كأحد المتفوقين في اختبارات السنة الخامسة (الثانية إعدادي). وفي نهاية المقابلة قال المدير لصاحبنا: «أنا أتفهم وضعيتك ولا أرى مانعاً في التحاقك بالسنة الرابعة عندنا (الثالثة إعدادي) ولكن لا بد من أن أستشير الأساتذة. عد عندي بعد أيام». وبعد أسبوع عاد صاحبنا يطلب مقابلة المدير فاستقبله لبرهة من الزمن قائلاً: «لم أتمكن بعد من أخذ رأي الأساتذة. عد بعد أيام». وبعد أيام عاد صاحبنا ليتلقى نفس الجواب من المدير.

ثم إن صاحبنا التقى صدفة بتلميذ كان قد التحق بالثانوية المذكورة، في الفترة نفسها، قادماً من مدرسة ثانوية رسمية في مدينة أخرى، وحكى له مماطلة المدير وتسويفه، فما كان من ذلك التلميذ إلا أن ابتسم ابتسامة من يخاطب شخصاً أخطأ الطريق، وقال له: «إنك لم تفهم. إنك تتعب نفسك. اذهب واشتر ديكين روميين من السوق المركزي (سوق خاص بالجالية الأوروبية) واحملهما إلى دار المدير وادفعهما للحارس مع ورقة فيها اسمك، ثم عد إلى المدير بعد ذلك بيوم أو يومين ومعك أدواتك الدراسية». ثم أضاف التلميذ: «ذلك ما فعلته أنا، وفعله من نصحني بذلك وأنا أنصحك بدوري».

«... ديكين روميين».. رشوة.. إلى مدير فرنسي!

أحس صاحبنا بأصوات الرفض تنبعث فيه من كل جانب: من قلبه وعقله.. من أبيه، من الحاج محمد فرج، من السي بوشتى.. من كل ما يمثل في كيانه الكرامة والحق والوطنية. وبدأ يحس بصراع في داخله وبنوع من القلق يدب في نفسه فقرر الحسم في الأمر حسماً تاماً ونهائياً... وهكذا صرف النظر عن الالتحاق بتلك المدرسة وعقد العزم على أن يدرس بنفسه برنامج الشهادة الثانوية (الإعدادية) ويهيىء نفسه بنفسه للتقدم في امتحاناتها كطالب حر.

كان الوضع المادي لعائلته متدهوراً، فوالده منفي في فجيج يعيش مع زوجته

وأمه ووالده وهم جميعاً في حاجة إلى مساعدة. . . أما عمه المقيم في الدار البيضاء فلم تكن الخياطة تدر عليه إلا ما يكاد يكفي مصروفه اليومي. وأما عمه الأصغر فلم يكن يوفر، رغم اقتصاده وتقتيره على نفسه وأولاده، ما يمكن أن يتسع لما يحتاجه صاحبنا لمتابعة دراسته خارج المغرب. كان الحل الوحيد إذن هو أن يعتمد صاحبنا على نفسه: أن يبحث عن عمل يمكنه من إعالة نفسه ويسمح له بمتابعة دراسته في «البيت» والتقدم للامتحانات كمرشح حر. وكان أول ما فكر فيه هو العمل في التعليم.

- ٤ -

ذهب صاحبنا لمقابلة مدير المدرسة المحمدية، التي كان يدرس فيها قبل توقف الدراسة في أقسامها الإعدادية بسبب اعتقال أساتذتها والمشرفين الوطنيين عليها. كانت المدرسة المحمدية في الأصل مدرسة ابتدائية وطنية حرة ومزدوجة اللغة (عربية وفرنسية) وكان مديرها من رجالات الحركة الوطنية لم تكن يد الاعتقال قد امتدت إليه في أول الموسم الدراسي (سيعتقل بعد ذلك). حكى صاحبنا للمدير وضعيته. . وطلب منه أن يقبله معلماً مساعداً في الابتدائي. . كان المدير قد تعرف على صاحبنا من قبل، من خلال علاقته بالسي بوشتى الذي كان له، في تلك الفترة، بمثابة الأب الروحي، فرحب به وعينه معلماً مساعداً في الأقسام التحضيرية بمرتب خمسة عشر ألف فرنك في الشهر (يساوي هذا المبلغ حالياً نحو عشرين دولاراً، أما في ذلك الوقت فلا يستطيع صاحبنا تقدير ما كان يساويه دولار تلك الأيام). وبما أن المدير كان يعرف أن صاحبنا يحتاج إلى مسكن فإنه اقترح عليه أن يسكن في المدرسة في غرفة مجاورة لمكتب الممرض ريثما تفرغ إحدى الغرف في الدار التي تملكها المدرسة ويسكن فيها بعض العزب من المعلمين العاملين فيها والذين قدموا من مدن أخرى.

بالفعل لم تمر سوى بضعة أشهر حتى فرغت غرفة صغيرة في تلك الدار، غرفة كانت في الأصل مطبخاً، فكانت من نصيب صاحبنا، اقتسمها معه، لبعض الوقت، صديق له كان يعمل في نفس المدرسة وكان من زملائه «الآفاقيين» بالمدرسة المحمدية أيام الدراسة فيها. كانت الدار تتألف من طابق أرضي وآخر علوي وصحن مفتوح على السماء. كان الطابق العلوي يسكنه ممرض المدرسة مع عائلته، أما الطابق السفلي فكان يشتمل على غرفتين متوسطتي المساحة يسكن فيهما معلمان للغة الفرنسية

في أقسام الشهادة الابتدائية بنفس المدرسة، بينما كانت الغرفة/المطبخ من نصيب صاحبنا. كانت داراً مظلمة لا تنزل الشمس إلى أرضها قط، تقع وسط الأحياء الشعبية التي يتردد فيها صباح مساء صوت الباعة الجوالين لـ «الماء الحلو»، إذ لم تكن شبكة المياه تغطي جميع الدور في تلك الأحياء. أما الأزقة فقد كانت ضيقة ولم تكن تدخلها السيارات الجامعة للنفايات المنزلية مما جعل هذه الأخيرة تنتشر في كل مكان ويزيدها الأطفال الذين يلعبون بها أو عليها ذيوعاً وانتشاراً. أما قنوات الصرف الصحي فكانت ضيقة وفوهاتها عارية تفيض ماء ووحلاً عند نزول المطر. . .

ولكن في مقابل ذلك كانت هذه الأحياء الشعبية، أحياء درب السلطان، شبه مستقلة، إذ لم يكن يقتحمها الجنود الفرنسيون خوفاً من التيه فيها و «الغرق» بين سكانها، بينما كانت ملجأ للفدائيين الذين كان الواحد منهم ينفذ مهمته في الشوارع المجاورة، يقتل خائناً أو جندياً فرنسياً، ثم ينساب وسط هذه الأحياء ويدخل أي منزل اتفق، ويقضي فيه ما شاء من الوقت ـ ساعات أو أياماً كواحد من أهله ـ حتى إذا اطمأن على نفسه خرج لـ «حال سبيله».

غير أن الأمور لم تكن تمر دوماً بمثل هذه البساطة، إذ كثيراً ما كانت سلطات الاحتلال تلجأ إلى عمليات انتقامية عشوائية: تطوق الحي وتعتقل الناس جملة وقد تطلق الرصاص على أي شخص تشتبه في حركته. وإن صاحبنا ليتذكر جيداً كيف أنه احتاج ذات يوم إلى مسمار في غرفته فخرج لشرائه من دكان قريب، غير منتبه إلى أن الوقت كان الساعة السادسة مساء، وهو الوقت الذي كان يبدأ فيه آنذاك نظام منع التجول. وهكذا، فما إن غادر الدكان حتى وجد نفسه مطوقاً بستة جنود فرنسيين يشهرون بندقياتهم عليه من مسافة بضعة أمتار. وقف مشدوهاً لا يتحرك رافعاً يديه بعد أن أحس برصاصة تمر على مقربة من أذنه اليمنى مخلفة صفيراً حاداً اهتزت له أذنه اهتزازاً. . . تقدم إليه أحد الجنود وفتشه ثم أشار عليه ببندقيته بالركوب في سيارة «الكبسة» (لارافل). قضى صاحبنا نحو أسبوع في كوميسارية (مركز الشرطة) في حالة اعتقال احتياطي ولم يشفع له إلا كونه كان يجيب على أسئلة الشرطة بالفرنسية لغتهم. لقد كان استعمال الفرنسية في الكلام علامة على «التحضر». وكان لهذا التصور بعض ما يبرره، فمقاومة الشعب المغربي للاحتلال الفرنسي في ذلك الوقت (١٩٥٤) كانت قد اتسعت وتعممت لتشمل مقاطعة البضائع الفرنسية بما في ذلك اللغة الفرنسية نفسها.

ـ ٥ ـ

قضى صاحبنا سنتين (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) يعلم في القسم التحضيري وقد ارتفع مرتبه في السنة الثانية إلى سبعة عشر ألف فرنك. وفي نهايتها، أعني في حزيران/ يونيو ١٩٥٥، اجتاز في آن واحد، وبنجاح، امتحان الشهادة الثانوية (الإعدادية) وامتحان الدبلوم الأول في الترجمة، فعينه مدير المدرسة معلماً لأقسام الشهادة الابتدائية ورفع مرتبه إلى خمسة وعشرين ألف فرنك. واغتنم صاحبنا الفرصة فهيأ امتحان الكفاءة في التعليم الابتدائي ونجح فيه (١٩٥٦) في نفس الوقت الذي كان منكباً فيه على التهيؤ لامتحان البكالوريا، معتمداً على نفسه متخذاً من الكتب الفرنسية المقررة في الرياضيات والعلوم بفرنسا مرجعاً له وأستاذاً. كانت تجربة صعبة. وما زال صاحبنا يذكر كيف أنه كان يسهر الليل كله تقريباً، تستهويه التمارين الرياضية والفيزيائية والكيميائية إلى حد الهوس، يحتسي فناجين القهوة الواحد بعد الآخر ويلتهم السجائر التهاماً، فأصبح التدخين له عادة مترسخة منذ ذلك الوقت، لم يتخلص منه ـ بقرار مماثل للقرارات الحاسمة السابقة ـ إلا بعد مضي واحد وعشرين سنة حينما طلب منه طبيب القلب والشرايين ذلك. وتلك مسألة أخرى قد يكون لها مكان في جزء آخر من هذه الحفريات.

لنعد إلى البكالوريا التي اجتاز صاحبنا امتحانها بنجاح في حزيران/ يونيو سنة ١٩٥٧. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تعقد فيها دورة للبكالوريا المغربية المعربة بصورة رسمية، وقد ترأس لجنتها الشهيد المهدي بن بركة الذي قرأ أسماء الناجحين بنفسه في بهو بناية المعهد العلمي (كلية العلوم حالياً).

لقد ترشح صاحبنا كطالب حر وعند اجتيازه الامتحان بات متأكداً من نجاحه مطمئناً إلى إجاباته عن الأسئلة، ولذلك لم يفاجأ حينما سمع اسمه ضمن الأسماء الأولى. ولكن ما إن انتهى المهدي بن بركة من قراءة أسماء الناجحين حتى نادى على اسم صاحبنا. اقترب منه بسرعة لم تتح له خلالها فرصة التفكير أو الإحساس بأي شيء قابل للضبط أو الوصف، فلهجة المهدي وطريقته في النداء، فضلاً عن شخصيته واسمه، كل ذلك لم يكن يسمح له بأي شيء آخر غير الاقتراب منه بسرعة والتقاط ما سيقوله. قال المهدي مخاطباً صاحبنا، وكأنه يعرفه منذ زمان: «لا تنس أن تأتي عندي، في المجلس الاستشاري، في العاشرة والنصف من صباح الغد».

لا يتذكر صاحبنا كيف عاش الساعات التي كانت تفصله عن الموعد الذي لم

يكن يخطر له ببال.. كان النجاح في البكالوريا هدفاً عمل له ليل نهار إلى حد الإنهاك، وكان يتوقع أن تكون النتيجة إيجابية خصوصاً بعد أن تأكد من سلامة أجوبته.. أما استقبال المهدي بن بركة، أبرز شخصية وطنية في ذلك الوقت، فهذا ما كان يقع بالنسبة له خارج مجال المفكر فيه.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها السي المهدي، فلقد سبق له أن وقف إلى جانبه على منصة الخطابة بملعب سيدي معروف بشارع الفداء بالدار البيضاء في بداية خريف عام ١٩٥٥. لقد بدأ انفراج سياسي واسع في ذلك الوقت فعاد قادة الحركة الوطنية من المنفى، وبدأت المفاوضات مع الحكومة الفرنسية حول الاستقلال وإعادة محمد الخامس. خطب المهدي في ذلك المهرجان الذي حضره أزيد من مائة ألف. وكان صاحبنا آنذاك عضواً في الشبيبة الاستقلالية، وكان من الفرقة المكلفة بالمنصة، فشاءت المصادفة أن تكون مهمته الوقوف بجانب المهدي، كما يقف الحراس. إن صاحبنا يرى المشهد أمامه بكل وضوح أشعة الشمس التي كانت تطل من على سطوح المنازل المجاورة في ذلك المساء.. قبل الأصيل. ويتذكر صاحبنا بوضوح أكثر «المشهد الصوتي» الذي ما زال يرن في أذنه والذي يعمره صوت المهدي المتميز وهو يصيح بهدوء وثبات وبلهجة استنكارية: «قال لنا الفرنسيون: خذوا الاستقلال أولاً، ثم أعيدوا محمد الخامس إذا شئتم بعد ذلك. إنه يصعب علينا أن نعيده نحن إلى عرشه بعد أن خلعناه، فالرأي العام عندنا لا يقبل هذا التراجع الذي يمس بكرامة فرنسا». ثم عقب المهدي بصوت قوي جهوري قائلاً: «قلنا لهم: نحن أيضاً نحترم الرأي العام المغربي وندافع عن كرامة الشعب المغربي، ولذلك فنحن لا نقبل الاستقلال إلا بعد عودة محمد الخامس إلى عرشه».

عرف صاحبنا، إذن، المهدي خطيباً. ولكنه لم يسبق له أن تعرف عليه منادياً له ومخاطباً إلا في ذلك الصباح الذي حضر فيه المهدي في الموعد تماماً: التاسعة صباحاً، لإعلان نتيجة امتحانات البكالوريا المغربية، بعد أن كانت قد ترددت شكوك حول إمكانية حضوره، لوجوده، حتى ساعة متأخرة من الليل، في أغادير على مسافة نحو سبعمائة كيلومتر جنوب الرباط. ولكن المهدي كعادته لم يتخلف. فلقد عاد من أغادير إلى الرباط على سيارته في تلك الليلة واضعاً في حسبانه حضور حفل إعلان نتائج أول دورة للبكالوريا المغربية.

استقبل الشهيد المهدي صاحبنا في قاعة الاستقبالات بمكتبه بالمجلس الاستشاري الذي كان رئيساً له (كان ذلك المجلس بمثابة برلمان مؤقت شكل مباشرة

بعد الاستقلال في انتظار أن تتهيأ الظروف «المناسبة» لإجراء انتخابات عامة). استفسر المهدي صاحبنا، عن مسقط رأسه وعائلته... وقد تبين لصاحبنا أن الشهيد يعرف جيداً الحاج محمد فرج. ثم قال له: «لقد لاحظت أن ترجمتك للنص الفرنسي الذي أعطي لكم في امتحان البكالوريا كانت موفقة جداً. ونحن في جريدة العلم (لسان حزب الاستقلال) محتاجون إلى مترجمين. وقد كلمت المسؤول هناك وأخبرته بأنك ستلتحق بالجريدة غداً. ثم أضاف: «أم تفضل بعد غد؟». فرد صاحبنا قائلاً: «ولكني أعمل معلماً في المدرسة المحمدية بالدار البيضاء». فعقب الشهيد المهدي قائلاً: «سنرى هذه المسألة بعد. ليست هناك مشكلة. سأكلم المدير إن اقتضى الحال فهو من أصحابنا كما تعلم. اقضِ العطلة الصيفية في العلم، وسأراك هناك من حين لآخر».

قضى صاحبنا صيف ذلك العام ـ عام ١٩٥٧ ـ (وهي السنة الثانية لاستقلال المغرب)، قضاه في جريدة العلم حيث اشتغل أولاً في قسم الترجمة لينتقل بعد ذلك إلى قسم المراسلات الداخلية. لقد صادف أن كان المرحوم باهي محمد حرمة قد التحق بقسم الترجمة إثر مباراة أجريت لتوظيف مترجمين. فالتحقا معاً في الأسبوع نفسه. ومنذ ذلك الوقت توطدت الصداقة بينهما إلى أن توفي المرحوم في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٩٦، شهيداً للصحافة الوطنية المغربية، لا، بل شهيد النزاهة والاستقامة والبراءة. وعندما التحق صاحبنا بقسم المراسلات الداخلية تذكر أنه كان قد كتب رسالة إلى جريدة العلم، لعلها مقال، وذلك حينما كان يدرس في وجدة سنة ١٩٥١، فأشير إلى تلك المحاولة في بريد القراء مع كلمات تشجيعية. تذكر صاحبنا ذلك عندما أخذ بدوره يحرر بريد القراء في نفس الجريدة...

كان مقر جريدة العلم آنذاك يقع في زنقة ضيقة على شارع تمارة، قريباً من «باب الأحد»، وبجانبه فندق صغير كان يسكنه صاحبنا آنذاك. كان مقر الجريدة عبارة عن بناية متواضعة تتألف من أرضية تتزاحم فيها آلات الطباعة، وطابق على العراء يضم حجرات لمحررين ورئيس التحرير، وأخرى للمدير والمكلفين بالشؤون الإدارية. كان المحررون ـ مترجمون ومصححون ومحررون للمراسلات ـ لا يتجاوز عددهم الثمانية أو العشرة، وكانوا جميعاً من جيل واحد تقريباً: شباب في نحو العشرين. أما الإداريون فلم يكونوا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة. كان الجميع يشتغل كأسرة واحدة يتعاونون ولا يحسبون للوقت حساباً. لم يكن أي منهم صحافياً محترفاً ولا إدارياً متخصصاً، فالاحتراف الصحفي مثله مثل التخصص الإداري كان

أبعد شيء عن الجرائد الوطنية آنذاك. لقد كان العاملون فيها يعتبرون أنفسهم وطنيين مناضلين قبل كل شيء. أما عمال المطبعة فقد كان عددهم لا يتجاوز العشرة، أكثرهم من «منطقة الشمال» التي كانت تحت الحماية الاسبانية، والتي كانت تتميز بجرائدها العربية وبتغلغل التعريب فيها.

وإضافة إلى هؤلاء المحررين الشبان كان يتردد على الجريدة كتاب ومعلقون من الجيل السابق، وكان كثير منهم ممن عملوا في **العلم** بانتظام على عهد الحماية الفرنسية. كان المرحوم علال الفاسي والشهيد المهدي يترددان كثيراً على الجريدة، وكانت وجهتهم دائماً مكتب رئاسة التحرير، ولكن طريقهم إليه كان عبر غرف المحررين. كان الزعيم علال يبتسم للمحررين ويتحدث إليهم باقتضاب في الغالب، وكان يقف مدة أطول، في كثير من الأحيان، مع المرحوم باهي محمد حرمة ليتحدث معه ـ جداً ومزاحاً ـ حول الصحراء وموريتانيا. أما السي المهدي، فكان سريع الحركة، يحيي ويتكلم وهو يمشي كعادته، وكان من جهته يقف أحياناً ليتحدث مع صاحبنا الذي كان يتردد عليه في المجلس الاستشاري من حين لآخر. وكان قد بعثه إلى «طريق الوحدة» حيث عمل في الإذاعة المحلية هناك وكتب تحقيقاً لـ **العلم**. وبما أن علاقة صاحبنا بالشهيد المهدي تنتمي إلى ذاكرة أخرى، ذاكرته السياسية، فلنترك الخوض فيها الآن ولنعد إلى جريدة **العلم**.

لم يكن صاحبنا ينوي المكوث في **العلم** طويلاً، فلقد سبق له أن قرر منذ سنة ١٩٥٣، بصورة حاسمة ونهائية، متابعة الدراسة والإعراض عن كل شاغل آخر. ولذلك طلب من المسؤولين في الجريدة، بمجرد ما انتهت العطلة، السماح له بالذهاب إلى سورية للدراسة في جامعتها واقترح أن يتولى مراسلة **العلم** من هناك. وبدون صعوبة، وفي أسرع وقت حصل صاحبنا على جواز سفر وعلى منحة، وكانت المنح معممة على حاملي شهادة البكالوريا، كما حصل أيضاً على ورقة مراسل لجريدة **العلم**.

عندما عاد صاحبنا إلى المغرب في الصيف الموالي التحق بجريدة **العلم** مرة ثانية. وكان يراسلها فعلاً من دمشق، وكانت مراسلاته في الغالب ذات طابع ثقافي اجتماعي. ولم يكن صاحبنا يتوقع أن يتلقى تعويضاً عن تلك المراسلات، ولذلك فوجىء، عندما زار **العلم** عند عودته من دمشق، بمديرها المرحوم عبد الجليل القباج يستدعيه إلى مكتبه ليسلم إليه ظرفاً وهو يقول: «هذا تعويض رمزي عن مراسلاتك

من دمشق». وكان ذلك أول وآخر تعويض تسلمه صاحبنا عما كتب ويكتب في الجرائد والمجلات المغربية.

استأنف صاحبنا عمله في جريدة العلم الذي تميز هذه المرة بإشرافه على صفحة أسبوعية كانت من اقتراحه، وكانت بعنوان «صفحة المعلم». لقد سبق لصاحبنا أن مارس التعليم سنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فكان مؤهلاً لمتابعة قضية التعليم التي كانت تحتل الصدارة، يومئذ، على الساحة الوطنية. لقد قطعت سياسة «التعميم والتعريب»، التي سلكها المرحوم محمد الفاسي وزير التعليم آنذاك، أشواطاً كبيرة ودخلت في ما يشبه «أزمة نمو» لم يكن المغرب مستعداً لمواجهتها، فتقرر التوقف عن مواصلة التعريب الشامل إلى أن يتم إعداد الأطر اللازمة لذلك. وكان هذا القرار موضوع نقاش وطني عام انعكس على «صفحة المعلم» التي كان صاحبنا يتولى كتابة افتتاحياتها وإنجاز حوارات مع المسؤولين عن التعليم، فضلاً عن مراجعة ما يصلها من مقالات من القراء.

هناك واقعة احتفظت بها ذاكرة صاحبنا، ولا يدري الآن هل يرجع بها إلى صيف ١٩٥٧ أو إلى صيف السنة الموالية. لقد اجتمع المحررون، كالعادة، ذات صباح مع القائم برئاسة التحرير آنذاك الأستاذ محمد التازي الذي كان يكتب مذكرات اشتهرت في ذلك الوقت، فضلاً عن قيامه بمهام رئاسة التحرير. وكان مما عرضه عليهم للمناقشة في ذلك الصباح مراسلة لفتاة بعنوان «مذكرات». ولم تذكر تلك الفتاة اسمها ولا عنوانها وإنما اكتفت باسم مستعار هو «رفيقة الطبيعة». ومع أن مقالتها كانت «متحررة جداً» بالنسبة لما كان يكتب في ذلك الوقت، فقد قررت هيئة التحرير باقتراح الأخ التازي فسح المجال أمام هذه الفتاة التي كانت الوحيدة تقريباً التي كتبت للجريدة كتابة في مستوى ما ينشر. وكانت تلك أول مرة ظهرت فيها «رفيقة الطبيعة» ككاتبة ـ فيما أعلم.

ـ ٦ ـ

عاملان اثنان قد يكونان دفعا صاحبنا إلى اختيار دمشق على غيرها من الأقطار العربية: الأول هو وجود بعض الطلبة الفجيجيين هناك ممن كانوا يدرسون معه في الدار البيضاء وكانوا قد سافروا لمتابعة دراستهم الثانوية بسورية بعد توقف الأقسام الإعدادية في المدرسة المحمدية في حزيران/ يونيو ١٩٥٣. كان من هؤلاء أصدقاء

له كان يراسلهم ويراسلونه. أما العامل الثاني فهو كون نظام التعليم في سورية أقرب إلى نظام التعليم في المغرب لاتباعهما معاً النموذج الفرنسي. وقد شاءت الأقدار أن يلتقي صاحبنا في ميناء الدار البيضاء وهو يستعد لركوب الباخرة بثلاثة طلاب من مدينة أبي الجعد كانوا يدرسون معه في نفس المدرسة الثانوية بالدار البيضاء وكانوا يسكنون في نفس الدار التي خصصتها لهم الحركة الوطنية كمأوى..

كانت الرحلة من ميناء الدار البيضاء إلى ميناء بيروت طويلة ومتعبة. لقد استمرت أحد عشر يوماً. وكان عليهم أن يغيروا الباخرة في مرسيليا التي قضوا فيها ليلة في فندق قديم متداع يسكنه شبان أفارقة من السنغال، يفترشون الأرض ويأكلون «ما تيسر». لقد كان منظرهم مخيفاً، لا لأنهم كانوا سود البشرة فمثل هؤلاء منتشرون في المغرب يعيشون كغيرهم من المواطنين، لا فرق. وفي مدينة فجيج نفسها، مسقط رأس صاحبنا، كانت هناك ـ وما زالت ـ عائلات من الفجيجيين السود تسكن مع باقي السكان وفي أحياء مختلفة منها، عائلات كان لبعضها اعتبار خاص من نوع الاعتبار الذي للعائلات الأرستقراطية نفسها..

وإذن فما بعث الشعور بالخوف في نفس صاحبنا ليس لون أولئك الشبان الذين وجدهم يسكنون ذلك الفندق، بل إن الخوف الذي شعر به لم يكن وليد منظرهم بمقدار ما كان نتيجة «تذكر» حرّكه الاسم الذي كان يحمله أولئك الشبان السود: «السنغاليون». لقد ارتبط هذا الاسم في ذاكرة صاحبنا بـ «الفرقة السنغالية» في قوات الاحتلال الفرنسي التي قمعت بصورة وحشية مظاهرات الطبقة العاملة المغربية بالدار البيضاء احتجاجاً على اغتيال المستعمرين الفرنسيين للزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد في كانون الأول/ ديسمبر من سنة ١٩٥٢. لقد رسخ الجيش الفرنسي في فرق «اللفيف الأجنبي»، وفي مقدمتها الفرقة السنغالية، نوعاً من الطاعة العمياء حولتهم إلى آلات منفذة للأوامر. كان الواحد منهم يؤمر بالوقوف في مكان ما في الشارع فيظل واقفاً لا يتحرك ولا يلتفت وكأنه صنم. وإذا أمر بالهجوم أو بالضرب انطلق لا كبشر بل كآلة في صورة بشر، آلة معبأة إلى حد الانفجار، حتى صار اسم «السنغالي» يطلق على من كان انضباطه وتنفيذه للأوامر فيه كثير من «الزيادة على اللزوم».

ومهما يكن فإن صاحبنا لا يتذكر هل نام تلك الليلة أم بقي بدون نوم. إنه الآن لا يرى نفسه إلا على باخرة تركية يجتر على متنها، مع رفاقه، الساعات والأيام في جو من الرتابة المملة، تحيط بها الزرقة من كل جانب، زرقة البحر وزرقة

السماء. كانت الرحلة طويلة طول الدهر كله، ليس فقط بسبب رتابة الحياة على تلك الباخرة التي كانت لنقل البضائع، مع جناح ضيق للمسافرين من شاكلتهم، بل أيضاً بسبب غياب الأرض: «الأرض» التي تعني هنا «اليابسة» حسب الاصطلاح الجغرافي، وهي لفظة أفقر كثيراً في وجدان الناس من كلمة «الأرض». إن «اليابسة» يابسة حتى في الوجدان. أما لفظ «الأرض» فهو يرسم داخل كيان الإنسان حضوراً مليئاً بالحياة والثبات والرضا.

إن صاحبنا يستعيد في هذه اللحظة داخل وجدانه ذلك الشعور بافتقاد الأرض، الشعور الممزوج بالقلق الذي يقرب من الهوس. لم يكن هذا القلق ناجماً من الخوف على السفينة أن تغرق، فرغم تمايلها ذات اليمين وذات الشمال مع الأمواج، ورغم الصوت الذي كان ينبعث من جوفها، بين حين وآخر، والذي يشبه صوت شجر العرعار الميت حينما يهوي تحت ضربات الحطاب أو بفعل عاصفة هوجاء، أو صوت البعير الجاثم على الأرض، والذي يستحثه صاحبه على النهوض فيرسل صراخاً، ربما استعداداً للوقف ـ وعملية الوقوف أشق على البعير من أي شيء آخر ـ وربما احتجاجاً على ثقل الحمولة، والجمال يحمل عليها وهي جاثمة على الأرض. . . أقول إنه رغم أن السفينة كانت تتمايل وتئن فإن فكرة الغرق كانت غائبة تماماً أو مغيبة، وبالتالي فالقلق الذي كان يشعر به صاحبنا ورفاقه هو قلق على غياب الأرض، أو قل إنه شوق إليها كشوق الطفل إلى أمه التي تركته وحيداً في الدار لقضاء حاجة، ثم تأخرت «أكثر من اللازم». أجل إن عبارة «أمنا الأرض» لا تتشبّع بكل معناها الوجداني، في نفس الإنسان، إلا عندما يبتعد عنها، وتبتعد عنه، لتطوقه زرقة السماء وزرقة البحر من كل جانب. . ولا يشعر الإنسان بضرورة الأرض له إلا حينما يهتز وجدانه ارتياحاً وفرحاً حينما تتراءى له، ولو من بعيد، قطعة من «الأرض»، جزيرة كانت أو شاطئاً.

كان أول شاطىء توقفت فيه السفينة، في طريقها من مرسيليا إلى بيروت، هو شاطىء الإسكندرية. كان فرح صاحبنا ورفاقه فرحاً غير عادي وهم يستعدُّون للنزول في الإسكندرية حيث سمح لهم بزيارتها لمدة ست ساعات بعد الزوال، ريثما تفرغ السفينة البضاعة الموجهة إلى هذه المدينة. كانت فرحة مزدوجة: فرحة «استرجاع» الأرض، و «الرجوع» إليها، وفرحة زيارة الإسكندرية، ليس من حيث إنها مدينة الإسكندرية ذاتها، بل من حيث إنها مصر التي كانت تقترن في ذهن صاحبنا ورفاقه بـ «إذاعة صوت العرب» وخطب جمال عبد الناصر وصوت الجامعة

العربية في الأمم المتحدة لفائدة قضية المغرب وأيام طه حسين الخ. . . لقد كانت مصر ـ والشرق العربي عموماً ـ قبلة الناس في المغرب. فهي الوطنية، وهي التحرر، وهي التقدم. كانت النموذج والمثال للشعوب التي تناضل من أجل استرجاع سيادتها واستقلالها وبناء غدها. . . ومن سوء حظ صاحبنا ورفاقه أنهم، بمجرد ما خرجوا من الميناء، أضاعوا الطريق المؤدي إلى الأحياء العصرية من المدينة، ليجدوا أنفسهم في قلب أحياء، كل شيء فيها كان أبعد ما يكون عن الصورة التي كانت في أذهانهم عن مصر: أحياء مكتظة بالناس، وأزقة ضيقة وسخة يتزاحم فيها الأطفال والشباب والرجال والشيوخ والنساء بأجسامهم وأصواتهم المرتفعة وبألبستهم الشعبية القروية. وأكثر من ذلك ـ وهذا ما أثار استغراب صاحبنا ورفاقه ـ أن بعض الرجال كانوا يمشون في الطرقات بالبيجاما والشباشب الخشبية، مشية المطمئن من الناس إلى حاله وهندامه. إن لبس البيجاما والشباشب، في الطريق وأمام الناس، كان في تصور صاحبنا ورفاقه ـ وهو التصور الذي نقلوه معهم من بيئتهم في المغرب ـ من أعظم الأمور خرقاً للعادة وخروجاً عن المألوف. . .

لم تكن هذه المناظر غريبة عن صاحبنا ورفاقه، فلقد اعتادوا على مشاهدتها في الأفلام المصرية. ولكنهم كانوا يعتقدون أنها كانت تنتمي إلى «أيام زمان» وتُصوِّر «تأخر الماضي» في مقابل «تقدم الحاضر»، الحاضر الذي كانوا يرونه في الأفلام المصرية نفسها مجسماً في السيارات الفخمة والسكنى الرفيعة وحفلات الرقص والزفاف. . . الخ.

ومع أن الشعور بالخيبة، إلى درجة الندم واليأس، كان يملأ نفس صاحبنا، وهو يتجول مع رفاقه في تلك الأحياء الشعبية، ومع أن الخوف قد تطرق بجد إلى قلوبهم بسبب تحديق الناس فيهم من كل جانب وتخوفهم من أن تكون العبارات التي كان الناس يتبادلونها من حولهم جهاراً لغة رمزية للتداول قصد «الانقضاض» عليهم كما يحدث في بعض الأفلام المصرية نفسها. . . رغم ذلك كله تأبى عبارة «هذا ما فعل الإنكليز بمصر» التي كان صاحبنا قد تلقاها همساً من والده كما سبق أن ذكرنا، إلا أن تزاحم في وجدانه مشاعر الخيبة والخوف. لقد انصرف معنى تلك العبارة، وهو غارق في تلك الأحياء الضيقة الوسخة المخيفة، لا إلى مناظر «الرقي» و «قبلة الفم»، كما كان الشأن عندما همس بها والده في أذنه أول مرة، بل لقد انصرف معنى تلك العبارة الآن إلى الوجه الآخر من مشهد السينما المصرية الذي يمثل هذه المرة الحقيقة الواقعية المرة التي تنتصب أمام عيني صاحبنا متحدية صورة مصر التي

حملها معه من المغرب.. لم يكن يستطيع أن يفسر هذا «التأخر» المهين بشيء آخر غير «الاستعمار الإنكليزي»، تماماً كما كانت مظاهر الانحطاط في المغرب تفسر بـ «الاستعمار الفرنسي». ومع أنه كان يشك في أن يكون الاستعمار هو وحده المسؤول عن «التخلف» في المغرب ومصر وغيرهما من البلدان التي ابتليت بالاستعمار، فإن الصورة التي كانت في مخيلته، لا بل في وجدانه، عن مصر الثورة، قلب العروبة، كانت تضر إصراراً على تحميل الاستعمار وحده كامل المسؤولية.

ومع ذلك فـ «الواقع لا يرتفع» كما يقال. لقد كان وقع الصدمة قوياً شديداً على نفسه، وذلك إلى درجة أنه كان يحس بما يشبه الندم على مجيئه إلى المشرق للدراسة، وهو إحساس لازمه طوال المدة التي قضتها الباخرة في طريقها من الإسكندرية إلى بيروت. وعبثاً حاول مطاردة هذا الإحساس باستحضار حال الأحياء الشعبية بالدار البيضاء. إن صورة مصر، النموذج والمثال، كانت تجعل المقارنة غير مشروعة ولا مقبولة أمام ناظريه..

وصلت الباخرة إلى بيروت مع غروب الشمس. وقد وجد صاحبنا ورفاقه طلاباً مغاربة ينتظرونهم في الميناء، وكانوا قد أخبروهم بتاريخ وصولهم. ومع نزولهم في ميناء بيروت والمرور عبر شوارعها الواسعة المضيئة في اتجاه «الجبل» حيث كان أولئك الطلاب يقضون جزءاً من عطلة الصيف، أخذت «الصورة» ـ صورة المشرق ـ تتغير وتتحسن في منظار صاحبنا. ها هي بيروت ـ أعني ما شاهدوه منها ليلاً وهم في طريقهم إلى «الجبل» ـ تختلف اختلافاً كلياً عن تلك الأحياء التي كانت تمثل في مخيلته الإسكندرية كلها، ومصر كلها بل والمشرق أيضاً. وشيئاً فشيئاً تغيرت الصورة في ذهنه تماماً: إنه الآن يستحضر الأحياء العصرية في الدار البيضاء.. والطريق من فاس إلى إيفران: عالم آخر. لقد تأكد الآن من صدق ما قاله له أحد أولئك الطلاب الذين استقبلوهم في ميناء بيروت، حينما شكا إليه انطباعه عن الإسكندرية، لقد قال له: «الإسكندرية مدينة جميلة، من أجمل مدن المشرق. ومن سوء حظكم أنكم أخطأتم الطريق إلى أحيائها العصرية». ثم أضاف: «وعلى العموم فالمشرق مثل المغرب، هناك أحياء شعبية وأخرى عصرية في جميع مدنهما الكبيرة».

كان الطلاب المغاربة الذين يقضون إجازتهم في «الجبل» يسكنون في الطابق العلوي من منزل كان أصحابه يقيمون في طابقه السفلي. كان على ربوة يطل على سلسلة من الأضواء الليلية التي تلامس الأفق في كل جانب. وإذا كان صاحبنا لا

يتذكر أية مشاهد واضحة عن القرية وما حولها ـ لعلها بحمدون ـ فإنه لا يزال يحتفظ في ذاكرته عن هذه الليلة التي قضاها هناك بأمرين اثنين كانا يبدوان له آنذاك على قدر غير قليل من الغرابة. والذاكرة تهمل المألوف المعتاد من الأمور وتحتفظ بالجديد والغريب والعجيب. لقد اندهش صاحبنا أمام حبات العنب الذي قدمه لهم مضيفوهم بعد العشاء: كانت كبيرة في حجم المشمش. ومع أنه كان في بستانهم بفجيج أنواع من العنب المعروفة بحلاوتها، إضافة إلى أنه كان قد تعرف في وجدة على أنواع أخرى، فلقد كانت كلها من الحجم العادي، أما هذا الذي رآه في «بحمدون» تلك الليلة فلم يكن قد شاهد قبل ذلك ما في مثل حجمه. والمهم في الأمر هو أن اكتشافه في لبنان لهذا النوع «الكبير» من العنب قد ساهم بشكل أساسي في إعادة صورة المشرق في ذهنه إلى وضعها «الطبيعي» الذي كان لها قبل تجربة الأحياء الشعبية في الإسكندرية.

وقد ساهم في تعزيز هذا الوضع «الطبيعي»، الوضع الذي كان يحتله المشرق في نفوس المغاربة، بوصفه النموذج والمثال، عنصر آخر بقي عالقاً في ذاكرته لا يفارقها. والحق أن دهشته كانت أشد، من تلك التي أثارها ذلك العنب في نفسه، كما أن تعجبه كان أقوى وأفعل في نفسه، حينما علم أن الشاب اللبناني الذي كان جالساً معهم تلك الليلة ويسكن بجوارهم ويشتغل راعياً.. كان يحمل الشهادة الثانوية. لقد كان حملة الشهادة الثانوية في المغرب آنذاك ـ وكان قد مر على استقلاله سنة ونصف ـ يعملون موظفين كباراً في الإدارة والشرطة والتعليم، وقد يعينون في وظيفة مدير ديوان وزير أو كاتب عام لوزارة..

حامل الشهادة الثانوية يرعى غنماً؟ إذن لبنان متقدم جداً، ولا بد أن يكون الموظفون فيه من حملة الدكتوراه... ولماذا لا يأتي هذا الشاب وأمثاله للعمل في المغرب والحلول محل الفرنسيين ومساعدة أهله في تحقيق ما يصبون إليه من نهضة وتقدم؟ ذلك هو نوع التساؤلات التي شغلت فكره وهو مستلق على الفراش يطلب النوم ويستعجل الليل ليسافر في الصباح إلى دمشق قبلته وغايته. وإذا كان لا يتذكر بالضبط نوع الأجوبة التي خطرت في ذهنه آنذاك فإنه يستطيع أن يؤكد أنه منذ ذلك الوقت بدأ يتكون لديه شعور، أخذ يتعمق بعد ذلك شيئاً فشيئاً، بضرورة تجنب التسرع في الأحكام، وبضرورة أخذ الاحتياط الكامل من تأثير المقارنات والمماثلات، والحذر كل الحذر من «الشجرة التي تخفي الغابة». إنه يتذكر جيداً كيف أنه انتابه تلك الليلة نوع من الندم ولوم الذات لكونه تسرع وحكم على الإسكندرية

بسبب منظر سيطر على نفسه إلى درجة جعلته ينسى مناظر مماثلة كان قد ألفها في الدار البيضاء. ويتذكر كذلك أنه بدأ منذ تلك الليلة يراجع صورة المشرق في ذهنه محاولاً التخفيف من البطانة الوجدانية التي كانت تلفها والتي كانت تجعل منها صورة ممجدة إلى أبعد مدى. ولعل هذا النوع من المراجعة هو ما جعل انطباعاته في دمشق تتصف بقدر كبير من الواقعية. ولعل هذا أيضاً هو ما جعل رد فعله يقتصر على مجرد ابتسامة عندما سأله أحد الطلاب العرب في دمشق: «هل عندكم ماء في المغرب؟» لقد فهم في الحين أن الطالب قادم من بلد عربي قليل الماء.. بلد من صحراء العرب.

ـ ٧ ـ

التحق صاحبنا عند وصوله دمشق بالطلبة الفجيجيين الذين كانوا يدرسون هناك، وقد كانوا يسكنون الطابق السفلي من إحدى الدور الشعبية وسط المدينة، يعيشون في ظروف أشبه بتلك التي كانوا يعيشون فيها بالدار البيضاء. لقد التحق هؤلاء الفجيجيون بدمشق مباشرة بعد توقف الدراسة الثانوية بالدار البيضاء ١٩٥٣، كما بينا، فانتسبوا إلى المدارس لمتابعة دراستهم الإعدادية والثانوية ولم يكونوا قد التحقوا بعد بالجامعة، ولذلك لم يستفيدوا من المنحة المغربية الجامعية، وإنما كانوا يعيشون من منحة سورية، وكانت أقل كثيراً من المنحة المغربية. كانت حال صاحبنا إذن أحسن نسبياً، فالمنحة المغربية، عندما تحول إلى العملة السورية آنذاك، كانت تقارب أجرة موظف متوسط. وهذا ما مكن صاحبنا من اكتراء غرفة مفروشة مستقلة مع إحدى العائلات شأن الطلاب الجامعيين عموماً. وعلى كل فإن ذاكرته لا تحتفظ له بأي شيء يستحق الذكر حول وضعيته السكنية والمعيشية. كان يسكن بحي المزرعة، وكان يتردد على المطاعم التي يرتادها الطلاب الجامعيون، ولم يكن يعاني من ضائقة مالية، ليس لكثرة ما كان لديه من نقود، بل لأنه تعود كجميع زملائه الفجيجيين أن يعيش على الكفاف...

اكتشف صاحبنا في دمشق، منذ الأيام الأولى من مقامه فيها، صورة أخرى للمشرق غير تلك التي هيمنت على مخيلته بعد «صدمة» الأحياء الشعبية بالإسكندرية. لقد وجد دمشق مدينة هادئة ونظيفة ووجد سكانها في غاية النظافة والهدوء واللطف، يعتبرون كل عربي واحداً منهم فيشعر الوافد عليها من العرب،

فعلاً، بأنه بين أهله وذويه: في دمشق لا يشعر العربي بالغربة أبداً ـ أو على الأقل هكذا كان الشأن يومئذ.

لم تسجل ذاكرة صاحبنا عن السنة الوحيدة التي قضاها في سورية (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) أي شيء من الأشياء المزعجة أو الغريبة التي تحتفظ لها الشحنة الوجدانية المرافقة لها بموقع ما في الذاكرة، مما يجعلها تقاوم النسيان والفناء وتجعل في الإمكان «الحفر» فيها، واستنطاقها فيما بعد.

أجل، كانت السنة التي عاشها في دمشق مليئة بالأحداث السياسية والقومية: أحزاب سياسية متصارعة متنافسة، ومناقشات برلمانية صاخبة، وصحافة حرة تزخر بأنواع من المقالات السياسية والفكرية والأدبية... وأيضاً تجنيد للرأي العام في النزاع الذي كان يبدو خطيراً بين سورية وتركيا، واستقبال حاشد للرئيس جمال عبد الناصر، ورحيل قسم كبير من شعب لبنان إلى دمشق لتحية الرئيس، ثم مناقشات ومزايدات ومفاوضات تبعها الإعلان عن الوحدة بين مصر وسورية وقيام الجمهورية العربية المتحدة... كل هذه المظاهر والوقائع عاشها صاحبنا في دمشق متتبعاً ملاحظاً، وأحياناً منخرطاً ـ ولا ننسى أنه جاء ليقوم بمهمة مراسل لـ **العلم** إضافة إلى مهمته كطالب ـ ولكنها جميعاً تنتمي عنده إلى ذاكرة أخرى، ذاكرته السياسية. تماماً مثلما تنتمي المكاسب الفكرية التي ترجع عنده إلى هذه المرحلة إلى ذاكرته الثقافية. والذاكرتان معاً، السياسية والثقافية ستستقلان، كلاً على حدة، بمؤلف خاص. لذلك سيقتصر الحديث هنا على ما ينتمي إلى نوع المعطيات التي كانت موضوعاً لهذه «الحفريات».

من هذه المعطيات، بل لعلها الوحيدة التي تحضره و «تطالب» بحيز في هذه المحكيات، الوقائع التالية:

هناك ظاهرة كانت قد أثارت انتباه صاحبنا واستغرابه في الأيام الأولى من مقامه في دمشق، وهي نوع الحجاب الذي ترتديه النساء هناك. لقد اعتاد صاحبنا على نوعين من الحجاب في المغرب: «الحايك» الأبيض الذي تلفه المرأة حول جسمها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ولا يترك سوى فتحة تمسكها بيدها في مكان عينها اليمنى ومنها ترى طريقها وما تريد رؤيته. وهذا النوع من الحجاب خاص بالمغرب الشرقي والجزائر. والثاني هو الجلباب الذي يغطي جسم المرأة من الكتفين إلى القدمين ويديها إلى الكوعين. أما العنق والرأس فتغطيهما قلنسوة تثنى على الرأس في

مكان الجبهة. وأما الوجه فيغطيه لثام رقيق شفاف يربط بالقلنسوة في منطقة الأذنين ويدلى على الوجه تاركاً مكان العينين من أجل الرؤية. وهذا هو الحجاب الذي كان سائداً في المغرب عموماً. أما نوع الحجاب، الذي رآه أول مرة، في دمشق، فقد استرعى انتباهه فيه كونه أسود رقيقاً شبه شفاف تلقيه المرأة على جسمها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها بما في ذلك الوجه. وعندما سأل صاحبنا أحد الأساتذة عن هذا النوع من الحجاب أجابه بأنه قديم يرجع إلى العصر الروماني والإغريقي، أي إلى ما قبل الإسلام بقرون. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن صاحبنا هذا عاد مؤخراً، عند شيوع الحديث عن «الحجاب الإسلامي»، فراجع هذا التفسير في المراجع التاريخية فوجد أن الأمر كذلك بالفعل، مما جعله يتأكد من أن نوع الحجاب الذي ترتديه المرأة يختلف باختلاف البلدان وما هو سائد فيها من أعراف، وبالتالي فليس هناك حجاب هو وحده «الإسلامي»، بل هناك حجاب على الطريقة المغربية، وآخر على الطريقة الجزائرية، وثالث على الطريقة المصرية، ورابع على الطريقة الخليجية والإيرانية. منه ما ينتمي إلى ما قبل الإسلام ومنه ما ظهر بعده، وهكذا. . . وكان صاحبنا قد وجد نفس الحجاب في القدس التي زارها في تلك السنة وتعرف فيها على عائلة مغربية، من مسقط رأسه فجيج، كانت تسكن حي المغاربة الذي كانت بعض أزقته شبيهة بأزقة فجيج، وكان رب العائلة مسناً ويتكلم الأمازيغية. . .

والظاهرة الثانية التي أثارت انتباه صاحبنا واستغرابه عبارة التحية التي يتبادلها الناس هناك في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وهي: «مرحبا. .». والجواب: «مرحبا. .» أو «مرحبتين». لقد اعتاد في المغرب على عبارة «السلام عليكم». أما كلمة «مرحبا» فلا تقال في المغرب للتحية بل للترحيب بالضيف أو ما في معناه. أما أن يقولها الوافد على الجماعة أو الداخل إلى بيت أو الذي يبادر الآخر بالتحية. . . فذلك ما كان يرى فيه عكس المعنى: وكأن الضيف يرحب بمضيفه. وقد فسر صاحبنا ـ فيما بعد ـ شيوع عبارة «مرحبا» بدل «السلام عليكم» في الشام بكون أهل البلد فيهم مسلمون وفيهم مسيحيون، وبالتالي فالعبارة الأولى أعم وأنسب لكونها محايدة (وهذا مجرد افتراض).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المغاربة عموماً لم يكونوا يتصورون في ذلك الوقت وجود عربي غير مسلم. فالعروبة والإسلام كانا يعنيان في وعيهم الشيء نفسه. فالعامل المغربي أو الجزائري إذا سئل في فرنسا حيث يشتغل: «من أنت؟»، كان يجيب: «أنا عربي»، دون أن يكون عربياً لا باللسان ولا بالنسب. فالعروبة

والإسلام عند سكان المغرب العربي كانا وما زالا علامة على الهوية الوطنية والانتماء الحضاري. وأكثر من ذلك لم يكن صاحبنا آنذاك يتصور وجود تعدد في «الإسلام». فبما أن الإسلام بالمغرب واحد لا تعدد فيه فقد كان يعتقد أن الأمر كذلك في جميع البلدان. أما الفرق الإسلامية من شيعة وسنة، وكذا المذاهب الفقهية من شافعية وحنفية... الخ فقد قرأ عنها في الكتب فقط، وبالتالي فهي تصنيفات كانت تنتمي عنده إلى الماضي. وعندما اكتشف أن هناك في المشرق شيعة وسنة وحنفية وشافعية... الخ. أدرك، وعندئذ فقط، أن أهل المغرب هم أيضاً صنف من الأصناف (= سنة ومالكية) وليسوا الصنف الوحيد الذي يمثل الإسلام.

وسيكتشف صاحبنا ما كان ـ وما يزال ـ لهذه التصنيفات السائدة في المشرق من تأثير على علاقات الناس داخل المجتمع الواحد. لقد اعتاد في المغرب على الانفتاح في العلاقات بين الناس: فلم يكن يحتاط عندما يوجه الكلام لأي شخص ذلك الاحتياط الذي وجد نفسه «مجبراً» على الأخذ به في دمشق عندما يخاطب شخصاً ما ـ على الأقل هذا ما كان يشعر به لأول عهده بها ـ إذ كان عليه أن يتأكد من هويته الدينية أولاً حتى يختار الألفاظ والعبارات المحايدة، فضلاً عن تجنب كل ما من شأنه أن يجعل المخاطب يشعر بأنه يعامل معاملة «الآخر».

ومع ذلك فقد وقع صاحبنا في هذا النوع من «الخطأ» ـ وتلك هي الواقعة الثالثة التي تختم هذه الملاحظات ـ ولا يدري هل كان الدافع إليه غفلة عادية أم تغافل موجّه، من ذلك النوع الذي يكون فيه للاشعور الدور الأساسي. لقد اضطر صاحبنا إلى معالجة عينيه من مرض «الرمد الحبيبي» (التراخوم)، وكان الطبيب، «طبيب العيون»، قد قرر أن يتم العلاج بنترات الفضة وفي عيادته لمدة أسابيع. كانت فتاة في مقتبل العمر هي التي تتولى العلاج. كانت مساعدة للطبيب، مستقلة بنفسها في غرفة خاصة بعيادته. وكما يحدث غالباً فقد نشأت علاقة «اتصال» بينه وبينها شبيهة بتلك التي عرفها في وجدة مع إحدى زميلاته في المدرسة والتي تحدثنا عنها بتفصيل في فصل سابق.

وعندما يستعيد صاحبنا الآن بعض مشاهد هذه «التجربة» يجدها مماثلة للأولى: كانت فتاة دمشق شبيهة بفتاة وجدة، قواماً ولون بشرة وحواجب وعيوناً، وأيضاً استحياء وقلة كلام، لا بل صمتاً. وباستثناء الكلام المهني لم يكن الظرف يسمح بغير خطاب العينين، وكأن نظام المدرسة «العسكري» الصارم الذي فرض الصمت هناك في وجدة على تجربة «الاتصال البصري» قد انتقل هو نفسه إلى دمشق، مع هذا

الفارق: وهو أنه بمقدار ما كان صاحبنا يشعر بأنه لا شيء يمنعه من «الكلام» في دمشق ـ وقد جرب فعلاً ـ كان يحس بأن الطرف الآخر لا يملك تلك الحرية أو على الأقل لا يريد أن يتصرف بحرية. لم يكن ذلك منها إعراضاً، فلغة العين كانت تشي بشيء آخر تماماً، لا بل تؤكده بحركات الجفن الذي يشله اليأس. ومع أنه كان قد خاض تجربة «الاتصال البصري» اليائس في وجدة فإنه من جانبه لم يكن يشعر باليأس ولم يكن هناك ما يفرضه عليه. وعبثاً حاول أن يكتشف أسباب «اليأس» عندها: فأصابعها لا تحمل خاتم خطبة ولا خاتم زواج، وهي تعرفه طالباً مغربياً وهو يعرف كم كان الطلاب المغاربة يحظون بالتقدير والمحبة في دمشق. وأكثر من ذلك كانت كل حركاتها تشي بعواطفها...

استمر العلاج ما يقرب من شهرين.. وهي مدة طويلة ومملة بالنسبة لمن يتلقى «فقط» نترات الفضة في عينيه. أما من كانت له «مآرب أخرى» فالوضع يختلف.. لقد كان صاحبنا يخشى أن ينتهي العلاج بانتهاء المدة التي قررها الطبيب كمرحلة أولى وأن لا تكون هناك ضرورة لإضافة أسابيع أخرى. وقد حدث ما كان «يخشاه» صاحبنا، فقد زال الداء خلال المرحلة الأولى ولم تعد الحاجة إلى الدواء قائمة بعد ذلك. كان الطبيب كله أدب وذوق، وقد أصر على مرافقة صاحبنا إلى باب عيادته لتوديعه. ومع أنه كان من الأدب والذوق أن يعرج صاحبنا على الممرضة لشكرها وتوديعها فإنه لم يفعل، وهذا مفهوم، فالعلاقة الخفية لا تترك مجالاً، في العادة، للعلاقات الطبيعية، اللهم إلا في حالة التمثيل، ولم يكن صاحبنا ممثلاً ولا كان يعرف، ولا هو الآن يعرف، كيف يمثل أدواراً غير الدور الذي يتماهى معه.

خرج صاحبنا من العيادة.. ولكنه لم يستطع مغادرة بابها الخارجي. لقد كان يشعر أنه مشدود إليها بألف وثاق. وقف حائراً لا يدري ما يفعل. ولكي يتجنب إثارة الانتباه وقف بجانب علامة وقوف الحافلة على خطوتين أو ثلاث من باب البناية. وتمر الحافلات الواحدة تلو الأخرى... ولا يركب. لقد قرر أن ينتظر حتى تخرج هي ويركب الحافلة معها لا ليودعها بل ليشكرها وسيكون ذلك ـ فيما كان يخيل له ـ مناسبة ليتفق معها على طريقة لـ «تنظيم» اللقاءات بينهما. ومرت ساعات لا يستطيع الآن تقدير كم كانت طويلة مديدة، لقد كانت من تلك الفترات التي تتوقف فيها عقارب الساعة عن الحركة لتترك المجال حراً لـ «عقارب» أخرى، عقارب القلق والانتظار والتوجس... وفي النهاية ركب صاحبنا الحافلة بعد أن ركبت، وبعد أن ركب شخصان بعدها أفسح لهما المجال أمامه حتى لا يبدو وكأنه

يقتفي أثرها. . . وبينما كان يفاوض نفسه، وهو واقف داخل الحافلة، هل يكلمها هناك أمام الركاب أم يؤجل الاقتراب منها إلى حين نزولها، إذا بها تفاجئه بالاقتراب منه، عيناها في عينيه تعبران بكل يأس الدنيا عن مضمون هذه الكلمات التي همست بها إليه بصوت منخفض أجش، ولكنه مفهوم: «أنا أعرف أن قصدك شريف. ولكن. . . م. . م. . ما فيش فايدة». ثم أضافت وعيناها شبه نائمتين: «محمد. . أنا من عائلة مسيحية محافظة».

لم يجب صاحبنا ببنت شفة. . لقد أحس إحساس يقين ـ لا إحساس شك ـ أنه ذلك المسافر الذي قطع الغابة من بدايتها إلى نهايتها ليكتشف في الأخير أنه أخطأ الطريق. وما إن «بلع» هذا الإحساس حتى تحركت هي في اتجاه الباب ونزلت. . أما هو فقد نسي نفسه في الحافلة إلى أن وقفت به في نهاية خطها في ساحة حي «القصاع». . فلم يكن أمامه إلا أن يركب الحافلة من جديد ليعود إلى حي «المزرعة». . ولكن بدون حرث ولا زرع. . . ومع ذلك فالخيال لا يستسلم للأمر الواقع كما يستسلم الحس والعقل. . لقد بقيت حاضرة في خياله مدة. . يتصورها معه «هاربين» إلى مكان ما في العالم ليست فيه حواجز بين المسيحية والإسلام، مكان حر طليق خال من جميع القيود التي تحمل الفتاة أو الفتى على القول بكل مرارة اليأس: «. . ما فيش فايدة. .».

لم يمكث صاحبنا في دمشق سوى سنة دراسية واحدة (تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧ ـ حزيران/ يونيو ١٩٥٨). لقد عاد إلى المغرب في عطلة الصيف ليجد كلية الآداب بالرباط تستعد لفتح أبوابها مع بداية الموسم التالي. لقد كان ينوي، عندما ذهب إلى سورية، التخصص في الرياضيات أو العلوم، ولكنه أصيب بنوع من الصدمة عندما وجد «الصيغة» ـ بمعنى الجشطلت ـ تختلف عما ألفه في كتب العلوم والرياضيات التي درس فيها. لقد تعود على الأرقام العربية في كتب الرياضيات وعلى الحروف اللاتينية في المعادلات الفيزيائية والكيميائية، وإذا به يفاجأ، في دمشق، بأرقام أخرى، وهي المسماة هندية، تملأ كتب الرياضيات وبحروف عربية كرموز فيزيائية وكيميائية، هذا إضافة إلى الاختلاف في المصطلح وإلى كثافة وثقل البرنامج المقرر. . . كل ذلك جعل صاحبنا لا يتعرف على معلوماته ولا على «موهبته» في العلوم والرياضيات، فقرر تغيير «التخصص» واتجه إلى الحقوق. وبما أنه كان قد ترامى إلى سمعه أن الحقوق تعتمد على «الحفظ»، وبما أنه كان يميل بطبعه إلى «الفهم» أكثر، لا إلى الحفظ، فقد قرر القيام بعملية استطلاع أولية،

فاشترى الكتب المقررة في السنة الأولى بكلية الحقوق وأخذ يطالعها ويختبر قدرته على التعامل معها فاكتشف أنها «فوق طاقته». وهكذا لم يبق أمامه سوى خيار واحد وهو الانتساب إلى كلية الآداب واجتياز سنة «الثقافة العامة» ليختار بعد ذلك: إما الأدب واللغة، وإما التاريخ والجغرافية، وإما الفلسفة. ومن خلال التعامل مع هذه المواد تبين له أن الفلسفة تستهويه أكثر...

فعلاً، اختار الفلسفة عند التحاقه بكلية الآداب بالرباط في تشرين الأول/اكتوبر من سنة ١٩٥٨. ولم يكن «الاختيار»، هذه المرة أيضاً، عملية سهلة ـ أقصد اختيار البقاء في المغرب بدل الرجوع إلى سورية ـ بل لقد كان لا بد من معاناة قلق الاختيار مرة أخرى وكان لا بد من اتخاذ قرار «حاسم».

فصل فريد

عندما كان صاحبنا يراجع هذه «الحفريات» قبل الدفع بها إلى المطبعة، استيقظت في ذاكرته تفاصيل أخرى تتعلق بوفاة والدته سجلها في هذا «الفصل» الفريد الذي يستعيد فيه تلك التفاصيل حية كما كانت عند انبثاقها في ذاكرته، وكما استرسلت حين كتابتها.

بعد أسبوعين أو ثلاثة من وفاة والدته، اتصلت به إحدى قريباتها، وكانت صديقة للعائلة وامرأة موثوقاً بها، وأخبرته أن المرحومة تركت عندها، لدى مغادرتها فجيج للالتحاق بأخويها في وجدة وهي في حالة صحية متدهورة، أغراضها الشخصية وأوصتها أن تقدمها لابنها عندما يحين أجلها. وأفادته بأن هذه الأغراض تتكون من حزام وقصعة وجفنية وخلخال وإزار وآلة نسج يكبس بها الخيط على المنوال حين النسج، وذلك ما تملكه المرأة عادة في فجيج ملكية شخصية، لكون هذه الأشياء هي قوام مهرها وتجهيزها، وتحتفظ بها المرأة لتقدمها لابنتها عند زواجها. وبما أن المرحومة لم ترزق بمولود آخر غير صاحبنا، وبما أنها لم تكن متأكدة من العودة لاشتداد المرض عليها وإحساسها بدنو أجلها، فقد احتفظت له بهذه الأغراض، هدية منها تقدم له عند وفاتها.

سألت تلك السيدة صاحبنا إن كان يريد أن ترسل إليه تلك الأغراض إلى وجدة أم أنه يفضل أن تبيعها في فجيج وتبعث إليه بقيمتها. اختار صاحبنا أن تباع. وبعد شهر أو نحوه تلقى من السيدة المذكورة مبلغاً من المال مقداره أحد عشر ألف فرنك تقريباً (مائة وعشر دراهم، نحو اثني عشر دولاراً بالصرف الحالي). تسلمها صاحبنا واشترى بها بضعة كتب. وكان ذلك هو الإرث الوحيد الذي ناله صاحبنا في حياته. نعم كان ذلك هو الإرث المادي الوحيد الذي كان من حظ صاحبنا طول

حياته. ومع أن ذلك المبلغ يبدو زهيداً في ذاته فهو عنده الآن أعظم من كل متاع الدنيا. إنه يقول: «الآن...» لأنه يشعر أن الإخلاص والصدق يفرضان عليه أن يعترف أنه لا يتذكر أنه تأثر لذلك، ولا حتى لوفاتها نفسه، التأثر الذي يناسب الموقف، التأثر الذي يشعر به ويعيشه الآن، لا بل يستمتع به، كما يستمتع المرء بالبكاء عندما تهاجمه الدموع ويفلت منه زمام أمره، فتتدافع أنفاسه موجات تتلاحق وتتزاحم، بقوة وعنف، على حنجرته وخياشيمه وجميع مخارج صوته، منبعثة من أعمق أعماقه، من داخل أحشائه، من عقدة سرته، من كل جسمه الذي يفرض ارتجاجه وارتعاده على الإرادة مهما حاولت أن تكون قوية، تماماً كما يحصل لمن ينفجر بالضحك من شدة وقع نكتة أو تشبيه من تشبيهات «تومزيا»...

أجل، لا فرق بين الضحك الذي تنتزعه النكتة القوية وبين البكاء الذي تفجره الحسرة الملتهبة:

النكتة ترسم صورة «سحرية» للعالم، تخترق وتنتهك حرمات المألوف وقانونيته، وتحرر الخيال من قيود العادة والمنطق والمعايير الاجتماعية وغيرها، فتكشف عن العبث الذي يثوي وراء ذلك وعن «النفاق» الذي يواجهه الناس به، وتفضح هروبهم منه سواء إلى أمام أو إلى وراء. بكلمة واحدة: النكتة تقدم الحقيقة عارية فيتلقاها الخيال «الخام» - إن صح التعبير - ويصدم بها «الحقيقة» المألوفة المصنوعة صدماً قوياً، فيفقد «الأنا» سلطة الرقابة والتحكم والتصريف وينطق الجسد بكل وظائفه الحركية الدينامية والفيزيولوجية، فيحدث ما يحدث من ضحك تتمزق له الأحشاء وترتعد به الأوصال وتختنق له الأنفاس... الخ.

ومثل النكتة القوية في ذلك الحسرة الحارقة للصدر، العاصرة للقلب، على فقدان عزيز حين اختفائه، أو حين استعادة ذكراه ملفوفة في شحناتها الوجدانية التي كبتت وقمعت بفعل ضغوط الحياة، لا بل بسبب الغفلة في الحياة والانسياق البليد الأبله، مع اليومي، من عبثها وتفاهاتها... إن الأمر يتعلق هنا أيضاً بمواجهة حرة للحقيقة العارية، الحقيقة الخام التي لم يداخلها التشويه ولا التمويه اللذان تلحقهما بها المواعظ والدعوات والصبر والمصابرة وغير ذلك من الآليات التي يستعجل بها بنو الإنسان النسيان والعودة إلى قانونية المألوف اليومي، إلى غفلته وتفاهته.

لا، لم تكن زهيدة قيمة تلك الأغراض الشخصية التي أصرت الوالدة على أن تورثها صاحبنا، وهي بصدد السفر إلى حيث كانت تشعر أنها لن تكون لها منه

عودة... كلا، لقد كان ذلك ذا أهمية لا تخفى، أولاً لأنه لم يكن ينتظرها، وأيضاً لأنه كان ما يزال طفلاً في الخامسة عشرة من العمر يفرح كما يفرح الأطفال عموماً بأية دراهم تقدم لهم على حين غفلة. وإذا كان صاحبنا لا يتذكر ماذا فعل بتلك الدراهم، والغالب أنه اشترى بها أو ببعضها كتباً، فإنه يعلم الآن علماً لا فكاك له منه أن فرحته، في هذه اللحظة التي يستعيد فيها هذه الذكرى ويرقنها على الحاسوب في الوقت نفسه، أعظم وقعاً على نفسه وأعمق أثراً في كيانه. إنه يعيشها، لا، بل يندمج فيها اندماجاً أعمق وأقوى ألف ألف مرة مما كانت عليه يوم كانت واقعة من وقائع الحياة الخاضعة لليومي، للوعظ والتجمل واصطناع الصبر الذي يقتل الحياة ويدفع بالمعاناة إلى غياهب النسيان.

لقد استرجع هذه الذكرى وعاشها بكل جوارحه، قبيل كتابة هذه السطور ولحظة كتابتها، بعد ستة وأربعين عاماً تعرضت خلالها لأكثر أنواع النسيان بلادة وتفاهة، حتى غابت تماماً من ساحة الحضور في نفسه وبقيت بعيدة في غياهب النفس حتى لم يعد لها أثر. ويجب عليه أن يعترف الآن أنه انساق، حينما بدأ «يحفر» في ذاكرته، مع موجات «اليومي» ومتاهاته، مع المشاهد الحسية والوقائع اليومية الرتيبة.

ومع أنه كان يبذل كل جهده لاستعادة ذكرياته مرفقة بما كان يلفها من بطانة وجدانية، ومع أنه استطاع أن يحيا في ذاكرته، أو على الأصح أن يبث فيها، الانفعالات التي رافقت «بعدياً» واقعة وفاة جده لأمه وجو المأساة الذي تمت فيه، ومع أنه حاول كذلك أن يبرز الجانب المأساوي في تجربة الزواج التي عانت منها أمه معاناة مريرة... مع ذلك كله فقد بقيت هذه الذكرى، التي هو بصدد استعادتها وتحليلها الآن، غائبة هاربة في سراديب الذاكرة، مختفية ومتمنعة. وأكثر من ذلك أصرت على الهروب والامتناع أثناء قراءته لهذا «المكتوب» قراءة مراقبة ومراجعة، وأيضاً قراءة استكشاف واستدراك، عندما كانت تنشر حلقات متسلسلة على صفحات الجرائد.

وفي آخر لحظة، وكما يحدث للمذيع، المنهمك في قراءة نشرة الأخبار، عندما يدخل عليه زميل له في قسم التحرير يحمل خبراً مستعجلاً يطلب منه قراءته في الحين... استفاقت تلك الذكرى فجأة في نفس صاحبنا مع استيقاظه من نومه هذا الصباح قبيل الوقت المعتاد، وفي نيته أن يقوم بعمليات الترتيب الأخيرة لهذا «النص» على جهاز الحاسوب (الكمبيوتر)، قبل دفع النسخة الأخيرة منه إلى آلة

السحب بالمطبعة التي تولت طبع هذا الذي بين يديك أيها القارىء.

فجأة، استفاقت تلك الذكرى إذن بعناصرها الثلاثة: الأغراض، السيدة المؤتمنة عليها، المبلغ الذي توصل به. وبما أنه لم يعد من الممكن قط التفكير في استعادة تلك الأغراض، تماماً مثلما لم يعد من الممكن أبداً التفكير في النهوض والذهاب لزيارة الوالدة، لشكرها على هذه الهدية الغالية، فقد انصرف تفكيره ـ لا، ليس التفكير.. فقد انسحب لحظتها ليترك الكيان كله يتصرف بحرية الغريزة التي وحدها قادرة على تحرير ما في الكيان الجسمي والنفسي من طاقات مكبوتة مقموعة... انصرف كله... وترك الرقن، فهذا الجهاز المتطور مادياً ما زال متخلفاً عاطفياً، ما زال غير قادر على التقاط «رقن» القلب من خلال رقن الأصابع.

انصرف بكل كيانه، إذن، للذكرى وحدها، يعيشها كما شاءت هي، مستمتعاً بها ذلك الاستمتاع الذي وصفنا، متوقفاً عن الكتابة، تاركاً «الحاسوب» يحسب الفراغ، يعد لحظات زمن غير قابلة للعد... حتى إذا «رجع» إلى نفسه (آه، تباً للغة. وأين كان حينذاك؟ لنقل إذن: حتى إذا عاد إلى حاملها، الجسد، الذي تتوزع فيه وتضيع) أخذ يقرأ، قراءة أخرى، تاريخ حياته في علاقته بوالدته، وتاريخ والدته في علاقتها به.

إنه يتصور نفسه جنيناً في بطنها، ويتصورها زاهية جذلى لكونها أصبحت حبلى. وبما أنها كتومة تخفي فرحتها، كما تمسك قرحتها، فقد احتفظت لنفسها بزهوها وجذلها وتركتهما يعتملان في داخلها، متجهة ببصرها إلى السماء في حشمة وتضرع تطلب من الله، كما تفعل النساء غالباً، أن يجعل ما في بطنها مولوداً ذكراً، ليس فقط لكونها ترغب كما يرغب الناس عادة في المولود الذكر، بل أيضاً لكونها تعرف أن حظوظ إفلات المرأة من الطلاق، على الأقل في البيئة التي نشأت فيها، ترتفع وتقوى، عندما تهدي لزوجها مولوداً ذكراً يخلد اسمه ويكون له عوناً ووارثاً.

غير أن الأقدار كانت لرغبتها الصامتة هذه بالمرصاد. إن أم الزوج في «البلد» ـ وربما في كل بلد ـ لم تكن تتنازل عن مكانتها كـ «أم» لزوجة ابنها، بل هي تنصب نفسها كـ «حماتها»: كمنافسة لها و «حامية» لابنها منها، تنتظر الفرصة لفرض الطلاق على الزوجين لاستعادة ابنها.

ذلك ما حدث. لقد عادت الوازنة إلى بيت والدها حاملة جنينها في بطنها، في شهره السادس تقريباً. وعندما وضعت، كان المولود ذكراً، مما لا شك أنه أثار

الفرحة في قلبها وقلب عائلتها كلها. إن المولود الذكر يُحتَفى به دوماً. هذا ما جرت به عادة البشر. وبالنسبة للمطلقة قد يكون حافزاً لزوجها السابق على «التراجع»، إذا لم يكن قد تزوج أخرى.

ولا يستطيع صاحبنا أن يؤكد هل كانت «الحماة» قد بادرت وسابقت الزمن فزوجت ابنها قبل أن تضع زوجته السابقة، أم لا. ولكنه يعلم علم اليقين ـ لأن مصدره هنا هو هذه «الحماة» نفسها، أعني جدته لأبيه ـ أن هذه الأخيرة طالبت بالمولود ليكون في حضن أبيه وحضنها هي، فامتنعت أم الولد وأهلها، أبوها وأمها وأخواها، وحينئذ اشترطت عليهم أن يتولوا كفالته حتى يكبر وألا يطالبوا أباه بأي نفقة فقبلوا، وهم يعلمون أن المطروح ليس النفقة، فوالد الطفل وعائلته لم يكونوا فقراء، وإنما يتعلق الأمر بذلك النوع من التحديات البلهاء التي ترفع حين الخصومة لإبراز التفوق واستعراض القوة. قبلت أم الطفل وأهلها ذلك الشرط بصدر رحب، وأضافوا إليه تحدياً يتجاوز تحديات «الحماة» فالتزموا من تلقاء أنفسهم، وأعلنوا ذلك للناس، أن تبقى الأم بجانب وليدها في بيت أهلها عاكفة على رعايته، لا تغادره إلى زواج آخر، إلا بعد أن يبلغ سبع سنين. ولا شك أن جده لأمه، الذي كان «فقيهاً»، قد راعى في تحديد المدة بـ «سبع سنين» أن تكون «الحضانة» وفق ما يقرره الشرع: لقد سمعه ذات مرة يقول لبعض جلسائه: قال الفقهاء: «إذا بلغ الولد سبع سنين خيّر بين أبويه فمن اختار منهما كانت له الحضانة، أما قبل ذلك فالولد في حضن أمه».

مكثت الوالدة، إذن، في بيت أهلها سبع سنوات وأشهر، عازفة عن الزواج ممتنعة، موفية بالنذر، نذرها وأهلها، ومكث الطفل صاحبنا المدة نفسها في حجر والدته، على ظهر أمها، على كتفي أبيها. وما هي إلا شهور حتى تلاشت وذابت تلك الخصومة المصطنعة بين أهله من أبيه وأهله من أمه، وصار هو نفسه صلة الوصل بينهما، يغدو ويروح بين منزليهما، تارة على كتفي جده لأمه وتارة على ظهر عمته، كما سبق أن شرحنا.

وتتزوج أمه بعد أن أوفت بعهدها كاملاً، ذلك الزواج الذي دام أزيد من ست سنوات، قاست خلالها الأمرين (بل «المرار» كما يعبر بالدارجة)، من حماة قاسية ظالمة وزوج ضعيف الإرادة خنوع ذليل أمام تجاوزات أمه. ست سنوات لم يكن يراها فيها ابنها، ولم تكن تراه، إلا خفية ولدقائق معدودة، وعلى مسافات زمنية أخذت تمتد وتطول لتصبح شهوراً أو أكثر. كان بيت زوجها ـ ابن أمه ومستلبها ـ

يقع في ضواحي قصر زناكة في أقصى حي «ادريت» على ضفة وادي «إيبوشليقن» بجوار البساتين وقريباً من «القناطر». وفي زمن طفولة صاحبنا كان يُضرب المثل في البعد بـ «القناطر»، لأنها كانت فعلاً خارج المنطقة السكنية...

لقد كانت أمه إذن بعيدة عنه على صعيد الموقع والمكان، كما على صعيد المسافة والزمن، فكان لا بد أن ينعكس ذلك على المسافة النفسية في كيانه، خصوصاً وقد لقي من العناية والرعاية من أهله لأمه أولاً، ثم من أهله لأبيه ثانياً، ما يجعل هذه المسافات تفقد وقعها على نفسه، أعني على مستوى الشعور فيه.

وينتقل صاحبنا إلى وجدة، ليسكن مع أبيه. ويأتيه خبر طلاق أمه، بعد أن أنهكتها، في نفسها وفي جسدها، استفزازات وإهانات حماة لا ترعوي ولا تعف ولا ترحم. وتنتقل أمه هي الأخرى إلى وجدة لتعيش مع أخويها، تعاني من مرض ألزمها الفراش لتفارق الحياة بعد ذلك بنحو سنة. أما صاحبنا الذي وصفنا، في فصل سابق، كيف تلقى الخبر وكيف تقبله، فقد استرسل في دراسته، في وجدة وفي الدار البيضاء ثم في دمشق والرباط، ليستغرق بعد ذلك في دوامة الحياة ومطالبها، في الصحافة والسياسة والثقافة والمنزل والأولاد، حتى إذا مرت ست وأربعون سنة على وفاتها، وهو يلج الستينات من عمره، منشغلاً بالحفر في «ذاكرته» تذكر... تذكر أنها كانت تفكر فيه منشغلة به كعادتها، بكل صمتها وتحملها وأنفتها، وأنها رتبت أمرها، وهي تغادر «البلد» يائسة من العودة، فأوصت له بكل ما تملك، بأعز ما تملك، بـ «المتاع» الذي تحتفظ به المرأة لنفسها. ولكي تطمئن إلى أن الوصية لا بد أن تصل إلى ابنها سلمتها لسيدة تعرفه ويعرفها، سيدة محترمة وموضع ثقة.

وها هو الآن، أعني صاحبنا، يتذكر الساعة، أعني لحظة كتابة هذه السطور.. لا، بل إنه يرى رأي العين المجردة، هذه السيدة، ويسترجع بوضوح كامل، كيف كان يختزل الطريق إلى منزل زوج أمه، بالمرور عبر منزل تلك السيدة التي ائتمنتها والدته على الأغراض المذكورة.

كان منزل أهله لأبيه، وقد كان يقيم عندهم آنذاك، يقع في حي تمتد منازله على خط مواز للخط الذي يوجد فيه منزل زوج أمه. وقد كان على صاحبنا إذا هو سار مع الطريق العمومية أن ينزل مسافة بعيدة إلى «تاشرافت» التابعة لحي «ادريت» ثم يعود بعد ذلك أدراجه مع الشارع الذاهب إلى «القناطر»... أما المرور عبر منزل السيدة المذكورة، الواقع في منتصف الطريق، والذي كان له بابان، أحدهما على

الشارع الذي فيه منزل أهله والآخر على الشارع الموازي والذي يقع فيه منزل زوج أمه، فقد كان يختصر أكثر من نصف المسافة.

فعلاً، إنه يرى الآن نفسه يدخل منزل السيدة المذكورة التي كانت ترحب به كما ترحب المرأة الطيبة بطفل قريب. آه... الآن فقط يتذكر أن هذه السيدة كانت قريبة فعلاً لأمه، لا بل كانت من أقرب الناس إليها، ولعلها كانت أختها من الرضاعة، أعني أن هذه السيدة قد تكون رضعت من أمها، من جدة صاحبنا لأمه. إنه يتذكر أنه سمع ذلك من أهله في ذلك الوقت، أي عندما كان يتخذ منزلها ممراً إلى أمه...

آه... مرة أخرى، كم هي خبيثة وماكرة ذاكرة صاحبنا. إنها الآن فقط تسمح له برؤية ما لم يكن يرى. إنه يرى الآن بأم عينيه تلك الأغراض واحدة واحدة: الحزام المصنوع من مبروم الصوف والملون بالأحمر والأخضر، والخلخال الغليظ المصنوع من الفضة، والجفنية الكبيرة من النحاس، ظاهرها أسود بدخان النار التي توضع عليه لإعداد الماء السخون للغسيل، وباطنها أبيض تتموج فيه نتوءات صغيرة. أما آلة النسج فهي من حديد ثقيلة تزن ما يقرب من كيلوغرام واحد، على شكل مشط ذي أسنان حادة ومقبض من خشب... هذه «الأغراض» التي يتعرف عليها صاحبنا الآن في ذاكرته كان يعرفها جيداً قبل أن تتزوج أمه لأنها كانت تخرجها من حين لآخر من صندوقها لتنظفها وتعرضها على الشمس...

والآن، الآن فقط، عند رقن هذه الكلمات تفتح له ذاكرته آخر ملفاتها. إنه يتذكر أن أمه بعثت في يوم من الأيام بتلك الأغراض إلى تلك السيدة العزيزة على العائلة وطلبت منها أن تحتفظ بها عندها.. يتذكر ذلك بوضوح، ويتذكر أنه سمع مراراً من خلال أحاديث النساء في عائلته أن أمه بعثت بتلك «الأغراض» إلى السيدة المذكورة لتخزنها عندها لولدها عندما يكبر ويتزوج...

ما حقيقة تلك الأغراض؟ من أين جاءت لأمه؟ من اشتراها لها؟ وبأية مناسبة؟

الجواب وحيد لا شريك له:

فبما أن تلك الأغراض هي بطبيعتها الأغراض نفسها التي تعود ملكيتها الشخصية للمرأة، لا حق فيها لا للأب ولا للأم ولا للزوج لكون بعضها مما يقدم

لها كمهر وبعضها الآخر مما تجهز به الأم ابنتها حين عرسها (حسب تقاليد البلد)، وبما أن أمه سلمتها للسيدة المذكورة قبل زواجها بذاك الرجل الذي عانت معه. . . فإنه لما لا يحتمل الشك أبداً أن تلك الأغراض هي كل مهرها وتجهيزها حين زواجها من والد صاحبنا.

كذب من يدعي أو يعتقد أن ذاكرة الإنسان تنسى، أو أن ما بها يتقادم ويتلاشى. كلا ثم كلا. إنها تحتفظ بكل شيء، بما يعيه صاحبها وبما لا يعيه. تحتفظ بالمشاهد والصور والأصوات. . . وأكثر من ذلك وأهم، تختزن في حرز حريز كل المشاعر والانفعالات التي لم تجد سبيلها إلى التعبير عن نفسها تحت ضغط دوامة الحياة اليومية، حياة الغفلة والتيه والعبث، وحياة المهام والمسؤوليات والطموحات والابتعاد عن الذات. . .

إن صاحبنا يجد نفسه ميالاً إلى تقرير الحقيقة التالية، وهي أن النسيان المطلق لا وجود له، وأن كل نسيان هو نسيان مؤقت، وبالتالي فكل ما مر بالإنسان من تجارب يبقى مسجلاً في «سجلات» الذاكرة. تارة يستدعي الإنسان ذكرياته إرادياً وبنوع من التركيز، وتارة تقفز الذكريات من تلقاء نفسها إلى الوعي فجأة فتباغت صاحبها، وذلك عندما يكون في غفلة من أمره أو في خلوة تامة تحرره من الارتباط بالمحسوس المألوف وبالهموم والانشغالات. كان صاحبنا يسمع بعض الناس في البلد يقولون: «إذا نسيت شيئاً فقم للصلاة وستتذكره». إن الخلوة تحرر الذاكرة من ضغط الشعور بأشياء العالم. وبما أن الشعور هو دوماً شعور بشيء فواضح أنه إذا لم تكن هناك أشياء خارج النفس تشغل الشعور فإن هذا الأخير سينشغل بنفسه، أي بما في النفس من ذكريات وهواجس وخواطر. وصاحبنا كان فعلاً في خلوة أشبه بخلوة الصلاة حينما كان يتذكر ما كتبناه قبل لحظات.

الذاكرة أمرها عجيب. لقد شعر صاحبنا حينما كان يسترجع لأول مرة، وبعد ستة وأربعين عاماً، تفاصيل وصية والدته له، أنه يسافر في الذاكرة عكس خط اتجاه الزمن، يسافر إلى وراء بلمح البصر، ولكن عبر مراحل، كل مرحلة تربطه بأخرى. كان أشبه بمن يفتح الملفات على جهاز الحاسوب، يمر من ملف رئيسي إلى الملفات الفرعية التابعة له، واحدة بعد الأخرى. فكأن الحفر في الذاكرة كالنقر على الملفات داخل الحاسوب.

لا، إن صاحبنا يجد نفسه الآن مشدوداً إلى فكرة «السفر عكس اتجاه الزمن».

وكانت هذه الفكرة قد راجت في أوائل هذا القرن عندما خرج آينشتاين للناس بنظريته، نظرية النسبية. لقد تقرر أن الشعاع الضوئي الذي ينقل صور الأشياء إلى أعيننا يجري بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، وبالتالي فما نراه الآن، لا نراه كما هو في لحظة رؤيتنا له، بل نراه كما كان عندما انبثق منه أو انعكس عليه شعاع الضوء الذي ينقل إليه صورته. وهكذا فالشمس التي نراها الآن ليست هي الشمس كما هي الآن بل كما كانت قبل ثماني دقائق، وهو الوقت اللازم لوصول أشعتها إلينا. والنجوم التي نراها في كبد السماء نراها، لا كما هي حين نشاهدها، بل كما كانت قبل الزمن الذي يقضيه الشعاع الضوئي الذي ينبعث منها للوصول إلى أبصارنا. وهناك من النجوم ما نراه الآن كما كانت عليه قبل ملايين السنين، بل ملايير السنين، التي قضاها الشعاع الضوئي في طريقه إلينا.

وبناء على هذا يرى آينشتاين أنه إذا وجدت وسيلة يسافر الإنسان عليها بسرعة أعلى من سرعة الضوء فإنه سيكون في إمكانه أن يسافر إلى الماضي عبر ملاحقة أشعة الضوء الحاملة لصور الموجودات ليشاهد الناس الذين رحلوا منذ زمن قريب أو بعيد.

وإذا كان صاحبنا قد تذكر الآن هذا النوع من التصورات العلمية ـ التي ما زالت خيالية حتى الآن على كل حال ـ فإنه يحلو له أن يتخيل ويتمنى لو أن العلم يحقق هذه «المعجزة» أثناء حياته ليغدو في إمكانه أن يسافر عبر الزمن إلى الماضي ليرى والدته ويجلس معها ويحدثها محفوفاً بجدته وجده وجميع من تحدثنا عنهم في هذه الحفريات، وفي مقدمتهم صديق طفولته الأول «حمو زايد».

حلم يقظة...؟ جنون...؟ لا كل ما في الأمر أنه يستعجل قيام الساعة للقاء الأهل والأصدقاء في دار الخلد.

(انتهى الفصل الفريد)

* * *

هنا نقف بعملية «الحفر في الذاكرة»، ذاكرة الطفولة والمراهقة وأوائل الشباب، لنترك المجال، هذه المرة، للقارىء ليحفر بنفسه في نصوص من «مذكرات» صاحبنا ننقلها هنا، كما كتبها أول مرة بدون زيادة ولا نقصان. نصوص تنقل للقارىء حديثه مع نفسه عن «القضايا الكبرى» التي كان عليه أن يقرر فيها، خلال السنوات الثلاث التالية (١٩٥٩ ـ ١٩٦١) التي انتهت بحصوله على الإجازة في الفلسفة وبزواجه بأم أولاده ورفيقة دربه.

فعلاً، لقد انخرط صاحبنا قبل ذلك، ومنذ سنة ١٩٥٨، في تجربة سياسية ما تزال امتداداتها متواصلة، تجربة واكبتها تجربة هموم واهتمامات ثقافية، دراسة وتدريساً وبحثاً وتأليفاً، ما تزال هي الأخرى مستمرة... وفي النية تخصيص كل منهما بكلام خاص، إن شاء الله.

نصوص

قلق الشباب

المرأة... الله... المستقبل

لو سئل صاحبنا اليوم وهو يناهز الستين (قضى منها ثلاثين سنة كأستاذ جامعي بعد أن اشتغل معلماً ثم أستاذاً في الثانوي ثم مديراً لثانوية مما أتاح له فرصة معاشرة الشباب عن قرب، إضافة إلى أنه متزوج، منذ خمس وثلاثين سنة، بأم أولاده الأربعة ـ أستاذتان بكلية الطب، وطبيب، والثالث في الثانوي ـ مع ما خاضه من تجارب واكتسبه من معارف...) لو سئل اليوم:

ما هي في نظرك أهم القضايا التي تشغل بال الشباب، ويتمحور حولها «قلق الشباب» عندما يكون بصدد الانتقال إلى مرحلة الرجولة؟ فالغالب أنه سيستغرق في التفكير، وقد يلجأ كعادته إلى «المراجع» يستشيرها، قبل النطق بالجواب، ولكن من غير المؤكد أنه سيهتدي إلى الجواب الذي تقدمه مذكراته التي كتبها يوم كان شاباً، يجتاز المرحلة المشار إليها، الجواب الذي يعتبره صحيحاً، على الأقل بالنسبة لتجربته الشخصية، ولا يستطيع أن يطعن فيه بأي وجه. هذا الجواب هو:

القضايا الكبرى التي تشغل الشباب وتكون محور «قلق الشباب»، عندما يكونون بصدد الالتحاق بمرحلة الرجولة، ثلاث وهي: المرأة والله والمستقبل.

وفي ما يلي نصوص تحكي كيف عاش صاحبنا هذه القضايا وكيف عالجها. ويجانب كل نص تاريخ كتابته. وهذا التأريخ جزء من النص، بصيغته وعبارته. لقد أدرجت النصوص هنا حسب تسلسل تاريخ كتابتها بدون تغيير ولا تعديل باستثناء بضع عبارات أضيفت للتوضيح ووضعت بين قوسين هكذا ( ) ومع بعض النصوص صورة فوتوغرافية عن فقرات بخط اليد.

ملاحظة: ننشر هذه النصوص كما كتبت أول مرة مع ما في بعض عباراتها من ركاكة. أما الأخطاء النحوية واللغوية فسننبه عليها بكلمة كذا بين قوسين: (كذا).

كتبت إليه رسالة يوم ١٩ آب/ أغسطس ١٩٥٨
وجاء جوابه يوم ٣٠ منه
وكتبت ما يلي يوم ٣١ منه.

سأشق طريقي...

سأشق طريقي رغم الزعازع والإعصار،
رغم العقبات الطول،
رغم الوحشة والظلام.
سأشق طريقي غير عابىء بها،
لا، ولا بدلالها وإغرائها.
فليمت ذلك الوليد،
ولأدفننه دفناً.
وليقل، ولتقل هي ما شاءت.
فقد دأب الناس،
منذ قديم الزمان،
على القيل والقال.

سأشق طريقي رغم القيل والقال،
رغم الغموض الحالك،
رغم الوليد الميت.
فأنا قلبي وضاء،

ينير الطريق،
طريق الغد،
طريق الحياة.

كتبت إليه رسالة يوم ١٩ اغسطس ١٩٥٨
وجاء جوابه يوم ٢٠ " "
وكتبت عليه يوم ٢١ " "

سأشق طريقي.
سأشق طريقي رغم الزعازع والأعاصير،
رغم العقبات الكؤود،
رغم الوحشة والظلام،
سأشق طريقي غير عابئ بريح،
لا، ولا بأدلائها وأعزائها،
فليمت ذلك الوليد،
ولأدفنه دفنا،
وليقل، المتقولون ما شاءوا.
فقد دأب الناس،
منذ قديم الزمان،
على القيل والقال.
سأشق طريقي رغم القيل والقال،
رغم الغموض الحالك،
رغم الوليد الميت،
فأنا قلبي وضاء،
ينير الطريق،
طريق الغد،
طريق الحياة.

إيه يا حياة، كل ما فيك جميل،
إلا هذا الوليد، هذا الدفين،
هذا الذي قبرته بدون كفن،
في ماضي القريب، في قلبي الحزين.

شعاع بارق كان ذلك الوليد؟ (كذا)
كان فجراً كاذباً خبت أضواؤه سريعاً،
كذب الخيط الأبيض فهو أسود.
أسود كالشعرة الرفيعة،
تبدت في الثوب الأبيض،
كالخال في وجه الوليد،
الوليد الحي الصغير.

كان آمالاً عجافا.
كان طيفاً خداعا.
كان شبحاً مغرياً.
فعرفته منذ البداية،
مذ كان نطفة في باب المدرسة.
ذلك الباب الكبير.
فالتقى الحديد بالحديد.
فالباب حديد.
وقلبي حديد.
ونما الوليد،
وصار جرثومة تقاوم الحياة، وسط الحديد،
حيث لا ماء ولا هواء، لا، ولا خبز ولا نبيذ.

فعاش عيش العليل،
حتى كان يوم من الأيام،
يوم اشتد الحر بي بالدار البيضاء،
فذاب الحديد وانتعش الوليد.
فسرت به إلى الحدائق والزهور، حيث الرجيق،
حيث يوجد النهر الرقراق،
ينساب بين الجذوع.
حملته إلى الحشيش الأخضر،
حيث الريح تلعب بالسوالف الطول.

آه من السوالف الطول،
ومن الأعناق والخصور
والسيقان والصدور.
في الغابة،
بين الخميلة،
في ضفة النهر،
في مياه المسبح.
إنها الجنة: جنات نعيم،
حيث الغيد الحسان،
واللباس شوال.
(هناك في إيفران)

وانتعش الوليد من جديد،
وألقى بقيد الحديد،
في مياه الشلال فتكسر الحديد

وذاب، وطفا نقطة سمراء

على ضفة الماء.

فحملته الأمواج بعيداً:

إلى الموج الهادر،

إلى البحر المحيط.

فضاع في اللانهاية.

واستراح الوليد.

وعاد يقتات من الرحيق كالنحلة.

ينتقل من الوردة إلى الزهرة،

زهرة الحب الوليد.

وطغت الجرثومة،

تماماً كجرثومة الضرس.

وغرق القلب،

وسهرت في الفراش،

ونزلت من السرير إلى الأرض،

وصعدت من الأرض إلى السرير،

ألف مرة ومرة،

وأنا وحيد،

غير رفيق جديد، وجدته هناك.

هناك في الغرفة ذات الأسرة التسع، (كذا)

أمام الشلال الصغير والبحيرة الدافئة،

تظللها أشجار الوادي.

(هناك في مأوى الشباب)

ولم أعد أطيق البقاء
لقد شب الوليد
ونخر الحديد.
فعزمت على الرحيل.
وكان ذلك الوقور،
ذلك الشيخ الصالح،
كان في غياب.
وأبطأ، وقيل لن يعود.
واشتد بي النزول والصعود،
فأرقت ساعات، بل ليال،
ليال طوال،
كتبت بعدها في الفجر رسالة.
لكني أنا الوقور الصغير،
مزقت الرسالة،
وحملتها مياه النهر الرقراق،
إلى بعيد،
إلى حيث توجد نطفة الحديد
في المحيط الزاخر، في الموج الهادر.
ذاب الحديد، وذابت الرسالة،
فاستحالا دخانا،
طار مع الهواء
إلى نفسي المتقطع
إلى صدري المريض.

وانتعش الوليد بذلك الدخان من جديد،

فعزمت على الرحيل،
وجندت إرادتي، هذه الصماء،
ولم تسمع لنداء قلبي المريض.
فركبت السيارة
وهربت من الجنة
إلى شاطىء المحيط،
إلى الدار البيضاء.
وكتبت رسالة،
رسالة اعتذار كاذب،
وقلت أنا مريض
دوائي في شاطىء المحيط.

ومضت أيام وأنا لا أطيق السرير.
وتمالكت وصمدت،
وكان كتابي رفيقي الوحيد.
آه ما أجمل الكتاب،
الصديق الصامت
الخليل الصادق.

وصبيحة يوم مشرق
ذهبت إلى الباب المعلوم،
الباب الحديدي.
فإذا الشيخ الوقور،
فسلمت وسلم
وقال: «وصلتني الرسالة

إنها مشؤومة. أحقاً أنت مريض؟
يعز علي ذاك وأنت الوقور الصغير».
قلت كاذباً: «لقد شفيت.
كانت ضرساً ضروساً عالجها الطبيب»
وما رأيت الطبيب.
ما أسهل الأعذار
وما أكذب الإنسان.
ومرت أيام وأيام،
علها شهور علها سنون.
وسافرت بعيداً، بعيداً،
على المحيط الهادر،
وعلى البحر الأبيض الصامت.

وكانت تسعة شهور.
(قضيتها في دمشق)
وما نسيت ذاك الوليد.
مع أني انشغلت بوليد جديد.
فالتقى الوليدان: القديم والجديد.
هناك انبثق الجديد،
في بيت الطبيب،
طبيب العيون.
وكانت قصة بل مسرحية،
كتبها صديق حميم. (= محمد إبراهيم بوعلو)
سلام عليك حيث أنت، بعيدا،
يا صديقي الحميم. (كان ما يزال في دمشق)

وقرأت المسرحية.
وكان العنوان:
أنت ـ قارئي ـ تعرف العنوان.
إنه: «فلان المريض».
نعم كنت أنا المريض.
ولكن سرعان ما داواني الطبيب.
لا بتترات الفضة،
ولا بقطرات ذلك السائل الأبيض.
داواني الطبيب،
بل بيت الطبيب،
بل تلك اللابسة البياض.
كان اسمها ليلى.
لكنها بيأس أشارت:
لا فائدة، غير ممكن، لا فائدة.
كانت هناك حدود وحواجز،
غير قابلة للاختراق.

ومضت أيام وأيام
واستيقظ الوليد، وليد الحديد.
فركبت البساط، بساط «فريد».
وعدت إلى شاطىء المحيط.
وقد كبر الوليد من جديد
وأصبح ذا يد من حديد،
تعصر القلب عصراً.
بحثت منذ اليوم الأول،

هناك في بيت الشيخ الوقور.
ولم أجد الرحيق.
آه، كان بعيداً في الحدائق والزهور.
بين الخمائل والحشيش
في المسبح والشلال
«شلال العذارى».
آه، يا قلبي المريض،
شخت وأنت شاب
شيبك الأرق، أنهكك التفكير.
آه، سأقطع الداء
الداء العضال.

وكتبت الرسالة،
الرسالة الخطيرة.
كانت غريبة.
ولكني أنا الوقور،
كنت هذه المرة،
ربما سخيفاً، ربما جسورا.
وألقيت بالرسالة في صندوق البريد.
كانت تحمل آمالي العجاف.
نعم كنت أعرفها كذلك.
فعقلي مع قلبي صريح،
وضميري لنفسي نصيح.

وأمس، أمس جاء الجواب.

الجواب العزيز من الشيخ الوقور.
كان يحمل حقيقة.
كانت الحقيقة مرة.
نعم، أنا لا أخشاها ولو كانت مرة.
فواجهت الواقع،
وانتزعت صفحة الماضي،
من كتاب تاريخي الطويل.
وأتيت بملقط فضي،
فانتزعت الشعرة،
تلك الشعرة السوداء،
انتزعتها برفق وحكمة،
من الثوب الأبيض.
واشتريت مقصاً رفيعا
فأزلت النقطة،
ذلك الخال الأسود،
من قلبي المنير.
آه، ما أجمل الحقيقة
ما أجملها ولو كانت مرة.
فالثوب اليوم ناصع البياض،
وقلبي قمر ولا كلف.

آه، الآن سأشق طريقي،
رغم ذكريات الماضي.
رغم الزوابع والإعصار.
رغم الرعود والأمطار.

رغم الفيافي والقفار.
إنها الحياة، الحياة الجميلة،
أعيشها مع المحيط الهادر
وأنا أسخر من تلك النقطة،
نقطة الحديد الماضية.
سأذهب إلى الشاطىء
سأدفع الماء، بعيداً بعيدا،
حتى تغيب في اللانهاية
تلك النقطة السوداء
مع الرسالة الممزقة.

آه، ما أحلى الحياة، حياة الواقع.
سأشق طريقي باسما،
سأسير ضاحكا،
سأنام هادئا.
لا أرق ولا صعود ولا نزول.
سأشق طريقي، سأذهب بعيداً، بعيدا
من جديد. (إلى دمشق)
لأعود في يوم جديد.
حينذاك فقط
سيطلع الفجر الحقيقي،
ويبدو الأبيض من الأسود،
ويضيء الصباح،
الصباح الجميل،
الوهاد والأدغال.

وتشرق الشمس،
الشمس الحقيقة،
فتنير أمامي الطريق
وأبدأ الحياة من جديد،
ثم أشق طريقي إلى النهاية
مع وليد آخر غير القديم.
نعم سأشق طريقي إلى النهاية
فلا كانت، ولا كان ذاك الوليد.

التوقيع

في ١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨

إلى أين أسير...؟

أن أعرف إلى أين أسير، حاضراً ومستقبلاً، فهذا ما أنا في حاجة إليه، وهذا ما أسعى إليه ولكن دون نتيجة.. نعم دون نتيجة أسفرت تأملاتي لوضعيتي الشاذة، وهي رغم شذوذها إلا أنها غير مؤلمة... أنا لا أتألم من الحال التي أعيش فيها بقدر ما أنا محتاج إلى قرار حاسم أقرر به بدايتها ونهايتها..

لقد قررت في السنة الماضية الذهاب إلى سورية.. وها إني قضيت فيها سنة وحصلت على شهادة الثقافة العامة من الجامعة السورية.

إنه شيء عظيم أن أصبح طالباً جامعياً.. لم أكن أحلم حتى في طفولتي بالالتحاق بالجامعة رغم خيال الطفولة. ولم أكن أتصور أثناء فترة مراهقتي أني سأصبح بعد أيام قلائل شاباً له مكانة مرموقة في الوسط الذي يعيش فيه رغم أحلام اليقظة التي تستولي عادة على المراهقين... وفترة الشباب هذه التي أجتازها الآن.. هل حقيقة أنها فترة النشاط والعمل في حياة الإنسان، هل هي حقيقة فترة الآمال والأماني وأنها المرحلة التي يعيش فيها المرء بخياله مندفعاً إلى الأمام... هل صحيح أنني شاب.. شاب في العقد الثاني من العمر... أين سمات الشباب من سماتي.. لم يسبق لي أن كنت شاباً حتى أعرف سمات الشباب.. ولكني حدثت عنها كثيراً.. حدثني الأفراد شفاهة، وحدثني الرجال كتابة في مؤلفاتهم وكتبهم..

ليس من الصعب على الإنسان أن يعرف هل هو شاب حقاً أم صبياً (كذا) أم رجلاً (كذا) فالمراحل الزمنية بينة واضحة.. ولكن الصعوبة كل الصعوبة في معرفة المرحلة النفسية التي يجتازها المرء... من قال لي إني شاب... ومن عرف أني أقاسم الشباب آمالهم وأمانيهم... اندفاعهم وثورتهم. لست أدري من أمري شيئاً.. إذن كيف يمكن لغيري أن يدري عني أشياء.

لست صبياً بالطبع لأن الصبي لا يفكر هذا التفكير... ولست كهلاً لأن

الكهل معناه بلوغ درجة من النمو النفسي والعقلي يستطيع الإنسان بها قيادة مقود حياته بمهارة تنجيه على الأقل من زوابع الأيام وعواصف الساعات. . . ولست شيخاً لأني لم أحاول قط النظر إلى الوراء. لم أفكر في حياتي الماضية لأني لم يسبق أن عشت حياة تستحق أن يتذكرها الإنسان. . إنها قصيرة جد قصيرة. قصيرة إلى الحد الذي لم أعد أعرفها رغم أني لا زلت أتذكر خطوطها الكبرى. لم أعد أعرف كيف كنت أحيا عقلياً ولا مادياً. كل ما أعرفه الآن هو أني كنت مثلما أنا اليوم. هذا كل ما أعرف. أما كيف أنا اليوم فهذا ما لا أستطيع التعبير عنه. . إنه القلق إن شئت. . إنه الاضطراب. قل ما شئت من هذه الكلمات ومن مرادفاتها. . . قل إني تائه في خضم هذه الحياة التي لم أعرف لها نهاية (اقرأ: بداية) ولم أدرك بعد لها نهاية. أنا لا أعني بالحياة حياة عامة الناس أو الحياة الدنيا إن كانت هناك حياة عليا. . إني أعني حياتي الخاصة. . الحياة التي أراها أنا. لست أدري كيف أصف نفسي من منظاري الخاص. قد يكون ضيقاً هذا المنظار وقد يكون واسعاً. . لست أدري. .

أنا شاب بحكم الظروف. . ولكن أين مني سمات الشباب. إذا كان الشباب معناه اللامنهجية واللامبالاة كما ألاحظ في أقراني الشباب، فتباً للشباب، وتباً للطفولة التي تؤدي حتماً إلى فترة الشباب. كيف أصف نفسي. . . كيف أقول للناس أو لنفسي. . أنا أعيش في حيرة وارتباك رغم ما عرفت به من رزانة وتعقل. . هكذا عرفني الناس وما عرفت نفسي قط بذلك. إن الرزانة والتعقل في نظري، حينما أفكر كشاب، معناهما العجز والفشل. . معناهما الحيرة والارتباك. من قبل قلت لنفسي:

سأشق طريقي

رغم الزوابع والإعصار

رغم العقبات الطول

رغم الوحشة والظلام

من قبل قلت لنفسي سأشق طريقي ضاحكاً باسماً. ولكن هل تراني الآن أشق طريقي. . لا. . لا. أنا لا أشق طريقي لأني لا أعرف هذه الطريق. . وكيف أقول في صلابة وعزم إني أشق طريقي في حين أني أجهل هذه الطريق.

أنا أسخر من نفسي من حيث لا أشعر، لا أنا ولا هي. . إنها الحياة الغامضة التي جعلتني أفكر هذا التفكير الغامض. . . إنها حيرة الشباب وقلق الشباب اللذان

جعلاني أقرر اليوم ما سأنقضه بالغد وأنقض اليوم ما قررت أمس.

لقد كتبت هذه السطور.. وأنا كعادتي في التقرير والنقض أراني الآن عازماً على نقض ما كتبت... إني نادم عما كتبت رغم أني كنت متشوقاً قبل دقائق إلى كتابة شيء ما.. كنت أريد الكتابة.. وكنت أظن أني سأكتب أحسن مما كتبت.

إني غير راض عن نفسي، عن الحياة التي أعيشها.

التوقيع

الثلاثاء ١٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨

المستقبل..؟

المستقبل.. آه من المستقبل ومن غموضه ومن الحيرة التي يبعثها في نفس المرء وبالأخص في نفس الشباب.. آه من الغد الحالك.. الأبيض. كيف سأشق طريق الغد. كيف سأفعل لأعيشه أبيض ناصعاً لا أسود حالكاً؟ كيف أقرر مستقبلي وأنا لا أعرف ماذا تخبئه لي الأيام؟

آه.. هل سأبقى في المغرب أم سأذهب إلى سورية. إن الوقت يحتم علي أن أقرر بكل وضوح... إنها أشهر ثلاثة مرت وأنا في حيرة وتردد.. كلما قررت أمراً إلا ويدا لي عكسه هو الصواب.. (كذا)

من الأفضل؟ البقاء في المغرب أو الذهاب إلى سورية.. آه إنه السؤال الطويل العريض.. السؤال الذي لا حل له.. لا لأنه معقد ولكن البت في الجواب عنه هو المغامرة بالذات (...).

علي أن أقرر.. ولكني عاجز عن التقرير، عاجز عن البت في هذا الأمر أو ذاك.

التوقيع

٩ ـ ١٢ ـ ١٩٥٨

وحداني . . .

«وحداني حاعيش كدا وحداني». مقطع من أغنية لفريد الأطرش إليها يرجع الفضل في كل ما سأكتبه هذه الليلة، بل لها الفضل في حفزي على الكتابة الآن.

وحداني حاعيش. . . هل سأعيش وحيداً دائماً. هل سأعيش مع الأيام وحدي في بيت كهذه التي أوجد بين جوانبها، واسعة عالية ليس يجاورني أحد، بيني وبين الطلاب الذين يسكنون في هذا «المأوى» مسافة لا تقل عن نزول خمسين درجة من السلم.

هل سأعيش هكذا وحيداً مع الأيام. هل سأبقى بمعزل عن الدنيا وملذاتها دائماً؟

أنا أحب الوحدة ولم أشعر قط بالوحشة إلا في بعض الأوقات كهذه، ولكن حتى هذا الشعور ليس من العمق بحيث يصرفني عن أعمالي الدراسية التي تستحثني الآن لمتابعتها.

ماذا ينقصني، هل الزوجة أم الخليلة أم شيء آخر؟

إني لست أدري.

أنا أخشى من الزوجة في هذا الوقت على الأقل، وأخشى من الخليلة في كل وقت. إذن ليكن خليلي الكتاب وكفى. فأنا لا أرضى بغيره خليلاً.

التوقيع

الدار البيضاء في 2 يناير 1959

أريد أن أكتب ...

أريد أن أكتب! نعم أنا أشعر بميل لأن أكتب .. ولكني لا أدري ما الذي ينبغي أن أكتبه. إني لا أعرف بالضبط هذا الشيء الذي أريد كتابته. ولكن ما هي الكتابة، وما نوعها وما الغرض منها هذه التي أتكلم أو أكتب عنها. هل المقصود بالكتابة .. كتابة حروف جامدة كهذه التي سبقت، أم أن هناك نوعا آخر من الكتابة يشفي ما في الصدر من ألم وشعور ملح نحو الكتابة. الكتابة كما أعرفها ويعرفها الجميع هي تعبير عن فكرة أو جملة أفكار .. والفكرة أو جملة الأفكار هي الكلام النفسي الخفي والذي بدونه لا يمكن أن توجد نفس إنسانية يكون صاحبها جديرا بأن يسمى إنسانا. كل فكرة هي كلام نفسي وكل نفس متكلمة هي نفس إنسان. إذن الإنسان شيء له نفس تتكلم. ولكن كلام النفس قد يكون شعوريا كهذا الذي أكتب أو تقرأ أنت أيها القارئ. وقد يكون ذلك الكلام غير شعوري كذلك الذي تتكلمه وأنت نائم أو أنت مشغول بشيء آخر يصرفك عن التعرف إلى كلام نفسك.

ترى هل يستطيع الإنسان أن يبقى بدون أن يفكر تفكيرا شعوريا بمعنى هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا شعور؟ فقضية أن المسألة هذا المعقد من كوجيطو ديكارت. لأننا إذا

الدار البيضاء في ٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩

أريد أن أكتب...

أريد أن أكتب. نعم أنا أشعر بميل لأن أكتب.. ولكني لا أدري ما الذي ينبغي لي أن أكتبه. إني لا أعرف بالضبط هذا الشيء الذي أريد كتابته. ولكن ما هي الكتابة، وما نوعها، وما الغرض منها، هذه التي أتكلم أو أكتب عنها. ما المقصود بالكتابة؟ كتابة حروف جامدة كهذه التي سبقت، أم أن هناك نوعاً آخر من الكتابة يشفي ما في الصدر من ألم وشعور ملح نحو الكتابة. الكتابة كما أعرفها ويعرفها الجميع هي تعبير عن فكرة أو جملة أفكار.. والفكرة أو جملة الأفكار هي الكلام النفسي الخفي الذي بدونه لا يمكن أن توجد نفس إنسانية يكون صاحبها جديراً بأن يسمى إنساناً. كل فكرة هي كلام النفس، وكل نفس متكلمة هي نفس إنسان، إذن الإنسان شيء له نفس تتكلم. ولكن كلام النفس قد يكون شعوراً كهذا الذي أكتب أو تقرأ أنت أيها القارىء. وقد يكون ذلك الكلام غير شعوري كذلك الذي تتكلمه وأنت نائم أو وأنت مشغول بشيء آخر يصرفك عن التعرف إلى كلام نفسك.

ترى هل يستطيع الإنسان أن يبقى بدون أن يفكر تفكيراً شعورياً؟ بمعنى هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلاشعوره فقط؟ إن المسألة هنا أعقد من كوجيطو ديكارت، لأننا إذا قلنا: «أفكر إذن أنا موجود»، أو كما قال ديكارت نفسه (cogito ergo sum) فإن التفكير هنا ينصرف إلى التفكير الشعوري، أو بعبارة أخرى إن نفس ديكارت حين كان يفكر في هذه الجملة الخالدة التي قالها، إنه أي ديكارت كان يفكر بكل شعوره. والدليل على ذلك أنه كان يفكر في تعريف الإنسان أو في إثبات وجوده على الأصح. إذن التفكير كان عند ديكارت تفكيراً شعورياً.

الحقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلاشعوره فقط مدة طويلة من الوقت، لأنه لا بد أن ينشغل بما يرى أو بما يسمع. وإذا كان أصم أعمى فإنه، ولا شك، لا بد أن ينشغل بالتفكير فيما حوله، لا بد له أن يتساءل عما يحيط به وكيف هي الحالة التي يوجد عليها.

ولكن إذا فرضنا أن إنساناً ما ولد بمعزل عن الناس وعن الأشياء المثيرة للتفكير وأنه ولد بدون بصر ولا سمع فكيف سيكون عليه هذا الإنسان إذا قدر له أن يعيش وأن يحيا حتى يصبح رجلاً؟ ولكن هل يمكن واقعياً أن يولد الإنسان

ويبقى على قيد الحياة حتى يصبح رجلاً دون أن يحتاج إلى طعام وشراب وملبس ومسكن؟ الحقيقة خلاف ذلك. إذن لا بد أن ينشغل الإنسان حتى في هذه الحالة بالأشياء التي تحيط به والتي هي على الأقل مأكله ومشربه ومسكنه وملبسه. إذن الإنسان لا بد أن يفكر تفكيراً شعورياً مهما كانت الظروف التي يوجد فيها. فهو إذن كائن موجود حسب تعبير ديكارت.

والآن لنتساءل: هل يستطيع الإنسان أن يعيش بشعوره فقط؟ بمعنى أن يكون كلامه النفسي صادراً عن شعور وإدراك، دائماً الجواب على هذا السؤال لن يؤدي إلى نتيجة أحسن من الأولى، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يعيش وهو يفكر في كل لحظة. إنه في حاجة إلى النوم وفي حاجة إلى الراحة، ثم إنه حتى في أوقات عمله كثيراً ما يحدث أن يعمل الإنسان وفكره شارد ونفسه تتكلم دون أن يشعر هل هو يفكر أم لا. إن مثل هذا التفكير لا دخل للإرادة فيه. إنه صادر عن اللاشعور. وهذا النوع من الكلام الصادر عن اللاشعور هو أشبه شيء بأحلام اليقظة، بل إن هذه نوع من ذاك.

إذن، الإنسان، بحق، لا يستطيع أن يبقى بدون تفكير، سواء كان هذا شعورياً أو لاشعورياً. ومن ثم فإن الإنسان لا بد له من وسائل التعبير عن هذا التفكير. وعلى الأصح لا بد له من ذلك إذا كان اجتماعياً على الأقل. فالتعبير من الضروريات التي تستلزمها الحياة. نعم قد يستطيع الإنسان، أو قد توجد حالات يوجد فيها الإنسان غير قادر على التعبير كأن يفقد مثلاً وسائل الكلام والكتابة والإشارة مهما كانت بسيطة. ولكن لا بد من تعبير من نوع آخر كيفما كانت حال الإنسان. وقد يكون هذا النوع الآخر غير نوع التعبير عن الفكرة بل التعبير عن الإحساس والشعور. ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يكون دون إحساس وشعور فإنه لا بد له أن يعبر عن هذا الإحساس والشعور، فهو في حاجة أن يعبر تلقائياً أو لاتلقائياً عن ألمه وفرحه.

الإنسان يجوع ويعطش، وتناوله الطعام والشراب هو تعبير عن الرغبة في الأكل والشراب، أي إحساس بالجوع والعطش. وإذن فالذي دفعني إلى الكتابة هو شعور بالحاجة إلى الكتابة، هو إحساس بأني أريد أن أقول شيئاً هو التعبير عما كان يختلج في صدري.

ولكن أنا أعرف تمام المعرفة أن الذي كتبته حتى الآن لم يكن لدي منه ولو

جزء من أصغر أجزائه، لم تكن لدي فكرة عن هذا الذي كتبت. فكيف عبرت عنه؟ بل كيف كنت أفكر فيه في الوقت الذي كنت أعبر عنه؟ أنا أفكر وأعبر في آن واحد. ولما كان لدي شعور واحد فلا يمكن أن يكون هناك فارق بين التفكير والتعبير. لماذا؟ لأن التعبير يكون بالكتابة أو بالكلام أو بالإشارة أو بما شاكل ذلك. ولما كنت أكتب فقد كنت أتكلم كلاماً نفسياً. إذن كنت أعبر. ولكن في الوقت الذي كنت فيه أعبر كنت أيضاً أفكر. ولكن التفكير كما قلت سابقاً هو كلام النفس. إذن فالتفكير على هذا هو التعبير. ولكن علي أن أستعمل هنا كلمة «تعبير» بمعنى أوسع: فقد يكون التعبير موجهاً إلى الشخص الذي أتكلم معه أو الذي سيقرأ هذا الذي كتبته. كما أنه، أي التعبير، قد يكون موجهاً إلى نفسي فقط. أما إذا كان التعبير يراد به إفهام المخاطب، كلاماً أو كتابة، وهذا المخاطب خارج عن نفسي، فإن التفكير حينئذ سيكون غير التعبير. وهناك مسألة أخرى جديرة بالاهتمام وهي أن الذي يحس شيئاً يعبر عنه أحياناً. فالتعبير هنا عن إحساس وشعور لا عن فكرة. ومن ثم يكون التعبير أوسع مجالاً من التفكير إذ إنه إما أن يكون تعبيراً عن فكرة أو عن إحساس. ومن هنا نأتي إلى نتيجة أخرى جديدة وهي أن التعبير مستقل عن التفكير كما أن هذا مستقل عن ذاك، إذا غضضنا الطرف عن كلام النفس الذي هو التفكير بعينه.

إن الأمور هنا رغم ما كتبت لا زالت غامضة، وأظن أن هذا الغموض لن يزول. وربما كان السبب في ذلك ضيق اللغة عن وسع جميع ما يحتاج الإنسان وما يجري في عقله. لماذا كانت اللغة أقصر من أن توفي بما في قلب الإنسان وعقله؟ لماذا كان هذان أوسع أفقاً من تلك. قد يكون الجواب بسيطاً إذا قلت إن الإنسان من صنع صانع أقوى من الإنسان وأن اللغة هي من صنع الإنسان فقط.

ومن ترى يكون هذا الصانع الأقوى...؟

الله

إن خالق الإنسان هو الله إذا كنا مؤمنين، وهو شيء آخر إذا كنا ملحدين.

ولكن من يكون هذا الشيء الآخر؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من الافتراض..

يمكن أن نفترض مثلاً أن الإنسان خالد لم يخلق، أي أن الإنسانية باقية إلى

الأزل (اقرأ: الأبد) كما كانت منذ الأزل. ويمكن أن نتصور أن الإنسانية لن تفنى لأن كل جيل سيعقبه جيل آخر إلى ما لا نهاية له. وعلى هذا الأساس يمكن أن نتصور أن الإنسان قديم قدماً ليس له مبدأ لأننا يمكن أن نقول أيضاً إن كل جيل قد نشأ عن جيل قبله.

وإذا سلمنا بهذا فيما يخص الإنسان فمن السهل أن نسلم به فيما يخص الطبيعة والحيوان وكل ما هو موجود. نعم إن الأشياء ليست اليوم كما كانت عليه منذ ملايين القرون ولكنها على كل حال كانت موجودة وما تبدلها بناف عنها صفة الوجود. إن الإنسان يظل موجوداً من يوم أن يكون طفلاً حتى يكون كهلاً. فرغم التغييرات التي تطرأ له (كذا) في هذه الحقبة من الزمان فإنه على كل حال متصف بصفة الوجود.

وهنا يجب أن نتساءل: هل يمكن أن يوجد شيء مستقل عن التغير، أو بعبارة أخرى هل يمكن أن يستقل الوجود عن الصيرورة. إن المشاهدة تدل على عدم إمكان افتراقهما. إن هذا الكتاب الذي أمامي لم يكن كتاباً أول الأمر. ربما كان جزءاً من شجرة أو من نبات. ولن يبقى كما هو إلى الأبد بل سيتلاشى فيصبح تراباً أو يحرق فيصبح رماداً. فالمادة ستكون موجودة على كل حال ولكن الذي ينعدم هو الصيغة التي تأخذها تلك المادة، أي أن الوجود مقترن بالصيرورة.

ولكن هناك شيء (كذا) أعمق من هذا. وما دمنا في باب الافتراض فلنفترض أيضاً أن الأرض التي يوجد عليها الإنسان قد اضمحلت وزالت كل حياة عليها. ألا يكون هذا خاتمة لوجود الإنسان الذي قلنا عنه إنه أزلي؟

ولكن قبل التفكير في الإجابة على (كذا) هذا السؤال يجب أن نسأل.. كيف ستصبح الأرض عندما تضمحل؟ لا بد أن تصير شيئاً، دخاناً، تراباً، ماء، أو أي شيء آخر. إذن هنا نرجع أيضاً إلى القول بأن الذي حدث هو تغير فقط. أي تغيرت الأرض وتغير الإنسان معها. ولكن هل يمكن أن نسمي ذلك الشيء الذي آل إليه الإنسان (= بعد هذا التحول) إنساناً؟ الواقع الذي يوجد عليه الإنسان اليوم يجيب بالسلب، لأن الإنسان كما سبّقنا يفكر ويعبر. أما التراب أو الدخان... فهو لا يفكر ولا يعبر. لكن من قال لنا إن التراب لا يفكر ولا يعبر. نعم لا يفكر ولا يعبر بالنسبة إلى تفكيرنا وتعبيرنا. ألا يمكن أن نفترض، ما دمنا في باب الافتراض أن التراب والدخان و... يفكر ويعبر (كذا). نعم ذلك جائز لأننا بنينا كل شيء

على الافتراض ويمكن أن نسترسل في مثل هذا الكلام إلى ما لا نهاية له مستندين إلى الافتراض المحض.

ولكن، الافتراض ليس هو الحقيقة بل الحقيقة مستقلة عن الافتراض.

إذن فمن هو خالق الإنسان إذا أزلنا الافتراض من عقولنا؟

قد يقال إن الإنسان كان طيناً أو ماء أو تراباً أو أي شيء آخر ثم تطور ودخلته الصيرورة حتى أصبح إنساناً. وربما تدخله الصيرورة نفسها حتى يصبح إنساناً من نوع آخر.

ولكن على كل حال سيبقى لنا دائماً أن نتساءل: من خلق أصل الإنسان؟ من خلق الماء والطين والتراب أو الشيء الآخر؟

في استطاعتنا أن نرجع كل شيء موجود في هذا العالم إلى شيء واحد دخلته الصيرورة. ولكننا لن نستطيع أن نوجد خالقاً لذلك الأصل، لأننا سنغرق في لج التسلسل أو الدور، وهذا ما لا يؤدي إلى الحقيقة أبداً.

وعلى ذكر الحقيقة يجب أن نعرف هنا معناها الذي نقصده. الحقيقة هنا ليست شيئاً ذاتياً نلمسه بأيدينا أو نراه بأعيننا، بمعنى أنها ليست كائناً ولا مخلوقاً، إنها فقط الاقتناع والاطمئنان. فإذا قنعت نفسي واطمأنت نفسي إلى أن هذا الذي أكتب به قلم وليس حجر (كذا) فمعنى هذا أني مؤمن بأن هذا الذي بين أصابعي قلم. والحقيقة كامنة في كونه قلماً بحيث إن هذه الحقيقة تمنعني منعاً كلياً من أن أعتقد أنه خبز أو ورق. وعلى هذا فالوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بخالق الإنسان والكون بأجمعه معناه الاطمئنان والاقتناع بحل مرض لهذه المشكلة. ومن صفة هذا الحل الذي يمكن أن نطمئن إليه ونقتنع به أن يكون ثابتاً لا يتغير، بمعنى أن يكون غير قابل للشك ولا للتأويل أبد الدهر.

إن القول بأن المادة موجودة وجوداً ذاتياً مستقلاً وأنها تكيف نفسها (بتفكير أو دون تفكير، بشعور أو بدون شعور) لتصبح جماداً وحيواناً وإنساناً أو نوراً وظلاماً وهلم جرا، إن القول بذلك لا يعفينا من البحث عن أصل العالم لأنه لو كانت المادة هي الأصل فإننا سنجد أنفسنا أمام افتراضين:

١ ـ إما أن لها خالق (كذا).

٢ ـ إما أن ليس لها خالق.

١ ـ فإذا كان لها خالق فمن هو؟ وحينئذ يكون ذلك القول لا يعبر عن الحقيقة المطلقة، لأنه يستدعي الشك بطبيعته. وهذا الشك يتجلى في تساؤلنا كيف كانت المادة قبل أن تدخلها الصيرورة. على أننا قد سلمنا قبل أن الوجود مقترن بالصيرورة. وهذا سيؤدي بنا إلى التساؤل أيضاً عما إذا كانت المادة الأولى الخالقة خالية من الصيرورة أم لا، وإذا كانت خالية منها فكيف دخلتها من بعد، وإذا لم تكن خالية منها فكيف يمكن أن نتصور وجود المادة والصيرورة على مر الزمن؟ لا يمكن ذلك مطلقاً لأننا إذا قلنا بذلك ورجعنا القهقرى فإننا سنجد أنفسنا أمام مشكلة أعقد من الأولى، مشكلة عويصة جداً. ولا حل لها أبداً لأن كل محاولة لحلها تستدعي الافتراض، والافتراض بعينه شيء مخالف للحقيقة تماماً. ذلك لأنه من صنع أفكارنا، وأفكارنا لا تستطيع أن تصنع الحقيقة لأنها (= الحقيقة) كما قلنا ذاتية مستقلة تمام الاستقلال عما عداها.

٢ ـ أما إذا قلنا إن المادة موجودة دائماً وأن الوجود صفة لازمة لها بحيث لا يمكن تصور المادة دون أن تكون موجودة وأنها بحكم وجودها المطلق تكيف نفسها تكيفات شتى وأن هذه التكيفات عمل إيجادي، أي أنها هي التي توجد الأشياء، وبذلك تكون هي صانعة الصيرورة، إذا قلنا بذلك فإننا لن نسلم من الشك، إذ من يثبت لي، حتى أقتنع وأطمئن، أن المادة تتصف بما ذكر. لا شيء على الإطلاق. إذن هذا أيضاً مجرد افتراض.

وهكذا نرى أن الافتراض الذي افترضناه أولاً لم يؤد بنا إلا إلى عدة افتراضات. فالافتراض لا يؤدي إلا إلى الافتراض ولا يمكن أن يؤدي أبداً إلى الحقيقة. وما قد يفترضه العلماء الرياضيون من مسائل يثبتون صحتها من بعد فإن افتراضهم ذاك لم يخلق الحقيقة ولم يؤد إليها بل إنما وصلوا إليها صدفة. ذلك لأن الحقيقة كانت موجودة قبل أن يقوموا بالافتراض مع العلم أن افتراضهم ذاك كثيراً ما يؤدي إلى الفشل، فليس حقيقياً أن كل افتراض يؤدي إلى الحقيقة، وربما أدى إلى ما قد يبدو حقيقة ولن (اقرأ: لكن) لا يلبث أن ينكشف أنه ليس من الحقيقة في شيء.

لنعد الآن أدراجنا بعد ما تأكد الشك في كون الإنسان خلق نفسه أو خلقه أي شيء آخر غير الله، ولنقل الآن إن خالق العالم هو الله.

ولكن ما هو الله؟ ما هي صفاته؟

إذا قلنا إن الله خلق كل شيء، فمن يثبت لنا ذلك؟ بل من يثبت لنا وجود هذا الخالق؟ قد يقال إن الكون نفسه يثبت أن هناك خالقاً له. هذا صحيح لأن الكون مخلوق لم يوجد نفسه. وكل مخلوق لا بد له من خالق. نعم هذا صحيح. ولكن من قال لنا إن الذي أوجد الكون هو الله؟ وإذا سلمنا بذلك فمن هو الله؟ قد يقال إنه لم يخلقه أحد لأنه إذا كان ذلك فلا بد من خالق له، وهكذا نرتمي في الدور أو التسلسل.

قد يقال إن رسل الله هم الذين قالوا إن الله موجود وأنه خالق الكون. ولكن من هم رسل الله وما أدراني أن الذي يقول ذلك (هو) رسول الله حقيقة؟ وإذا كان الله هو خالقنا، فلماذا يرسل إلينا رسلاً ليبلغونا ما يريد أن نفعل وما يريد أن نجتنبه؟ ألا يمكن له أن يدلنا هو نفسه على ذلك ما دام هو الذي خلقنا؟

إن المنطق يقتضي أن نبحث أولاً لماذا يحتاج الله إلى إرسال رسله إلى الناس قبل أن نبحث هل حقيقة هؤلاء هم رسل الله؟

إذن لماذا يرسل الله رسله، ولماذا لا يقول لنا بصفة مباشرة أو غير مباشرة ما يريد أن نفعل وما يريد أن نترك؟

قد يقال يفعل ذلك لكي تستقيم حياتنا. ولكن يمكن أن نقول لماذا لم يجعلها أول مرة مستقيمة؟ ففي استطاعته ذلك دون شك.

قد يقال أيضاً إنه أراد أن يجعلنا كما نحن عليه بحيث يقتضي وجودنا وتصرفاتنا أن يكون هناك من يرشدنا إلى ما فيه صلاحنا. نعم هذا مقبول لو اقتنعنا سلفاً بأن الله موجود، ويجب أن لا ننسى أننا نريد إثبات وجوده بواسطة رسله.

من الممكن القول بأن معجزات الرسل هي الدليل على أنهم رسله ومن ثم فهم أيضاً الدليل على وجود الله. إن النظر الصحيح يثبت أن هذا القول مجرد افتراض وأن هذا الافتراض لن يؤدي إلى الحقيقة، فهو مجرد هروب من مجابهة المشكل مجابهة حقيقية.

إذن ما العمل؟

ليس هناك إلا طريق واحد. وهو الاستسلام! نعم الاستسلام!

يجب أن نسلم أن الله موجود وأنه خالق الكون وأنه أرسل رسلاً وأنه يفعل ما يريد.

لماذا نسلم بذلك؟

لأن عقولنا قاصرة عن إدراك الحقيقة. قبل قليل من السنين لم يكن أي إنسان يتصور أن بمقدوره أن يصنع طيارة يطير بها إلى السماء ولم يكن من الممكن التصديق بحدوثها لأنها كانت في عالم الغيب. أما اليوم فإننا لا يمكن أن ننكر ذلك لأنها أصبحت حقيقة ملموسة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قصر (اقرأ: قصور) العقل الإنساني.

والغريب في الأمر أن الإنسان الضعيف القاصر التفكير يريد أن يثبت بعقله القاصر وجود خالقه الذي يوجد في عالم الغيب.

إذن لنستسلم. والاستسلام من طبيعة الإنسان بل من طبيعة الأشياء كلها ما عدا الله.

إننا لن نخسر شيئاً إذا سلمنا أن الله موجود وأن رسله هي رسل حقيقية، لأن هؤلاء لا يطلبون منا إلا ما فيه صلاحنا. هذا شيء لا شك فيه.

لنكن مؤمنين رغم شكوكنا، لأن الشكوك لن تجدي نفعاً.

لنقل بكلمة بسيطة إن الله موجود وأنه هو خالقنا. أما من هو وكيف هو ومن يثبت وجوده، فهذا أمر نتركه، لأنه فوق تصوراتنا وأعلى من عقولنا.

على أن التأمل في ما تنبىء به الرسل وما كانوا عليه أيام حياتهم خير دليل على أن الله موجود وأنه أرسلهم فعلاً.

على كل حال، إننا لن نخسر شيئاً إذا قلنا إن الله موجود ولو كان هذا القول هروباً أو نفاقاً لأنه إذا كان موجوداً حقيقة فسيكون هو المسؤول عن هذا الشك وعن هذا الهروب والنفاق لأنه لم يرنا نفسه بصفة نطمئن إليها. وإذا لم يكن موجوداً حقيقة فإننا لن نوصف إلا بكوننا أخطأنا التقدير والتخمين. وكم هي الحالات التي يخطىء فيها الإنسان.

نعم، لكل أن يختار الطريق الذي يريد، قد تختار الإلحاد وقد تختار الشك دائماً. وقد تختار ما تريد. أما أنا فإني أختار الإيمان. ولو كان اختياري هذا نوعاً من الاستسلام والتسليم فما أنا إلا بشر ذو عقل قاصر.

تعقيب

على أن المسألة هي في الحقيقة اختيار بين افتراضين، لأنه إذا كان القول بأن المادة هي أصل كل شيء لا يعدو أن يكون افتراضاً، ولأنه إذا كان القول بأن الله هو الخالق قول (كذا) لا يقوم عليه دليل منطقي عقلي يقبله العقل، فهو إذن افتراض أو أشبه بافتراض، فإن أمامنا ـ على هذا ـ أن نختار بين الافتراض الأول والافتراض الثاني.

ولما كان الأمر أمر اختيار، فليختر كل منا ما يريد. أما أنا فقد اخترت.

ولكن يجب أن لا ننسى أن الذي يختار ورقة «اليانصيب» لن يكون هو الرابح دائماً.

أنا أؤمن بالله لأن الإيمان والتسليم أقرب طريق إلى حل المشكلة. وإذا كان هذا الحل غير صحيح في نظر البعض فإنه صحيح في نظري لأنه ليس هناك في هذا العالم من يثبت لي خطأ اختياري إلا بعد أن يثبت لي صحة اختياره. وأنا أعتقد أن أياً كان لن يستطيع أن يثبت لي (أن) كون المادة هي الخالقة أو أن الكون موجود أبد الدهر.

التوقيع وتحته ما يلي: انتهيت من كتابته في الساعة الثامنة من اليوم نفسه، ٢ ـ ١ ـ ١٩٥٩.

(**ملاحظة:** واضح أن أصداء رهان باسكال وشك ديكارت يتردد صداهما هنا. وكان صاحبنا حين كتب هذا النص طالباً في السنة الأولى فلسفة بالرباط وكان الأستاذ الرئيسي هو المرحوم الدكتور محمد عزيز الحبابي).

٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩

واقع الشباب المغربي

تصميم الموضوع

١ ـ واقع الشباب المغربي هو واقع الأمة المغربية نفسها.

٢ ـ الحياة الاجتماعية في المغرب حياة ناقصة متفككة.

ـ عدم وجود انسجام تام بين الفئات.

ـ بروز التنافر بين مختلف عناصر الشعب.

ـ دور الجهل في الحياة الاجتماعية المغربية.

ـ دور الفقر في الحياة الاجتماعية المغربية.

٣ ـ اضطراب الحياة الاجتماعية ينتج الأنانية الفردية والقبلية.

ـ مظاهر الأنانية الفردية، السعي وراء المصالح الشخصية، انعدام المثل القومية الوطنية، انحلال الأفراد من المفاهيم الخلقية والدينية.

٤ ـ موقف الشباب إزاء هذا الانحلال الاجتماعي.

ـ الشباب المغربي جله غير مثقف (خطر جهل الشباب، اضطرابه، تفكك الروابط الأخلاقية بين الشباب).

ـ في المغرب فئة من الشباب نصف المثقفين (غرور هذه الفئة، خطرها في الحياة الاجتماعية والوطنية، سعيها وراء المنافع الذاتية، جريها وراء الأجور المرتفعة بأية وسيلة ولو غير مشروعة، خطر هذا على الكيان الاجتماعي).

بالبيضاء 3 يناير ١٩٥٩

~~وضع~~ واقع الشباب المغربي

تصميم الموضوع

١ - واقع الشباب المغربي هو واقع الأمة المغربية نفسها
٢ - الحياة الاجتماعية في المغرب حياة ناقصة متفككة.
أ - عدم وجود انسجام تام بين الفئات
ب - بروز التنافر بين مختلف عناصر الشعب
ج - دور الجهل في الحياة الاجتماعية المغربية
د - دور الفقر " " " "
٣ - اضطراب الحياة الاجتماعية ينتج الأنانية الفردية والقبلية
أ - مظاهر الأنانية الفردية (السعي وراء المصالح الشخصية انعدام المثل العليا الوطنية - انحلال الأفراد عن المفاهيم الخلقية والدينية.
٤ - موقف الشباب إزاء هذا الانحلال الاجتماعي
ا - الشباب المغربي جله غير مثقف (خطر جهل الشباب - تفكك الروابط الأخلاقية بين الشبا
٢ - في المغرب فئة من الشباب نصف المثقفين (غرورهم الفئة - خطرها في الحياة الاجتماعية والوطنية - سعيها وراء المنافع الذاتية - جريها وراء الأجور المرتفعة بأية وسيلة ولو غير مشروعة - خطرهم على الكيان الاجتما

٥ ـ اختلاف ثقافة المثقفين والشبان المثقفين (دور الثقافة في حياة الفرد. دورها في حياة الجماعة. أسباب اختلاف الثقافة: العهد الاستعماري. نتائج اختلاف الثقافة أيام الاستقلال).

٦ ـ موقف الشباب من زعمائه:

ـ عدم نضوج الزعماء المغاربة. خلو نشاطهم الحزبي والاجتماعي من المفاهيم الفكرية الثابتة.

ـ نظراً لذلك كان الصراع غير واضح.

ـ فقدان الشباب ثقته في قواد الحركة الوطنية.

٧ ـ أسباب فقدان الثقة:

ـ من صفات الشباب القوة والاندفاع وعدم وجود مفاهيم فكرية منطقية معقولة تستطيع استغلال قوة الشباب واندفاعه خطر على الشباب نفسه وعلى المجتمع أيضاً.

ـ من صفات الشباب ميله إلى الثورة والانقلاب. عدم وجود وسائل لاستغلال النشاط الثوري الانقلابي عند الشباب يسبب انتكاس الشباب ووقوفه موقف المتفرج.

ـ انهيار النشاط الاجتماعي والثقافي عند الشباب نتيجة من نتائج ذلك.

٨ ـ هل الشباب المغربي جدير باسم الشباب؟

ـ الشباب حركة ونشاط.

ـ الحركة = القوة والاندفاع.

ـ القوة والاندفاع = ثورة وانقلاب.

ـ النشاط = التعبير عن الطاقة الكامنة. أي التعبير عن القوة والاندفاع.

ـ نشاط الشباب نشاط ثوري انقلابي.

٩ ـ معنى ثورة الشباب:

ـ الشباب يطمح إلى المستقبل، والمستقبل من بناء سواعد الشباب.

ـ المستقبل يجب أن يكون أحسن من الماضي والحاضر.

ـ تغير أحوال المجتمع من واقع الحاضر إلى آمال المستقبل لا يتم بالطريق الطبيعي إلا بعد موت أجيال وفناء أجيال وحصوله رغم ذلك مشكوك فيه، كما

يشك في كونه ربما يؤدي إلى انتكاسة.

ـ ثورة الشباب تتجلى في رفض الحاضر رفضاً كلياً. الحاضر قديم والمستقبل جديد. والحاضر والمستقبل، أي القديم والجديد، لا يلتقيان إلا في ذاكرة الشباب (مسطر عليها في الأصل بخط أحمر).

ـ ليس معنى الثورة رفض جميع القيم الخلقية والدينية، إذ إن هذا انتكاسة إلى الوراء، بل معناها تجديدها وبعث الصالح منها والقضاء على الطالح منها.

ـ ثورة الشباب إذن ثورة إيجابية بالإطلاق إذ هي إيجاد الأحسن، وهي سلبية نسبياً فقط، سلبية فيما يتعلق بمحو الفاسد من النظم والمعتقدات والعادات.

١٠ ـ معنى انقلابية الشباب.

ـ الشباب انقلابي بطبعه، لأنه ينقلب فجأة على أفكار صباه ومراهقته ويتجه إلى أفكار أحسن هي أفكار الرجولة الحية.

ـ انقلابية الشباب تتجلى في رفضه التسليم بما كان موجوداً من النظم والأفكار والعادات.

ـ انقلابية الشباب تتجلى في شكه الدائم في وجه مجتمعه.

ـ الشباب يسعى في تكييف نفسه مع المجتمع... وهذا التكييف صراع بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون.

ـ صراع الشباب في (؟) صراع دائم مستمر.

١١ ـ لا بد من قيادة للشباب.

ـ هدف هذه القيادة تكييف ذلك الصراع وجعله يتمشى مع متطلبات الإصلاح.

ـ هدف هذه القيادة استغلال انقلابية الشباب وثورته لصالح الأمة والمجتمع.

ـ من واجبات هذه القيادة إحياء نشاط الشباب كلما ظهر عليه الوهن نتيجة لإخفاقها (اقرأ: لإخفاقه) في التكييف والاستقلال.

١٢ ـ ليس في المغرب قادة للشباب حقيقيون.

١٣ ـ ليس في الشعب المغربي ظاهرة واضحة لفكرة الثورة والانقلاب بالمعنى المتقدم. (كان ذلك موجوداً أيام الاستعمار).

١٤ ـ إحياء الشباب وتجديد نشاطه يتطلب قيادة من طبيعتها الفكرة الثورية والانقلابية حتى تغذي ظاهرتي الثورة والانقلاب في روح الشباب.

١٥ ـ من أهم الأسس التي يجب أن تقوم عليها تلك القيادة اتباع مفاهيم فكرية معينة. وتعيين هذه المفاهيم من عمل القيادة إذ هي التي ترى بعين واسعة أين توجد مصالح الأمة والشعب.

١٦ ـ تعلق الشباب بمفاهيم فكرية أو دينية شيء ضروري لأن الشباب ينشغل بها وينسى حاجاته الآنية والصعوبات التي يخترقها (اقرأ: تعترضه).

١٧ ـ ليس من الصعب أن يدرك الشباب الجاهل مثل هذه المفاهيم لأن ظاهرة الثورة والانقلاب عنده تميل إلى التبعية والتقليد.

١٨ ـ الشباب المغربي في حاجة إلى روح تنفخ فيه من روحها. هذه هي الحقيقة الكبرى.

(ملاحظة: كتب هذا النص/ المشروع ـ كما هو منصوص عليه أعلاه ـ في ٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩ أي قبل «انتفاضة ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩» ببضعة أسابيع فقط. ومعلوم أن هذه الانتفاضة قام بها «الشباب» أساساً داخل حزب الحركة الوطنية، حزب الاستقلال، احتجاجاً على أسلوب عمل العناصر «غير الشابة» في قيادته. وهذا موضوع سيجد مكانه في الجزء الخاص بالتجربة السياسية لصاحب هذه الحفريات. يمكن أن يلاحظ القارىء أيضاً غياب مصطلح «إيديولوجيا» في ذلك الوقت في الخطاب العربي الشيء الذي استعاض عنه النص بكلمات أخرى: مفاهيم، أفكار. . .).

الدار البيضاء ٣ أيار/ مايو ١٩٦١

اعتراف

يجب علي قبل البدء في كتابة هذه المذكرة أن أعترف بادىء ذي بدء بأني لا أفكر في كتابة المذكرات إلا في أحوال نفسية خاصة.. إلا عندما أكون في أزمة أو شبه أزمة نفسية.

لقد كتبت آخر مذكرة كما يبدو من هذا الدفتر في ٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩ أي منذ ٢٩ شهراً.. نعم تسعة وعشرون شهراً مرت كلها بدون أن أكتب أية مذكرة، مع أنها مدة طويلة.

ولكن كما قلت سابقاً لا أفكر في كتابة المذكرات إلا عندما أعاني حالة نفسية هي أشبه بأزمة. وليس معنى هذا أني لم أعان طوال هذه المدة مثل هذه الحالة النفسية الشبيهة بالأزمة، بل لقد عانيت مثل هذه الحالات مراراً... ولكن لم تكن تلك الحالات مما يتصل بي شخصياً، أي لم تكن تتناول حياتي الداخلية الخاصة وإنما كانت لها ارتباطات بالمجتمع وبمستقبل البلاد.

أما حينما تعتريني حالة نفسية خاصة، كتلك التي تنشأ عن مشكلة المستقبل أو الزواج فإني أجدني مدفوعاً إلى كتابة مذكرات.. ولعلها وسيلة للتنفيس (...).

أبحث عن نصفي الآخر

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها أنتقل إلى موضوع هذه المذكرة: إنه البحث عن الشريك: البحث عن النصف الآخر.. البحث عن الزوجة..

أنا أفكر جدياً في الزواج.. لأسباب:

أولاً: وصول سني سن الزواج.. ٢٥ عاماً.

ثانياً: قرب حصولي على الليسانس.

ثالثاً: تحسن مطرد في مستوى عائلتي من الناحية المادية.

إنها دوافع معقولة.

ولكن ما هي ومن هي الزوجة التي أبحث عنها. إنها فتاة يجب أن تتوفر فيها شروط (...) إنها شروط قلما تتوفر في فتاة.. ولضمان توفرها يجب علي أن أتجنب حب أية فتاة قبل البحث في استكمالها لهذه الشروط. إذن يجب أن لا أرتبط مع أية فتاة قبل توفرها على هذه الشروط.

الأحد ٢٨ أيار/ مايو ١٩٦١

فلسفة.. ولكن

لو قدر لي أن أكون فيلسوفاً ذا مذهب خاص به ولو أني لا أتخذ لي شعاراً العبارة التالية المشهورة: «احذر الشجرة التي تخفي عنك الغابة»، لولا هذا وذاك لكان مذهبي الفلسفي ولكانت فلسفتي كلها تنحصر في المرأة.. وبعبارة أوضح في هذا «الشيء» الذي يربط الإنسان بالمرأة، خاصة الشاب الأعزب بالفتاة. هذا الذي يربط بينهما ربطاً، ويجعل أحدهما يغار على الآخر غيرة قد تكون عمياء أو تتعدى العمى، هذه القوة السرية الخفية التي تجعل من الشاب دوماً «نزوعاً» إلى الفتاة، نزوعاً مستمراً إلى رؤيتها، إلى الحديث معها، إلى تخيلها في مواقف معه، مواقف بريئة، ولكنها تعبر عما نسميه ويسميه الناس «الحب»، ولكنه ليس حباً عادياً. ولكنه شيء آخر أسمى من الحب، أو أنه الحب على حقيقته قبل أن يشوهه العشاق المبتذلون، وقبل أن يمسخه المغنون في أغانيهم المصطنعة اصطناعاً.

إن ذلك كان سيكون مذهبي في الفلسفة لو كان لي مذهب، وكان سيكون أساس فلسفتي كلها لو كانت لي فلسفة لو لم أتخذ تلك العبارة: «احذر الشجرة التي تخفي عنك الغابة» شعاراً لي.

إنني لا أستطيع تفسير هذه القوة، هذه الطاقة، هذه الأحاسيس المتراكمة الممتزجة بعضها مع بعض، هذه الكمية من الشعور الذي يكون نزوعاً كلياً.. نحو الفتاة، نحو المرأة.

اليوم نفسه

ولكن... ما هي فتاة أحلامي؟

إنه قد يبدو من السخافة الحديث عن فتاة الأحلام لأن وصفها بكونها فتاة أحلام يجعلها مجرد خيال وأحلام لا تتحقق.. ولكني سأعمل جهد المستطاع لأكون موضوعياً في تحديد هذه الفتاة: فتاة الأحلام. لن أكون مثالياً، ولا خيالياً، فهذا ليس من طبعي. ولكن سأكون موضوعياً إلى حد كبير (...).

التوقيع

الأحد (٢٨ مايو)

"فلسفة".. ولكن.

لقد قدر لي أن أكون أكبر فيلسوفا ذا مذهب
به، ولو أنني لا أتخذ لي شعارا العبارة المشهورة
"احذر الشجرة التي تخفي عنك الغابة".. لو
ذلك، لكان مذهبي الفلسفي، ولكانت عند
كلها تنحصر في المرأة.. وبعبارة أوضح في
"الشيء" الذي يربط الإنسان بالمرأة، فالشاب
الأعزب بالفتاة. هذا الذي يربط بينهما ربطا
ويجعل أحدهما يغار من الآخر غيرة قد تكون مؤلمة
أو تشعل النفس، في هذه القوة السرية الخفية
تجعل من الشاب دوما "منزوعا" إلى الفتاة
نزوعا مستمرا إلى رؤيتها، إلى الحديث معها
إلى تخيلها في مواقف معه، هو أقنه بريئة، هو
تعبيرها تسميه ويسميه الناس "الحب"؟
ليس حبا عاديا مطروقا، ولكنه شيء
أسمى من الحب، إنه الحب في حقيقته
قبل أن يشوهه العشاق المبتذلون، أو
أن يسخره المغنون في أغانيهم الساقطة
أحطها..

إن ذلك أن سيكون مذهبي في الفلسفة

الثلاثاء ٦ حزيران/ يونيو ١٩٦١

في حاجة إليه...

نعم أنا في حاجة إلى الحب. في حاجة ماسة إليه. إنني أحس أحياناً أن كل قطعة من جسمي تبحث عن قطعة أخرى في جسم فتاتي.. فتاة حبي. وأشعر أن قلبي وروحي وعقلي في حاجة إلى قلب وروح وعقل يركن إليه ويقاسمه الشعور والإحساس والتفكير...

إن حياتي أصبحت مشروعاً.. أصبحت نزوعاً..

لقد كنت أعتقد أن الإنسان يستطيع الحياة بدون حب، حب جنسي.. ولكن هذه الأيام أشعر بأني بدون حب كالأحمق..

إن شيئاً ينقصني.. نعم ينقصني.. وأحس بأن هذا الشيء يكون نصفي الآخر.. نصفي الضائع.. النصف الذي أبحث عنه.. في الطرقات، في الشوارع، في الأندية، في السينما، في كل مكان.

إنني لا أستطيع أن أمر أمام فتاة بدون أن أنظر إليها، وكأني أبحث عن فتاة أعرفها من قبل.. كأن فتاتي، كأن نصفي ضائع، وأني باحث عنه هنا وهناك.. في كل مكان.

إني دائماً في توقان.. في انعطاف.. إني مفتوح الذراعين، مفتوح القلب، مفتوح الروح مفتوح الجسم..

إنني كجهاز استقبال.. مستعد لاستقبال نصفي الآخر الضائع.. الذي أبحث عنه في كل مكان. إنني كقطعة مغناطيس.. فيّ من قوة الجذب ما يجعلني أنا منجذباً إلى خارج نفسي، إلى شيء آخر، إلى فتاة، إلى حب.. إنني أعيش خارج نفسي، خارج أناي.. أعيش من أجلها ولأجلها، لأجل تلك الفتاة التي لا أعرفها.. إذ لو أعرفها لحلت المشكلة. إذن لوجدت نصفي الضائع.

ولكن كيف سيكون هذا النصف.. الضائع مني؟.. أسيكون قطعة مني

جسماً وروحاً وطبعاً.. أم يكون مخالفاً.. فيكون التنافر والتضاد..

أنا لا أحب فلانة حباً جنسياً، هذا صحيح.. ولا يغريني في الزواج منها لا سلوكها لأني لا أعرفه بالضبط، ولا عائلتها، فهي عائق أكثر من مرغب.. ولكن أشعر برغبة، حادة أحياناً، في اكتشافها.. اكتشاف هذه المخلوقة التي أراها كل يوم.. ولست أدري ماذا أريد منها.. إنه ليس الحب.. إنه ليس الإعجاب ولكني لا أعرف لماذا أنا أفكر فيها.. قد يكون ذلك من أجل اكتشاف ما إذا كانت تحبني أم لا..

وحتى إذا اكتشفت يقيناً أنها تحبني فهل هذا سيحملني على الزواج منها؟ لا أعتقد.. نعم إني أناني..

من الناحية الموضوعية إنها لا تلبي الشروط التي أضعها كأساس لنجاح الزواج.

ومن الناحية العاطفية لا أشعر بأي حب جنسي إزاءها.. بل إني كلما تصورتها زوجة تضاجعني إلا وشعرت بأنني بدأت أبتعد منها.. إذن ماذا يجعلني أفكر فيها؟

هل لأني لا أعرف غيرها؟ قد يكون...

ولعل هذا صحيح.. وقديماً قالوا: «كل له ليلاه.. ومن لم يجدها اتخذها من الخشب».

وهكذا أصبحت أتخذ من فلانة ليلاي. ولعل ذلك أفضل من الخشب.. حقاً هذا صحيح.. ولكن ما بعد هذا.. إني أريد اكتشافها.. لمعرفة ما في عقلها، في تفكيرها. لقد حملتها معي من مكان عملها إلى باب منزلها، وكان حديثنا سطحياً خارج الموضوع، موضوع الحب، وقد وجدتني في الأخير قد أحسنت التصرف.. ولكن ذلك لن يحل المشكلة..

هل أحملها غداً مثلاً إلى عين الذئاب.. بعد السادسة؟

إن هذا ممكن وممكن جداً..

نعم يمكن بكل سهولة أن أربط معها علاقات غرامية ولو مصطنعة، ولكن كل تصرف من جانبي نحوها إلا وسيكون في علم عائلتي وعائلتها... ومن ثم سيكون دلالة قاطعة على أني أنوي الزواج بها..

وأنا لا أرغب في هذه النتيجة.

ماذا سأفعل؟

لست أدري.

وكل ما أدريه هو أني في حاجة إلى نصفي الثاني.

أين أنت أيها النصف: نصفي أنا الذي أبحث عنك في كل مكان وفي كل لحظة؟

التوقيع

(**ملاحظة**: تم الزواج بشريكة الحياة أم الأولاد في ٤ آب/ أغسطس ١٩٦٢).

حوار

أجراه مع المؤلف الأخوان: حسن نجمي عن جريدة الاتحاد الاشتراكي وعلي أنزولا عن مجلة المجلة الصادرة بلندن.

س ـ كيف فكرتم في البداية في كتابة سيرتكم الذاتية حفريات في الذاكرة؟ هل جاء ذلك نتيجة إحساس معين بضرورة كتابة هذه السيرة أم أن هناك اعتبارات أخرى، منها ما هو سياسي ومنها ما يتعلق بمشروعكم الثقافي؟

ج ـ لا أستطيع تحديد دافع خاص كان وراء كتابتي لهذه الحفريات. والشيء الذي أستطيع تأكيده هو أن كثيراً من الأصدقاء طلبوا مني مراراً ومنذ سنين كتابة نص عن طفولتي. وكان المرحوم باهي محمد يقول لي دائماً لا بد أن أجلس معك في خلوة لمدة أسابيع لأنتزع منك وقائع طفولتك. وأذكر أنه منذ حوالى ست سنوات بدأت أسود أوراقاً سجلت فيها ذكرياتي حول وقائع طفولتي، وكنت أفعل ذلك عندما لا أكون مشغولاً بالبحث في موضوع ما. وفي الأسابيع التي سبقت نشر هذه الحفريات طرأ دافع خاص لا علاقة له لا بالسياسة ولا بالثقافة هو الذي حملني على مراجعة تلك الأوراق وكتابة ما كتبت. إن نشر هذه الأوراق في الوقت الذي نشرت فيه يرجع أولاً وأخيراً إلى «الحاجة»، الحاجة التي ترتبط بتزايد متطلبات الأولاد، وكثير من الأصدقاء يعرفون حقيقة هذه الحاجة. إذن كان هناك دافع شخصي عائلي محض. ومع ذلك فيمكن أن يعطي بعض الناس لقرار نشر هذه «الحفريات» وتوقيت نشرها تأويلات أخرى تضفي عليها هذا المعنى أو ذاك. والواقع أن التاريخ تجري حوادثه في كثير من الأحوال على هذا الشكل: يقوم الإنسان بفعل ما ثم يأتي شخص آخر يقرأه على ضوء الظروف والملابسات المحيطة به فيعطيه معنى آخر. وأنا إذ أفهم هذا أؤكد أنه لم يدر بخلدي أي معنى من هذه المعاني التي يمكن أن تعطى

لهذا التوقيت. ولقد كان من الممكن أن يعطى لنشر هذه «الحفريات» معنى آخر لو أني اقتصرت على نشرها في جريدة **الشرق الأوسط** وحدها دون جريدة **الاتحاد الاشتراكي**. ولو اقتصرت على نشرها في هذه الأخيرة لما حصل المقصود الأولي من نشرها، وهو تغطية «حاجة» معينة. وأنا من عادتي أن لا ألجأ في مثل هذه الأمور لا إلى جريدتنا ولا إلى حزبنا، لا على سبيل التعويض أو المكافأة ولا على سبيل السلفة.

س ـ من خلال القراءة الأولى لنص «حفريات في الذاكرة» يكتشف القارىء أن الكاتب قد فكر مسبقاً في عرض حكاية سيرته الذاتية اعتماداً على تصور مسبق. فهو بهذا التصور يكتب عن «زمن اللاكتابة» أي زمن الطفولة، «في زمن الكتابة» والوعي. وبعبارة أخرى إن الكاتب يتكلم، من خلال وضعه كمفكر، عن زمن طفولته من خلال وعيه به كحاضر. لذا أعتقد أن النص في مثل هذه الحالة قد تسقط عنه السليقة والعفوية التي أشرت إليها في الاستهلال الذي قدمت به النص. نريد أن نعرف إلى أي حد كان الكاتب، صاحب الذات الواعية، موضوعياً ومحايداً في التأريخ لوقائع حياته الشخصية زمن الطفولة؟

ج ـ أما أن أكون محايداً وموضوعياً فهذا ما لا أستطيع تأكيده، لأن السيرة الذاتية تبقى ويجب أن تكون ذاتية في جميع الأحوال. والأهم من هذا بالنسبة لي هو الصدق. وأعتقد أنني لم أكتب عن حياتي الشخصية وحدها بل عن حياة جيل بكامله، الجيل الذي أنا فرد منه وعاش معي وعشت معه حياة مشتركة، سواء في مدينة فجيج، في الشارع أو في المسيد أو المدرسة أو في الدار البيضاء ودمشق بعد ذلك. فهذا الجيل، وأقصد أصدقائي وأقاربي وزملائي في المدرسة، وعددهم كثير، كلهم شهود على مدى صدق جميع ما رويته من وقائع.

أما بالنسبة لـ «التصور» الذي صدرت عنه في كتابة ما كتبت، وكذلك الشأن بالنسبة لـ «منهج الكتابة»، فإن الجواب عن هاتين المسألتين يتطلب مني الآن كتابة فصل آخر من **سيرتي الذاتية** لم يحن الوقت بعد للخوض فيه لأنه يتعلق بالمسار الثقافي الذي أنوي أن أخصص له جزءاً مستقلاً. ومع ذلك فلا مانع من الإدلاء بالتوضيحات التالية:

أستطيع أن أؤكد أني لم أصدر عن «تصور» مسبق لا بخصوص بناء الموضوع ولا بخصوص المنهج، وإنما صدرت عن عفوية وسليقة، أي بدون تكلف، دون أن أحمل نفسي حملاً على الخوض في موضوع معين أو اتباع أسلوب معين. ولكن

العفوية والسليقة لا تعنيان بحال من الأحوال التحرر ولا التنكر ولا الهروب مما يشكل جزءاً من شخصية الإنسان. فصاحب «الحفريات»، موضوع الحديث، إنسان له شخصية يدخل «الثقافي» و «الاجتماعي» و «الوطني» في تركيبها. وإذا هو تكلم بعفوية وسليقة فإنه لا يستطيع أن يمنع أحد هذه الجوانب من أداء دوره في الكتابة. هناك إذن تصور يفرض نفسه على الكاتب هو ذلك الذي يفرضه الواقع، فينعكس في الكتابة بهذه الصورة أو تلك. ومن هنا جاءت «الحفريات» حفريات في الوعي الفردي (وفي الوعي الجماعي أيضاً نظراً لتداخل الذاكرة الشخصية مع الذاكرة الجماعية في حياة صاحبنا)، وحفريات في الواقع السوسيولوجي والأنتروبولوجي الذي كان يشكل «المحيط» الذي درج فيه الطفل وتكون في طياته وعيه وأناه، وأيضاً: حفريات في الذاكرة الوطنية لهذا الأخير لأن زمن طفولته ومراهقته كان زمن «الوطنية». هذه الجوانب الثلاثة قد تداخلت في الذاكرة تداخلاً يفرض نفسه على العفوية والسليقة. والحق أنه ليست هناك سليقة مطلقة وإلا فهي الفراغ أو «الهذيان». هذا من الناحية المبدئية. وكتطبيق لهذا المنطق وجدت نفسي حين الشروع في الكتابة، وليس قبل ذلك، أمارس نوعاً من الكتابة بكل عفوية وسليقة، من جنس ذلك الذي خطه هيغل الفيلسوف الألماني المعروف في كتابه الشهير **فينومينولوجيا الروح**، مع فارق كبير طبعاً. ذلك لأن هيغل «سرد» في كتابه المذكور، على طريقته الخاصة كفيلسوف تجريدي عملاق، ما يمكن تشبيهه بـ «السيرة الذاتية» للوعي البشري عبر العصور. أما صاحب **حفريات في الذاكرة** فقد سرد، بطريقته الخاصة، ما يمكن التعبير عنه بـ «السيرة الذاتية» لتطور وعيه كفرد ونمو أناه، من «اللحظة» الأولى في مسيرة تحقيق «الانفصال» عن الأم أولاً، إلى «لحظة» الاندماج مع الأقران من الأطفال، إلى «لحظة» الاتصال مع العالم الخارجي ـ أعني خارج مسقط الرأس ـ على مستوى الوهم أولاً بواسطة «الدبيش» ثم على المستوى الواقعي بالسفر إلى بوعرفة ثم وجدة ثم الدار البيضاء ودمشق، وما تخلل ذلك كله من أحداث تم انتقاؤها لكونها تشكل معالم رئيسية في هذا المسار، مسار تطور الوعي وتشكل الأنا... إلى أن بزغ «فجر الاستقلال»، بالنسبة لصاحب «الحفريات» بصورة متزامنة مع «فجر الاستقلال» بالنسبة للوطن. كان المنطلق هو تلك «الدفعة» التي تلقاها من الأم، وكانت النهاية ـ نهاية مرحلة الطفولة وتشكل الوعي واتجاهه نحو الاستقلال ـ هي مقابلته مع الشهيد المهدي والتحاقه بجريدة العلم.

هذا من حيث تصور الموضوع، هذا التصور الذي تم بصورة عفوية لاشعورية

والذي أقدمه الآن كقراءة ممكنة، وأنا شخصياً أعتقد أنها القراءة الأقرب إلى الحقيقة والواقع. وقد سررت سروراً بالغاً عندما قرأت في الاتحاد الاشتراكي مقالة (بعنوان: «حفريات في الذاكرة».. في حلقات)، لشخص متمكن في مجال الكتابة والفهم، لم تسبق لي به معرفة ولا أعرف الآن من هو ولا أين هو، أقول سررت سروراً بالغاً عندما وجدت أن صاحب هذا المقال قد فهم تماماً ما فعلته، ولا شك أنه ذو ثقافة فلسفية ممتازة. أما عن المنهج فأعتقد أن لكل من يتصدى لكتابة سيرته الشخصية منهجاً خاصاً، هو نفسه جزء من السيرة الذاتية. إن المنهج على العموم، بما في ذلك مناهج العلوم، ليس لائحة لخطوات يستحضرها الباحث أو الكاتب قبل الشروع في العمل ليتقيد بها بعد ذلك خطوة خطوة. إن العكس هو الصحيح. فالباحث في المناهج هو الذي يستخلص من الممارسة العلمية، أعني أعمال العلماء في المختبرات وغيرها، الخطوات المنهجية التي ينطوي عليها عملهم. وإذن فالمنهج كقواعد هو شيء يأتي بعد الممارسة وليس قبلها، تماماً مثلما أن قواعد النحو تستخلص من اللغة التي يمارسها أهلها. فقواعد النحو في لغة معينة لاحقة للممارسة اللغوية في تلك اللغة وليست سابقة لها.

س ـ الواقعة التي أشرت إليها من قبل بوصفها منطلق تشكل وعي الطفل، وقعت عندما كان هذا الطفل يحبو كما ورد في «الحفريات»، وهناك من يتساءل: هل يمكن أن يتذكر الإنسان واقعة ترجع إلى هذا العمر المبكر، السنة الأولى أو الثانية؟

ج ـ أحب أن أميز هنا بين شيئين، الأول هو دور هذه الحادثة في عملية تطور الوعي الفردي للطفل موضوع «الحفريات». أما الثاني فيتعلق بإمكانية التذكر في هذه السن المبكرة وأيضاً بإمكانية الاحتفاظ بذكريات ترجع إلى هذه المرحلة المبكرة.

بالنسبة للأمر الأول يعتبر علماء النفس أن حادثة «الفطام» تقترن في الغالب بشعور الطفل، ربما لأول مرة، بأنه شيء وأن أمه شيء آخر. وإذا أضفنا إلى أن «الفطام» كثيراً ما يكون مقروناً بقرب مولد طفل جديد من جهة، وبشعور الطفل من جهة أخرى بأن أمه ليست له وحده إذ ينافسه عليها أبوه ـ هذا الشعور الذي يعبر عن نفسه في إلحاح الطفل في مثل هذه السن على النوم بجانب أمه على فراشها مع زوجها (أبيه) ـ إذا أضفنا هذه الأمور بعضها إلى بعض وربطناها بالفطام، الفطام عن ثدي الأم، وهي مرتبطة به زمنياً، أدركنا كيف أن الفطام بمعناه الواسع ذاك يسجل فعلاً نقطة البداية في شعور الطفل بالتغاير مع أمه، أي إحساسه بأن أمه غير وأنه غير، ومن هنا تبدأ لحظة تشكل الوعي والأنا وبالتالي الشخصية كلها. أما بالنسبة

للطفل الذي تتحدث عنه **حفريات الذاكرة** فلقد عاش وضعاً خاصاً يتمثل أساساً في كون فطامه تم بصورة متقطعة، وكان قابلاً للانعكاس من جهة، كما أن أباه كان «غائباً» تماماً وبالتالي فلم يكن أحد ينافسه على أمه من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة لم يكن هناك مولود جديد قط. وإذن فحادثة «الفطام» لا تشكل أية بداية بالنسبة لتاريخ الوعي عند صاحبنا. ومن هنا أهمية الواقعة التي تتمثل في تلك «الدفعة» التي تلقاها من أمه عندما كانت تغزل، في الظروف التي شرحتها. فالمقصود من إيراد قصة هذه الدفعة هو هذه الدفعة نفسها بوصفها «الفطام الحقيقي» الذي تم قبل «الفطام الرسمي» كما ورد حرفياً في **الحفريات**.

هذا عن الجانب الأول، أما عن التساؤل عما إذا كان من الممكن تذكر حوادث جرت في مثل هذه السن المبكرة، فإن الجواب عنه يجب أن يلتمس في علم النفس وفي علم نفس الطفل وعلم النفس التربوي. أما «الاجتهادات» القائمة على مجرد التخمين وضرب أخماس في أسداس واتباع الهوى فشيء آخر. وأنا لم أكن لأذكر هذه الحادثة/ المنطلق لو لم أكن متأكداً من صحة وقوعها على صعيد الإمكان العلمي أولاً وعلى صعيد وفاء الذاكرة ثانياً. إن صاحب **الحفريات** ليس غريباً عن علم النفس، فهو يمارس عملية الحفر بكل مخزونه المعرفي: ومعلوم أن مادة الفلسفة في المغرب تشتمل على علم النفس وعلم الاجتماع ومناهج العلوم، إضافة إلى الميتافيزيقا والأخلاق وتاريخ الفلسفة، وهذه المواد ساهم صاحب **الحفريات** في تأليف كتاب فيها لتلامذة البكالوريا، وهو بعنوان **دروس الفلسفة لطلاب البكالوريا المغربية** وكان هو الذي كتب فصل **«التذكر والنسيان»** في ذلك الكتاب (ص: ٢٨٣ ـ ٣٠١) وفي الصفحة الأولى جدول حول تذكر الأطفال وزمنه منذ بلوغهم ١٥ شهراً. (انظر الطبعة الأخيرة أيلول/ سبتمبر ١٩٧١ دار النشر المغربية، الدار البيضاء). هذا إضافة إلى تدريس علم النفس والتحليل النفسي في الجامعة لسنوات، واهتماماته السابقة بعلم النفس التربوي. لقد كان من الطبيعي إذن أن يكون هو نفسه أول من يطرح هذا السؤال. وعلى كل حال فمن الأمور المقررة في علم النفس ـ بناء على تجارب عديدة ـ أن ذكريات الإنسان قد ترجع إلى السنة الثانية من عمره، وهذا أمر شائع، ولكن هناك من يرجع بذكرياته إلى السنة الأولى. ومع أن هذه الذكريات المبكرة يطويها النسيان في الغالب بعد مدة وجيزة فإن منها ما يبقى حياً مدى الحياة لكونها تكون موضوع تذكر من حين لآخر. وهذا ما حدث لصاحبنا. فالحادثة كانت صدمة بالنسبة له ومرتبطة بوضع معين هو عملية الغزل، فكان تكرار هذا الوضع يحيي

الذكرى في نفسه فتكرر تذكرها وأصبحت من «الذكريات الخالدة». نعم هناك حالات من التذكر الخاطىء، كما حدث لعالم النفس الكبير جان بياجي الذي يحكي في أحد كتبه أنه ظل لمدة طويلة يتذكر كيف أنه كان ضحية عملية اختطاف وعمره لا يزيد عن سنة، وأنه ظل يرى المشهد أمامه دائماً بكامل الوضوح: كان على كرسيه داخل السيارة مربوطاً إلى المقعد، فجاء غريب وفكه منه وخطفه. وبقي يحكي هذه الذكرى لأهله إلى أن اعترفت مربيته ذات يوم بأنها هي التي اختلقت الحادثة وحكتها له في مرحلة متقدمة من صباه، وحينئذ تبين أن ما كان يراه ويشاهده كحقيقة يتذكرها إن هو إلا تركيب خيالي سمع به فيما بعد. أما بالنسبة لصاحبنا فالظرف يختلف تماماً: إن طبيعة الحادثة ليست مما يحكيه الأهل لأبنائهم، بل هي حادثة لا يمكن أن تكون موضوع حكي أو اختلاق. هذا وهناك آليات وضوابط معروفة في علم النفس تساعد على التأكد من صحة الذكريات ومن تحديد تاريخها مما لا مجال للخوض فيه هنا.

س ـ لتشكيل النص وتأثيثه لم تنطلق من فراغ. لقد اطلعت بدون شك على نماذج من السيرة الذاتية، سواء تعلق الأمر بما هو موجود في التراث العربي الإسلامي أو ببعض النماذج في الفكر الغربي. ولا شك أيضاً أنك اطلعت على الجهد النظري الذي بذله عراب البحث النظري والنقد في مجال السيرة الذاتية الكاتب الفرنسي فيليب لوجون. سؤالي هو ألم تكن هذه النماذج حاضرة في ذهنك عندما كنت تباشر كتابة سيرتك الذاتية؟

ج ـ هناك نوع من الحضور لما نقرأ فيما نكتب: حضور لا نشعر به ولا نعيه. وكل إنسان عندما يكتب يفعل ذلك وهو يجر وراءه جميع ما قرأ، أعني مخزونه الثقافي بأجمعه. وهناك نوع آخر من الحضور هو الذي يعيه الكاتب عندما يكتب وهو يستشهد بكلام فلان أو يعترض على هذا الرأي أو ذاك أو ينخرط في نوع من أنواع التناص مع كاتب آخر. وبالنسبة لي أؤكد اليوم كما سبق أن أكدت بالأمس عندما سئلت عن مدى حضور فكر المستشرقين فيما كتبت، أؤكد أنني أبذل كل جهدي، عندما أشرع في التفكير والكتابة في موضوع ما، لأنسى جميع ما كتب في الموضوع. فأنا لا أدخل في حوار أو نقاش أو في عملية اقتباس أو تناص مع أي كاتب إلا إذا قررت ذلك وأردته وكان لي هدف من وراء ذلك. إن ما فعله فيليب لوجون في مشروعه الأول هو أنه حاول أن يصنف النصوص الخاصة بالسيرة الذاتية وأن يستخرج، من خلال استقراءات ومقارنات، قواعد أو ضوابط تكون بمثابة

المفاتيح التي يتعامل بها ناقد القول الأدبي مع هذا النوع من النصوص. ولقد اكتشف هو نفسه أن «تأطير» نصوص السيرة الذاتية في قوالب معينة شيء ينطوي على مغامرة كبيرة قد لا تسلم من أخطاء. ومهما يكن فهذا الرجل تحرك في مجال النقد الأدبي وليس هو المجال الذي تحركت فيه أنا. لقد تحركت كما شرحت ذلك من قبل في المجال الثقافي الذي أنتمي إليه في عالم التخصص، أعني مجال الفلسفة.

على أنني اخترت اسماً لما كتبت يختلف عن الأسماء الرائجة تجنباً لكل التباس. لقد قمت بـ **حفريات في الذاكرة** وشرحت ما كنت أقصده بذلك. فالأمر يتعلق لا بمجرد سرد وحكي وإطلاق العنان لـ «ثرثرة الذات» ـ حسب تعبير بعضهم ـ ولا بمجرد إطلاق العنان ـ إلى حد ما ـ للذاكرة لكي «تتقيأ» ما فيها، كلا. لقد قلت إن عملي أشبه ما يكون بعمل عالم الآثار الذي ينقب ويحفر ويعثر على قطع أثرية يدرسها ويشيد انطلاقاً منها موضوعه الذي قد يكون قلعة أو قبراً أو تاريخ حضارة بأكملها. هناك ذكريات حقيقية وقعت في سياق حياتي تعكس وجوهاً حقيقية من سياق الحياة التي عشتها أنا وجيلي. وهناك أيضاً تأملات وإعطاء معنى سيكولوجي أو انتروبولوجي أو سياسي لهذه الذكرى أو تلك.

هناك اعتراض تقليدي في علم النفس يوجه إلى هذا النوع من التذكر المصحوب بالاستبطان. فلقد قيل في هذا الصدد إن الإنسان لا يستطيع أن يكون في آن واحد بصدد معاناة تجربة وفي نفس الوقت يقوم بتحليلها وتفسيرها، تماماً كما لا يمكن للشخص أن «يرى نفسه يمشي في الشارع وهو يطل من النافذة»، أي لا يمكن أن يكون في الوقت نفسه مشاهِداً (بالكسر) ومشاهَداً (بالفتح). وهذا صحيح ولكن موقف صاحب **حفريات في الذاكرة** يختلف عن ذلك تماماً: إن الطفل مر في الشارع فعلاً ولعب فيه الخ... ولكنه لم يبدأ في الإطلال من النافذة على الشارع وما فيه إلا بعد أن صار إلى ما صار إليه صاحب **الحفريات** وهو يكتب. فالمسألة هنا ليست مسألة استبطان ولا مجرد تذكر، بل الأمر يتعلق بـ «الحفر» في الذاكرة بطريقة خاصة.

س ـ لدي ملاحظة تخص مشروعك الفكري يشترك فيها معي كثير ممن اهتموا بهذا المشروع. وهذه الملاحظة تتلخص في كون مشروعك الفكري هذا يتضمن هو نفسه شذرات عديدة من سيرتك الذاتية وحياتك اليومية، إذ هناك من الأمثلة التي تختارها والاستشهادات التي توردها ما يمكن إدراجه في باب السيرة الذاتية. فهل يمكن القول إنك كتبت جزءاً من سيرتك الذاتية في ثنايا مشروعك الفكري وذلك

قبل أن تقوم بكتابتها بالفعل، وهل تقيم نوعاً من العلاقة المنظمة والواعية بين الذاتي والموضوعي في كتاباتك ككل؟

ج ـ أعتقد أنه لا بد لكل كاتب من أن تنعكس في كتاباته بعض جوانب حياته، خصوصاً إذا كان مسكوناً بهاجس تربوي يدفعه إلى توضيح الأفكار بضرب الأمثلة واختيار الشواهد، وفي الغالب ما يكون ذلك من المحيط الحضاري الذي ينتمي إليه الكاتب. وقد سبق لي أن وعيت بهذا مرتين على الأقل عندما كنت بصدد كتابة قسم من كتابي **نقد العقل العربي**. فعندما كنت أتحدث عن حياة العرب في الجاهلية استحضرت البيئة الصحراوية التي عشت فيها، وكان هناك في ذهني نوع من «التناص» ـ إن صح القول ـ بين بيئة عرب الجاهلية التي كنت أكتب عنها أو حولها وبين البيئة الصحراوية التي عشتها في مسقط رأسي فجيج. وحصل لي مرة أخرى هذا النوع من «التناص» بين بيئتين متماثلتين، وبصورة أقوى هذه المرة، وذلك عندما كنت بصدد الحديث عن مكة عند ظهور الإسلام في كتابي **العقل السياسي العربي**. إن توزع القبائل في مكة كمركز وتوزعها خارجها كمحيط (قريش البطاح وقريش الظواهر) كان يشكل بالنسبة إلي بنية تدخل في علاقة تناص بنيوي متين مع بنية مدينة فجيج بقصورها، بمركزها ومحيطها. أضف إلى ذلك القدرة على تتبع شجرات الأنساب وتداخلها لدى القبائل العربية، الشيء الذي له ما يماثله في قبائل فجيج، بل وفي كل مجتمع قبلي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فـ **«حفريات في الذاكرة»** كانت تستهدف كما أشرت إلى ذلك قبل، ليس فقط التأريخ لتطور وعي صاحبنا وتشكل أناه، بل كانت ترمي أيضاً إلى التعريف بالبيئة الاجتماعية والطبيعية والسياسية والثقافية التي كانت تشكل المجال الحيوي للطفل صاحب الوعي المؤرخ له. ولقد قصدت قصداً الوقوف عند القادة الوطنيين الذين قادوا جيلي والجيل السابق له في رحاب العمل الوطني. بل يمكن أن أقول الآن إن ما كتبته عن مسقط رأسي فجيج قد جعل كثيراً من المغاربة يكتشفون أنهم لا يعرفون المغرب. لقد قال لي أحد الأصدقاء: «كنت أسمع بفجيج ولكنني لم أكن أتصور أنها كما تعرفت عليها من خلال ما كتبت». فأجبته قائلاً: «وهل تعرف ورزازات، وتارودانت، وتافيلالت، وتادلة، وأجدير، وسبتة، وتطوان؟ بل هل تعرف سلا والرباط وفاس ومراكش؟»

كثر الحديث اليوم عن ما يسمى «الجهة» وأعتقد أن «الجهة» هذه ستبقى مجرد مصطلح جغرافي وفضاء للكلام «الانتخابي»، إذا لم يعط لها بعدها التاريخي الحقيقي.

ولا يمكن إبراز ذلك الدور الأساسي والحاسم الذي قامت وتقوم به «الأطراف» في المغرب إلا إذا قمنا بهذا النوع من «**حفريات في الذاكرة**»: ذاكرة مدن «المركز» وذاكرة مدن وقرى «الأطراف»، أعني ذاكرة أهلها ورجالاتها وليس فقط ذاكرة آثارها ومآثرها.. إن الكثير منا لا يعرف مثلاً عن محمد بن عبد الكريم الخطابي إلا أنه ذلك البطل الذي قاد الثورة في الريف ضد الاحتلال الاسباني. فتصور أن كاتباً ينتمي إلى مدينة «أجدير»، المدينة التي ينتمي إليها هذا البطل، كتب **حفريات في الذاكرة** ودار الحديث فيها عن محمد بن عبد الكريم الخطابي، على الأقل بمثل ما دار الحديث في «حفريات» صاحبنا على الحاج محمد فرج... إن القليلين من الشباب يعرفون أن بطل الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي كان فقيهاً وقاضياً قبل أن يتولى قيادة الثورة على المستعمرين... وقل مثل ذلك عن رجال الفكر والتحرير والوطنية في جميع جهات المغرب. إن المغرب اليوم في حاجة إلى ذاكرة وطنية متعددة الوجوه. و «الجهة» في المغرب ستبقى مجرد اصطلاح جغرافي إذا لم تستند على بعد تاريخي تحكيه ذكريات فردية تؤطرها الذاكرة الجماعية وتتعزز بها لحمة الوحدة الوطنية. ليس هذا وحسب، بل لقد اتصل بي أصدقاء من الجزائر وتونس وليبيا والسودان والسعودية وسورية... يقولون إن كثيراً مما كتبته عن فجيج ينطبق أيضاً على القرى والواحات التي عاشوا فيها. وإذن فللمسألة بعد آخر، بعد عربي يعكس وحدة الحضارة العربية الإسلامية من الخليج إلى المحيط.

س ـ هناك مستويان يشطران «مكتوبكم» عمودياً، المستوى الذاتي الذي يسرد وقائع مرتبطة بطفولة المؤلف، ومستوى تاريخي اجتماعي يؤسس لتاريخ وعادات منطقة أهل «فكيك»، وفي نفس الوقت يؤطر السيرة الذاتية بالنسبة لكم، فكيف يحقق هذان المستويان تكاملهما؟

ج ـ إن للحظة الكتابة منطقها الخاص يفرض نفسه على الكاتب. والتقديم الذي وضعته في مستهل **حفريات في الذاكرة** كتبته بعد أن انتهيت من هذه الأخيرة. وهذا ما يحصل في الغالب، فمقدمة الكتاب هي آخر ما يكتب. إن الكاتب يتأمل ما فعل ويحاول إعطاء تفسير من هذا النوع أو ذاك لما كتب. وفيما يتعلق بي شخصياً لا أتصور سيرة ذاتية خاصة لحياة فرد واحد، اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بروبانسون كروزوي، أو بـ «أسال» قصة حي بن يقظان. أنا فرد واحد من جيل، وكل فرد من أفراد هذا الجيل هو صورة للآخر: أناه الثانية. إن الصورة التي نشرتها جريدة **الاتحاد الاشتراكي** تعود إلى عام ١٩٤٧ وهي لتلامذة المدرسة التي درست فيها. عندما

أخذت هذه الصورة من أحد أصدقائي وبدأت أتأملها لم أستطع اكتشاف نفسي إلا بصعوبة لأن الجميع متشابهون والجمع متراص، وكذلك كانوا في الحياة العملية خلال طفولتهم. منهم من أصبح اليوم مهندساً أو طبيباً أو أستاذاً جامعياً أو مقاولاً أو قاضياً أو موظفاً كبيراً في جهاز الدولة أو تاجراً من كبار التجار. لقد عاش هؤلاء جميعاً التجربة نفسها التي عشتها، ولذلك فعندما كنت أكتب عن تجربتي، كنت أتكلم في نفس الوقت عن جيل بأكمله وعن مرحلة تاريخية بأكملها، عن مرحلة يمكن اعتبارها جسراً بين حياة القرون الوسطى وحياة القرن العشرين. ومن هذه الناحية كنت أحس أنني أتكلم بلسان الجميع. وهكذا فالجوانب الشخصية والاجتماعية والوطنية قد فرضت نفسها على الكاتب فرضاً.

س ـ ما هي المتعة الشخصية الذاتية التي أحسست بها أثناء كتابتك لسيرتك الذاتية؟

ج ـ لا أعتقد أن كلمة «متعة» مناسبة، على الأقل بالنسبة لتجربتي. فالأمر يتعلق بتجربة هي متعة وغير متعة في آن واحد. فاللحظات التي انسقت فيها مع الكتابة واستغرقت فيها استغراقاً أفقدني إحساسي بوجودي ووعيي بذاتي ككاتب يفكر ويكتب، هي تلك التي استطعت أن أستعيد فيها ذكريات معينة مصحوبة بالبطانة الوجدانية التي كانت لها يوم أن كانت حوادث واقعية. أن يعيش المرء ذكرى معينة ببطانتها الوجدانية أو بما يماثلها تقريباً شيء ممتع حقاً وإن كان ينطوي في بعض الأحيان على تحسر أو ما يشبهه. فالأمر يتعلق هنا بما يشبه «السفر إلى الماضي» في جو من نسيان الذات والخروج عن العالم.

س ـ في عرف السياسيين إن كتابة المذكرات لا تمليها فقط الرغبة في التأريخ لفترة معينة، وإنما للإعلان عن دخول مرحلة التقاعد. فماذا تعنيه بالنسبة لكم كتابة سيرتكم في هذه المرحلة من عمركم، وأي هاجس فكري أملى عليك كتابتها؟

ج ـ تلقيت مؤخراً بضعة رسائل من أصدقاء في المشرق العربي يعبرون لي فيها عن حزنهم لكوني كتبت السيرة الذاتية اليوم، قائلين إننا ننتظر الشيء الكثير قبل كتابة السيرة الذاتية. هذا هو شعور أصدقاء خارج المغرب، ولا شك أن هناك في المغرب أصدقاء كثيرين لهم مثل هذا الشعور الصادق النبيل. ولكن ربما قد يكون هناك من يبتهج لكوني دخلت مرحلة «التقاعد» بكتابة **حفريات في الذاكرة**. والحق أن كتابة **حفريات في الذاكرة** لا تعني بالنسبة لي أي شيء. إن الأمر لا يعني بالنسبة

لي الدخول في مرحلة التقاعد على المستوى الثقافي، الأمر يتعلق فقط بنص يضاف إلى نصوص سابقة وستليه نصوص لاحقة إن شاء الله، منها هذا النص نفسه، نص هذا «الحوار». وعلى كل فـ «التقاعد» بالنسبة لي لا يعني شيئاً على الإطلاق، فأنا أقبل الحياة كما هي، والموت جزء من هذه الحياة، جزؤها الأخير. أما بالنسبة للعمل السياسي فأنا متقاعد فعلاً منذ ١٩٨١ لأسباب صحية كما يعرف كثير من الأخوة والأصدقاء.

س ـ مارست نوعاً من التحليل النفسي الذاتي لتحليل بعض الوقائع وتفسيرها. وهذا المنهاج بقدر ما يسهل فهم مكتوبك فإنه في نفس الوقت يضع القارىء الناقد أمام صعوبة تفادي هذا التحليل والخروج عن نسقه. ألا ترى أنه بقدر ما سهلت على القارىء الناقد مهمته زدتها تعقيداً؟

ج ـ أنا أقدر النقاد ودورهم، وأهمية النقد وضرورته في أي جنس من أجناس الكتابة، ومع ذلك فأنا عندما أكتب لا أستحضر البتة أي قارىء ناقد. ليس من مهمتي عندما أكتب أن أفكر في الناقد لا من أجل أن أسهل عليه عمله ولا من أجل أن أزيده صعوبة وتعقيداً. أنا أمارس حقي في الكتابة وأترك للآخرين حقهم في النقد والتأويل على طريقتهم وكيفما شاءوا. وأكثر من ذلك «أعطي» لقارئي الحق في أن يخطىء حتى في فهم ما أريد أو ما أقول. إن الخطأ في الفهم يتحمله القارىء وليس الكاتب.

س ـ لا شك أن وضعك الاعتباري والفكري في الساحة العربية يظل حاضراً. وأنا كقارىء لهذا النص (حفريات في الذاكرة) أبحث عن رسائل قد تكون منبثة تحت ظلال السرد والتحليل والتأويل المرافقة للوقائع المروية. فهل كانت لك رسائل حاضرة في الذهن أثناء كتابتك هذا النص، وهل من بعد بيداغوجي ضاغط، إن صح التعبير، وراء إصرارك على كتابة سيرتك الذاتية رغم الكثير من الاعتبارات الذاتية والموضوعية التي كانت تحول دون ذلك؟

ج ـ لم أشعر لا من قبل ولا من بعد بأي ضغط ناتج عن أي اعتبار ذاتي أو موضوعي. فيما يتعلق بالكتابة تعودت أن آخذ حريتي كاملة وأتصرف بكل استقلال عن أي ضغط خارجي، باستثناء التقيد بضرورات الكتابة، ومنها الضرورة التي تفرضها اللغة، والضرورة التي يفرضها الصدق. لقد أبدى بعض الأصدقاء استغرابهم لخلو حفريات في الذاكرة من أمور ترافق حياة الأطفال عادة فتخرجهم من

دائرة «الملائكة». أما بالنسبة لي فإن التزام الصدق فرض علي أن أتجنب اختلاق وابتداع حوادث وأشياء لم تكن قد حصلت. وكما قلت لك سابقاً فإن الحياة التي عشتها في مسقط رأسي فجيج كانت مكشوفة للجميع، وكما قلت في «حفريات» فالجميع في فجيج «يعرف القمر والقمر يعرف الجميع». إن حياتي لم تكن حياة ملاك ولا كانت حياة شيطان، بل كانت كما حكيتها وكما يعرفها الناس جميعاً، وهي نفس الحياة التي عاشها جيلي، إذ لم تكن هناك فوارق كبيرة بين العائلات، لا على مستوى السكنى ولا على المستوى المعيشي العام.

أما عن «الرسائل» التي قد تكون مبثوثة في النص الذي نحن بصدده فأنا لا أستطيع أن أنفي وجودها لأن الكتابة هي في جميع الأحوال تفكير خرج من حالة الاستضمار إلى حالة الاستظهار، من حالة الكتمان إلى حالة الإعلان. وليس من مهمتي أن أبحث عن الرسائل التي قد تكون مندسة فيما كتبت. أعتقد أنني لست المعني بهذا الأمر. فأنا لست ساعي بريد حتى أقوم بتوزيع الرسائل.

أجل قد تكون هناك بعض العبارات تحمل رسالة مقصودة، وليست «منبثة». من ذلك مثلاً العنوان الإضافي الذي وضعته تحت **حفريات في الذاكرة** وهو عبارة «من بعيد». فالرسالة هنا واضحة وهي أنني جئت من بعيد، من عصر آخر، من وضعية أخرى، ولنقل ولدت في ظروف تنتمي إلى القرون الوسطى، بينما أنا أعيش الآن ظروفاً تنتمي إلى مشارف القرن الواحد والعشرين، إلى ما يوصف بـ «مابعد الحداثة». والفكرة استوحيتها من جدتي لأبي. كانت تروي لي من حين لآخر ما عاشته أو سمعته في طفولتها من أحداث وأخبار، كانت تحدثني عن «بوعمامة» و «بوحمارة» وعن السلطان مولاي عبد العزيز وعن أشياء أخرى تنتمي إلى أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. كانت تسترسل في الحكي طويلاً وذات مرة توقفت فجأة وقالت بتعجب: «آه.. كم أنا قديمة». وعندما كنت أكتب **حفريات في الذاكرة** كانت تنتابني مثل هذه الحالة، أعني الشعور بـ «القدم» وهو ما عبرت عنه بعبارة «من بعيد». لقد كنت أشعر في بعض الأحيان أنني أنتمي إلى جيل كان يمثل درجة الصفر على مستوى الحداثة، ثم قفز إلى المرحلة الحضارية الراهنة، مرحلة «مابعد الحداثة». ربما كان في هذا رسالة إلى شباب اليوم. فإذا كان بعض الشبان اليوم، أو لنقل معظمهم أو جميعهم، يعانون من اليأس والإحباط وانسداد الآفاق فليعلموا أن الإمكانيات المتاحة أمامهم اليوم أحسن بكثير من تلك التي كانت متاحة للجيل الذي أنتمي إليه.

س ـ يشعر القارىء من خلال قراءة النص أنك تستحضر بعض الأسئلة الثقافية الكبرى المطروحة على الساحة المغربية، مثل قضية الأمازيغية وأنك تريد أن تعطي مثالاً من تجربتك الخاصة. فهل بالإمكان إلقاء مزيد من الأضواء على هذه المسألة؟

ج ـ لم أقصد أي شيء من هذا القبيل إطلاقاً. لقد كنت أفكر وأكتب بعفوية وسليقة وبدون حواجز أو أفكار مسبقة. وإذا تكلمت عن الأمازيغية فلأنها اللغة التي كانت لي، ولا تزال إلى حد كبير، اللغة ـ الأم. لم تكن أمي تعرف كلمة واحدة بالعربية وكذلك جدتي لأمي. وأيام طفولتي كان الشأن كذلك بالنسبة لعماتي، والغالبية العظمى من أفراد عائلتي. أما جدتي لأبي فقد كانت تروي لي ما ترويه بالأمازيغية ولم تتعلم بعض التعابير العربية إلا في أواخر أيامها، أي بعد أن اجتازت الستين من عمرها. أما أنا فقد تعلمت العربية الفصحى من خلال القرآن والمدرسة الابتدائية ابتداء من الثامنة من عمري بينما لم أتعلم الدارجة المغربية إلا في حوالى الثانية عشرة. فالمسألة إذن بالنسبة إلي لا تنطوي على أية مشكلة أو إشكال.

س ـ نبقى دائماً في مسألة الأمازيغية ونريد أن نعرف رأيك في هذه المسألة وهل أنت مع ما تطالب به بعض الأصوات والجمعيات التي تريد تسبيس هذه القضية؟

ج ـ المشكل المطروح في المغرب هو تهميش الجبال والقرى والأرياف. لقد ركز الاستعمار الفرنسي وجوده وعمله على ما كان يسميه بـ «المغرب النافع» وبالخصوص محور الدار البيضاء ـ القنيطرة. وعندما استقل المغرب بقيت دار لقمان على حالها في الجملة. لقد بقيت مناطق الريف (شمال المغرب) وسوس (جنوب المغرب) والأطلس (وسط المغرب) وتافيلالت وما جاورها جنوباً وغرباً وشرقاً مناطق مهمشة. هناك اليوم مغربان: مغرب مهمش ومغرب غير مهمش، ولكنه يتهمش هو الآخر في محيط مدنه الكبرى. ويتعرى هذا التهميش وأسسه وعواقبه حين يتعرض المغرب للجفاف أو للمطر الكثير.

وما يشتكي منه الناس في هذه المناطق المهمشة التي لا يعرف المواطنون في بعضها سوى الأمازيغية هو هذا التهميش والإهمال. اذهب إلى الريف وقمم جباله والأطلس ووديانه وغاباته وإلى سوس وما حولها واسأل المواطنين رجالاً ونساء كباراً وصغاراً: «ما الذي ينقصكم؟ وما هي مطالبكم؟ وما هي مشاكلكم؟» أنا متأكد

بأنهم سيشتكون من سوء الطرقات أو انعدامها ومن قلة المدارس أو بعدها، ومن انعدام المستوصفات الصحية ومن البطالة، بطالة المتعلمين وغير المتعلمين من أولادهم، وسيشتكون أكثر وأكثر من المقدم والشيخ والقايد. . . الخ ولكنك بكل تأكيد لن تجد أي أحد يشتكي من شيء اسمه «الأمازيغية» أو من أجلها. إن الأغلبية العظمى من هؤلاء سيجيبونك بالعربية إذا كنت لا تعرف الأمازيغية مجتهدين في تبليغ أفكارهم إليك بهذه اللغة التي قد لا يتقنها كثير منهم. أما إذا علموا أنك تتكلم الأمازيغية فهم يجيبونك بأمازيغيتهم إن كنت تفهمها وإلا حدثوك بالعربية.

تبقى مسألة أخرى وهي الأهمية التي تكتسبها دراسة اللهجات الأمازيغية دراسة مقارنة. ففي المغرب ثلاث لهجات أمازيغية رئيسية وثلاث متفرعة عنها. واللغة الأمازيغية التي يمكن أن تعتبر هي الأصل الذي تفرعت عنه هذه اللهجات، كما تفرعت الدارجات العربية عن العربية الفصحى، غير موجودة الآن. وأعتقد أن المهمة الأولى للدراسات الأمازيغية التي يجب أن تتم على مستوى جامعي ـ وباللغة العربية طبعاً بوصفها ميتا ـ لغة، أي لغة تتحدث عن لغة أخرى وتحاول فهمها ودراسة منطقها ـ أعتقد أن مهمة هذه الدراسات هي محاولة بناء لغة أمازيغية تكون للهجات الأمازيغية في المغرب والجزائر وتونس وليبيا. . . الخ. كاللغة العربية الفصحى، لغة عرب الجاهلية تخصيصاً، بالنسبة للهجات العربية الدارجة قديماً وحديثاً. وإذا وجدت مثل هذه اللغة الأمازيغية الأصل فمن المحتمل جداً أن نفهم طبيعة ذلك التشابه بل التطابق بين كثير من الكلمات والعبارات في اللغة الحميرية القديمة، والتي ذهل كثير من الأصدقاء الفجيجيين عندما سمعوا بعض اليمنيين يتحدثون بها. لقد حسبوا أن الذين يتحدثون إليهم هم من أصل أمازيغي. ومما له دلالة في هذا الصدد أن الحروف «الأمازيغية» التي وجدت في بعض المناطق والتي تسمى بـ «تيفيناغ» إنما معناها «الفينيقيات»، فالقاف كثيراً ما تنطق غيناً أو بين الغين والقاف، وهذا شائع في اليمن وعمان والسودان وفي الصحراء المغربية، أي على طول خط يمتد من المحيط إلى الخليج. وإذن فـ «تيفيناغ» و «تيفيناق» شيء واحد كقولك فجيج وفكيك. والصيغة الأمازيغية التي على هذا الوزن هي صيغة جمع ونسبة للمؤنث مثل قولك ««تيمنزا» أي البواكر من التمر (من «أمنزو») أو «تيمنسا» أي «المنسويات»، نسبة إلى قبيلة أو جماعة «إمنسا» أو. . . الخ وإذن فـ «تيفيناق» معناها: أشياء مؤنثة منسوبة إلى الفينيقيين أي «الفينيقيات» أو «الحروف الفينيقية». وإذا لاحظ المرء التشابه الكبير بين مظاهر الحياة في اليمن وحضرموت وعمان

ومناطق أخرى في الجزيرة العربية، بما في ذلك القامة والسحنة واللباس والخنجر، وبين مظاهر مماثلة لها في سوس بالمغرب جاز للمرء أن يتساءل بجد عن مدى صحة الرأي الذي شاع عند القدماء وردده ابن خلدون وهو أن سكان المغرب الأمازيغ، أو جزءاً منهم على الأقل، أصلهم من اليمن وحضرموت. وقد يكون العكس صحيحاً أيضاً. إن البحث العلمي هو الذي يجب أن يفصل في المسألة، وفي مقدمة ذلك البحث الأنثروبولوجي والبحث اللساني.

هذا من الناحية اللغوية والثقافية والحضارية. أما من الناحية السياسية فأنا أعتقد أن كل من يوظف «الأمازيغية» في الصراع السياسي بالمغرب العربي فهو يضع نفسه موضع الأقلية، في حين أن المغرب كله تقريباً أمازيغي، وحتى القبائل المعربة في الشاوية ودكالة وعبدة هي قبائل أمازيغية. ولا بد من التذكير هنا بالتجربة التي عرفتها الجزائر. فالمناضل آيت أحمد من كبار المؤسسين لجبهة التحرير وكان من كبار قادتها، ولعله الوحيد الآن الذي لم تتلطخ يده بأوزار الحكم، فلقد بقي منذ الإعلان عن استقلال الجزائر خارج السلطة يعارض الاستبداد وكل مساوىء الحكم في الجزائر إلى اليوم. ومع ذلك كله فهو في الانتخابات لا يحصل على جميع أصوات الأمازيغيين في الجزائر. وكثير من المتعاطفين معه تربطهم به رابطة أخرى دينية (الزاوية). أما السعدي الذي رفع شعار الأمازيغية بصورة أكثر جذرية فكان نصيبه من الأصوات في الانتخابات الأخيرة التي كانت نزيهة نصيباً ضئيلاً جداً حتى بالقياس إلى عدد الأمازيغيين في الجزائر. هذا درس يجب أن يضعه الإنسان أمامه.

س ـ لفت انتباهي في سيرتك الذاتية استشهادك بمقاطع من ترنيمة شعرية أمازيغية، وأنت في مشروعك الثقافي نادراً ما تفتح المجال لما هو شاعري ومتخيل في قراءتك للتراث، فهل يمكن أن نعرف لماذا تغييب هذا الجانب أو تهميشه إن صح التعبير؟

ج ـ ليس هناك تهميش ولا تغييب للجوانب التي تحدثت عنها. لقد قلت مراراً إن المسألة بالنسبة لي هي مسألة تخصص لا غير. أنا من المنتمين إلى الفلسفة المشتغلين بالفكر النظري وليست لي مع الأدب أو مع المتخيل عموماً علاقة تخصص تسمح لي بالكتابة فيه. أما عن الترنيمة الشعرية الأمازيغية فهذا شيء آخر. لقد كان المقام مقام «الحفر في الذاكرة» فتذكرت جدتي لأمي تحملني على ظهرها وتنشد هذه الترنيمة الشعرية. وقد بقيت بضع كلمات من تلك الترنيمة عالقة بذهني إلى اليوم.

وكنت قد سألت جدتي أيام طفولتي عن هذه القصيدة فكررتها لي مراراً، ولكن لم يبق منها في ذاكرتي سوى بضعة مقاطع فالتجأت إلى صديق يحفظ الكثير من أبياتها فأمدني بها.

س ـ بصيغة أخرى أقول إنك أعطيت للشعر اعتباراً عند تأريخك لما هو ذاتي بينما لم تفسح له ولا للمتخيل العربي المجال في مشروعك الفكري مع أنه يعتبر من المكونات الأساسية للعقل العربي.

ج ـ هناك فرق بين الجانب الشخصي في الثقافة وبين ما هو موضوعي وعلمي. لقد حفظت أبياتاً كثيرة من الشعر الجاهلي ومن المعلقات بكيفية خاصة وحفظت كثيراً للمتنبي والبحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم، وقرأت **كليلة ودمنة** وأجزاء كبيرة من كتاب **الأغاني** ومن **ألف ليلة وليلة**... الخ، ولكن هذا كله لا يدخل في ميدان «نقد العقل العربي» بالمعنى الذي مارسته. فأنا ناقد ابيستيمولوجي ولست ناقداً للمتخيل. هناك فلاسفة جمعوا بين الجانبين كأفلاطون وباشلار وسارتر... الخ. وهناك فلاسفة آخرون لا يستحضرون المتخيل إطلاقاً، كما أن هناك شعراء وروائيين ونقاداً للقول الأدبي لا يستحضرون الفلسفة ولا مشاغل الفلاسفة.

س ـ أثناء انتقالك من العمل في الحقل النظري إلى الانشغال بما هو ذاتي، كيف عشت سؤال الكتابة؟

ج ـ عشته كما كتبت **نقد العقل العربي** وغيره مما كتبت. إن عقلي يشتغل بمنطقه الخاص. فعندما أكتب في الفلسفة تتحرك فيه ميكانيزمات خاصة هي التي تحكم عمله. وعندما أكتب نصاً سياسياً (بيان المكتب السياسي أو اللجنة المركزية لحزبنا مثلاً، يوم كنت أقوم بهذه المهمة)، كانت تتحرك في عقلي ميكانيزمات أخرى خاصة. والشيء نفسه ينطبق عندما كنت أكتب **حفريات في الذاكرة**. وعلى كل حال فالكتابة بالنسبة لي ليست سؤالاً محرجاً، ليست خصومة مع النفس. عندما أكتب عن موضوع معين فلسفياً كان أو سياسياً أو ذاتياً أقوم باستحضار ميدانه وفضاءاته ومشاكله وإحراجاته ولا أشرع في الكتابة إلا حينما تتضح الأمور في ذهني وضوح شمس الضحى، بما في ذلك ظلال الأشجار والجدران والظل الذي ترسله تحت قدمي المظلة التي تظلل رأسي من وهج الشمس. حينئذ أكتب، أعني يتحرك قلمي كما تتحرك عجلات سيارة يقودها سائق متمرن على طريق يعرفها جيداً. الكتابة

بالنسبة لي ليست معاناة سلبية، بل هي استغراق في فيلم معين يتفرج فيه مخرجه.

س ـ ما هي الأشياء التي لم تستحضرها أثناء كتابة سيرتك الذاتية، أو ما هي الفجوات التي بقيت فارغة في هذه السيرة؟

ج ـ هي الأشياء التي لم أتذكرها، لأني لم أجد ما يوقظها في ذاكرتي أو لأنها دخلت عالم النسيان بصورة نهائية، أو الأشياء التي ليس لها معنى في نطاق هذه الحفريات. الحياة في واحة صغيرة مثل التي نشأت فيها حياة رتيبة تتكرر فيها الأشياء على نفس الوتيرة والنمط غالباً، ولذلك لم يكن من الممكن ولا من الجائز تكرار الكتابة عن أشياء رتيبة، فما يفي بالغرض هو ما سجلته، أما الباقي فلم يفرض نفسه علي كحضور.

س ـ تحدثت قبل قليل عن انشغالاتك الفكرية والسياسية، ونريد أن نعرف إلى أي مدى يتقاطع الفكري والسياسي عندك؟

ج ـ بالنسبة لي ليس هناك تقاطع وإنما اندماج. ليست هناك هوة بين السياسة والثقافة، على الأقل بالنسبة لتجربتي. نعم يوجد مثقفون يكون السياسي عندهم أضعف من الثقافي، وهناك آخرون يعيشون وضعية معاكسة. وإذا قدر للشخص أن يركب الفرسين معاً ويمسك بلجامهما بيد واحدة فهذا شيء حسن، أما أين ينتهي السياسي وأين يبتدىء الثقافي فيما أكتب فذلك ما لا أستطيع تحديده. كل ما هناك هو أن الكتابة السياسية لها طابع خاص يفرض نفسه على الكاتب، كما أن للكتابة الثقافية أكثر من طابع، بحسب أجناس الكتابة وموضوعاتها.

س ـ كيف إذن توفق بين هذه الازدواجية؟

ج ـ لا يختار الإنسان حياته ولا تجاربه. وحياتي كما عشتها كانت فيها هذه الازدواجية وما تزال. ولم أخطط لهذا الأمر، مع أن طموحي منذ البداية كان ثقافياً، ولم يخطر ببالي في يوم من الأيام أني سأتبوأ وظيفة سياسية.

س ـ وهل اعتزلت السياسة بصفة نهائية؟

ج ـ ما دمت قد ربطت بين السياسة والثقافة فالجواب واضح. أنا لا أستطيع أن أدعي أنني أمارس الثقافة وحدها، الثقافة من أجل الثقافة. أما بالنسبة للمهام السياسية فقد عرضت علي قيادة الحزب في عام ١٩٦٣ الترشح للانتخابات البرلمانية فاعتذرت رغم إلحاح الأخ الفقيه البصري. واعتذرت عن الترشيح لانتخابات البرلمان

عام ١٩٧٧ رغم إلحاح المرحوم عبد الرحيم وكنت يومذاك عضواً في المكتب السياسي. وإعتذرت للأخوة المناضلين المسؤولين في الحي الذي أسكنه عندما أبلغوني القرار الذي اتخذه بالإجماع المسؤولون الاتحاديون بفرع الاتحاد بعين الشق والذي يرشحني للانتخابات التي أنتجت البرلمان الحالي، فاعتذرت رغم إلحاحهم. ولن يختلف الأمر في المستقبل.

س ـ ما هو رأي الأستاذ الجابري في إشكالية القادة السياسيين الذين يفتقدون إلى التكوين الثقافي؟

ج ـ هناك قولة معروفة منذ زمان تقول: «الحمقى هم الذين يصنعون التاريخ». لم يكن الإسكندر المقدوني مثقفاً، أما أفلاطون الفيلسوف فقد تحقق من الفشل في ميدان السياسة. ومن الأمور التي هي ذات دلالة في هذا الصدد أن المدينة الفاضلة عند أفلاطون ـ وهي بنت الخيال فقط باعترافه ـ لا تتحقق إلا إذا كان رؤساؤها فلاسفة، وهذا لم يحدث لحد الآن. أما الفارابي فهو يشترط في المدينة الفاضلة أن يكون رئيسها نبياً أو فيلسوفاً. إن هذا لا يعني أن القادة السياسيين غير مثقفين، بل لكل منهم ثقافة سياسية وأحياناً حقوقية أو تاريخية أو غيرها على هذا المستوى أو ذاك. ومن السياسيين من له ثقافة سياسية «غير مكتوبة».

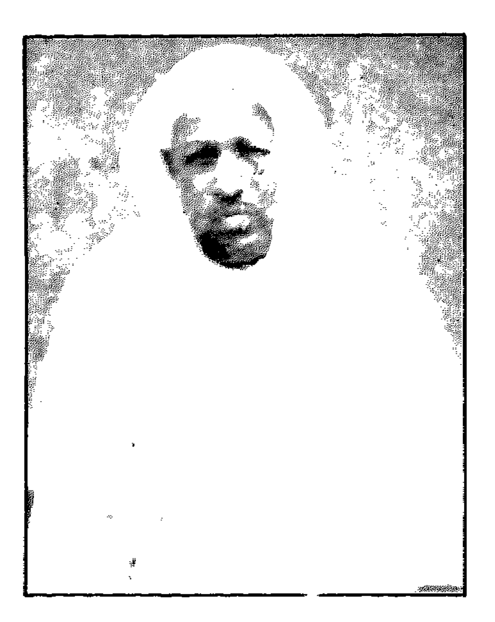
س ـ هل لديك طقوس أو عادات خاصة في الكتابة؟

ج ـ تعودت الكتابة بيدي على الورق على شكل تسويد ثم إملاء النص انطلاقاً من هذه الأوراق. وعملية الإملاء هذه عملية مركبة إذ يتزاحم فيها التفكير والتعديل ويغتني فيها الجدل داخل الفكر. أما عن أوقات اشتغالي، فأنا أشتغل منذ ما لا يقل عن ربع قرن بوتيرة يومية من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، ومن الثالثة حتى السادسة مساء. وأنام في الغالب في العاشرة أو العاشرة والنصف ليلاً بعد قراءة صفحات من كتاب أو مجلة على الفراش.

س ـ ما هي الأشياء التي يمكن أن نتوقع قراءتها في الجزء الثاني من سيرتك الذاتية؟

ج ـ هذا السؤال سأجيب عنه عندما أنتهي من كتابة هذا الجزء الثاني ويخرج إلى السوق.

ملحق الصور



الحاج محمد افرج

المعارف

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله

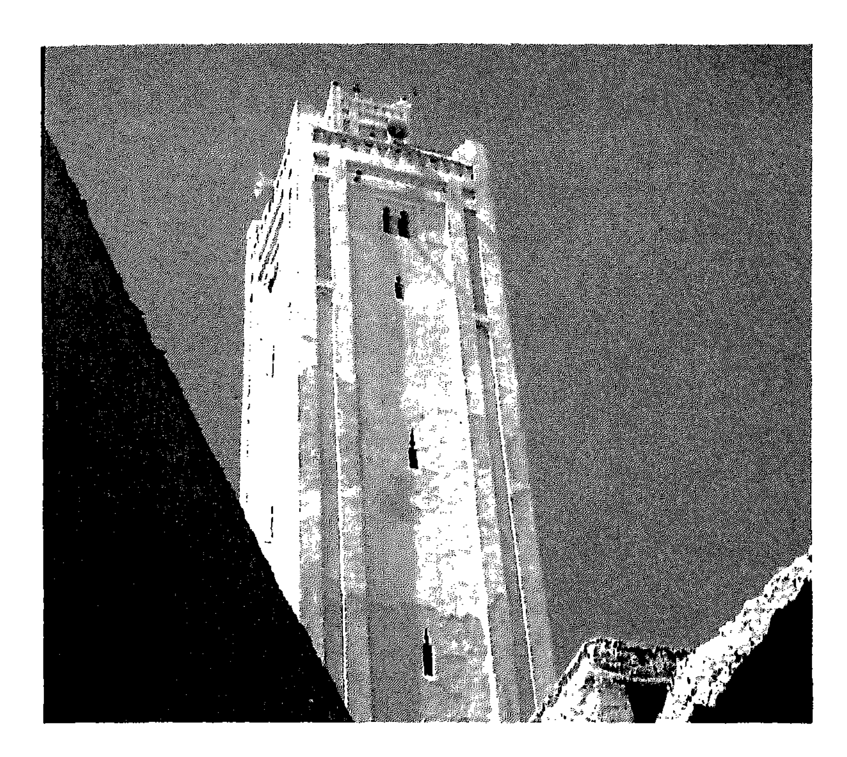
محبنا الأعز الأرضى الفقيه القاضي الأجل السيد محمد بن بلقاسم بن عبو امنكم الله وسلامه عليكم ورحمته بوجود مولانا دام نصره وبعد. فان الفقيه. المدرس الخطيب السيد محمد بن احمد بن فرج قد حظي بمقابلة الجناب الشريف اسماه الله حيث اكد عواطفه الولائية وعرض على مولانا المؤيد رغبته في احداث مدرسة قرآنية عربية بفكيك تكون جارية على منهاج الموجودات بمعظم مدن الإيالة الشريفة. وقد حبذ مولانا الفكرة وامر بالكتاب اليكم لتسعوا في تحضير ملف الطلب وفق ما يقتضيه الفصل الأول والثاني والثالث من القرار الوزيري الصادر في مراقبة المساييد بتاريخ 7 شوال 1356 الموافق ل 11 دجنبر 1937 والذي على حسبه حرر مثال طلب الذي يوافيكم صحبته و من ذلك تعلمون ان دوركم هو شهادتكم بكفاءة المعينين للتدريس الأولي والتعليم القرآني وقد عين الفقيه المدرس المذكور لذلك الفقيهين ابا القاسم بن جلول وبوعلام بن علي بن بوعزة اما الإدارة فهو الذي سيتولاها. وبناء عليه فلتحضر الملف وفق ما بين ولتوجهه عاجلا الى مندوبية المعارف الإسلامية بالعتاب الشريفة.

عن الأمر الشريف اسماه الله

وعلى المحبة والسلام.

في 14 ربيع الفرد 1365

1946





الصومعة والمسجد الجامع

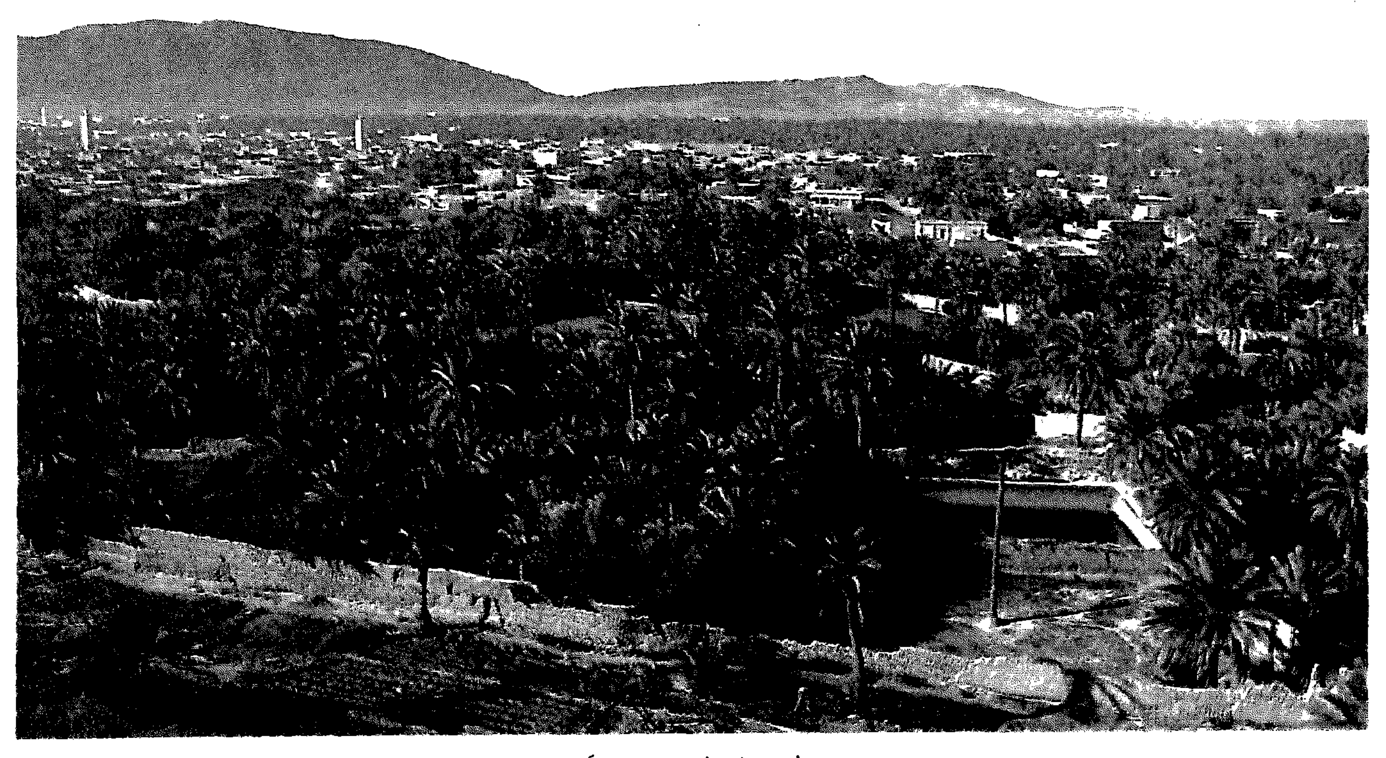


مدرسة النهضة المحمدية





أطلال من قصر أولاد جابر

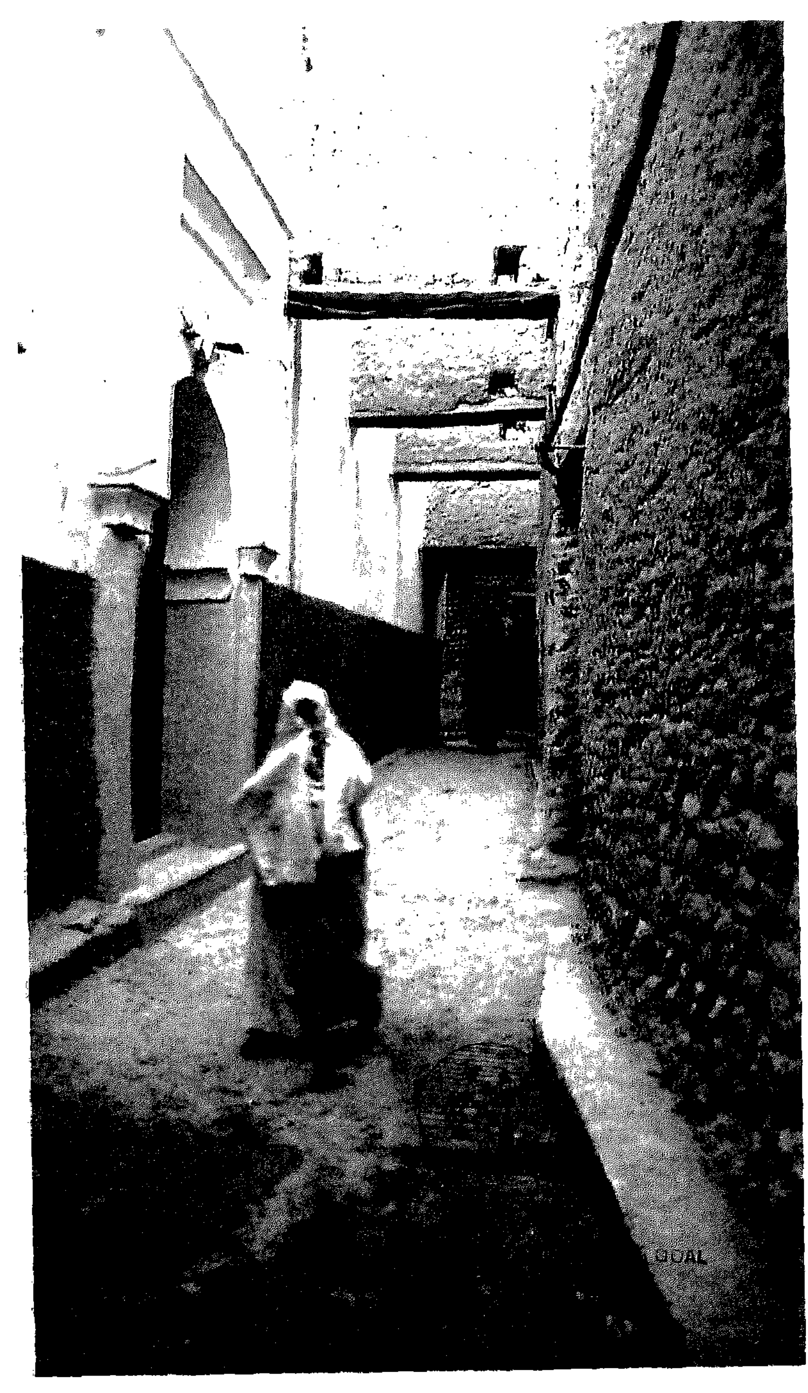


منظر عام لقصر زناكَة



وادي زوزفانة





تصوير مالي محمد

درب من قصر زناكَة

هذا الكتاب

. . . وعملية إعطاء المعنى لمعطيات الذاكرة ـ كما للقطع الأثرية ـ عملية تتعاون عليها عدة عناصر: هناك أولاً السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور. وهناك ثانياً الدلالة النفسية والاجتماعية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة من جهة ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية. وبذلك تكتسب الذكرى المسترجعة بعداً إنسانياً يحيل إلى الإنسان كإنسان، وبعداً اجتماعياً يحيل إلى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي. . . وقد يندمج البعدان معاً في سياق واحد. وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل. إن الأمر يتعلق بنص غير مقالي، غير فلسفي ولا علمي، وبالتالي لا مكان فيه للاستدلال «البرهاني». . . إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية، ويتغذى من مخزون ثقافي معين، ويوظف الصورة والاشارة والتلميح والرمز، إلى جانب ما قد يكون هناك من تدفق العفوية وإبداع السليقة. . .

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

